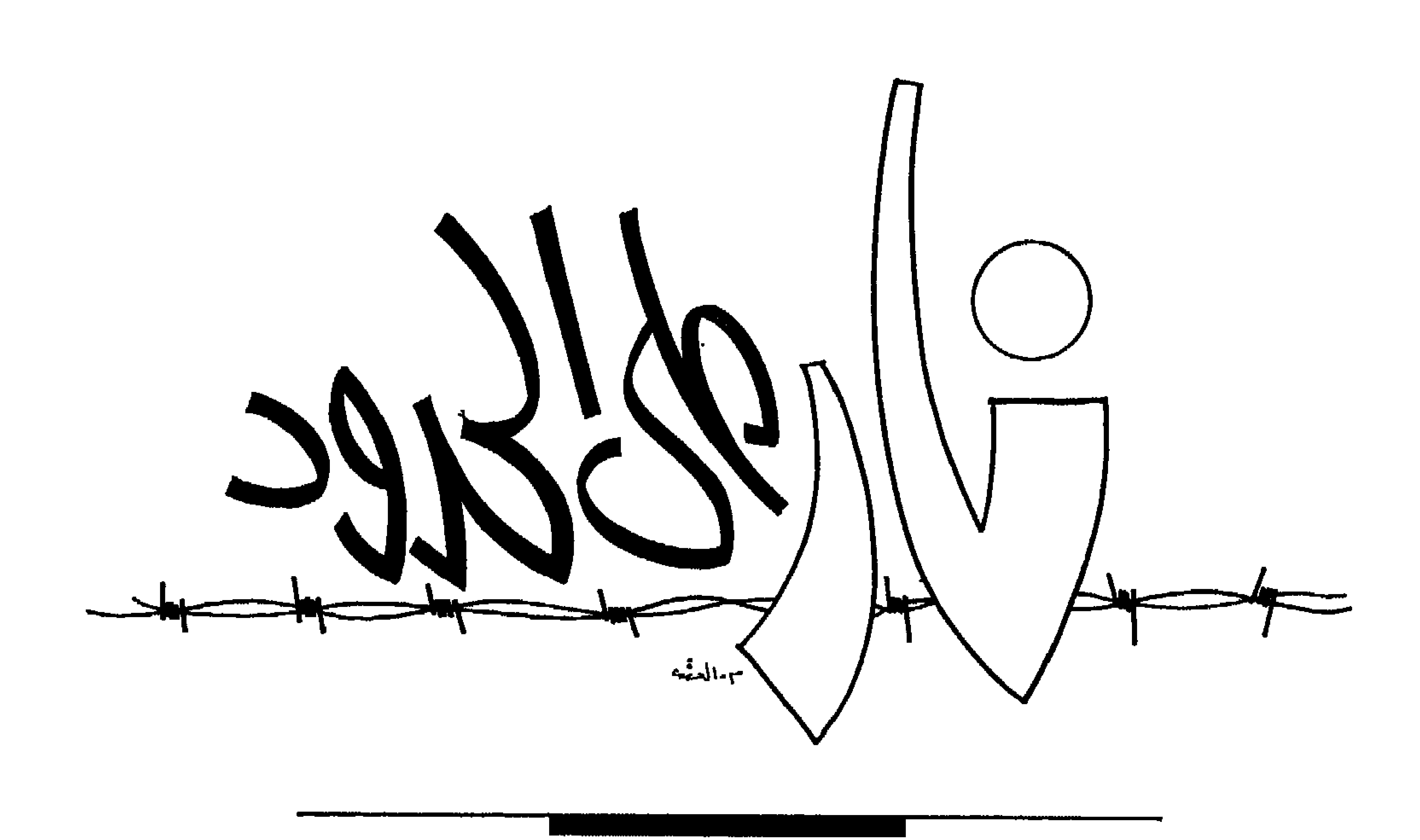

أنيس منصور
نار
على الحدود
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد ابراهيم سنة ١٩٣٨ م

أنيس منصور


خارج الحدود


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

عنوان الكتاب: نار على الحدود
اسم المؤلف: أنيس منصور .
تاريخ النشر: مارس ١٩٩٨
رقم الإيداع: ١٥١٠٩ /١٩٩٧ .
الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0688 - 1
الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢
فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢
ص.ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢
فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢

كلمة أولى :
أحب السياسة
وسياسة الأدب ..

ونحن طلبة صغار فى المنصورة الثانوية زارنا د . محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف . أما السؤال الذى كان علينا أن نجيب عنه فهو : ما الذى تحب أن تكونه عندما تكبر ؟ .

وكان جوابى : لا أحب أن أكون مدرسًا ! .

وكان ردّاً غير سياسى . . فمعناه أننى لا أحب أن أكون مثل هذا المدرس أو مثل ناظر المدرسة أو ربما مثل وزير المعارف . أى لا أحب أن أعمل عملا له علاقة بالتدريس والتعليم وتصحيح الكراريس . . وأن أقول اليوم ما سبق أن قلته بالأمس . وأن أمسك الطباشير وأشم رائحة الجير . . حتى الموت ! .

وكان صاحب السؤال هو مدرس اللغة العربية . وكان الرجل يحبنى ويحب والدى . فهو شاعر مثله . وكنت أحفظ الشعر . وأنظمه . وكان مدرس اللغة العربية يتوقع لى خيراً كثيراً فى صناعة الكتابة .

ولكن إجابتى كانت صادقة :. فقد كان ذلك هو إحساسى أو انطباعى مما أراه ومما أرى عليه المدرسين من تعب وعذاب واستخفاف التلامذة الصغار . فقد كان بعضهم لا يحترم المدرسين كثيرا . بل إن المدرس كان يكلم الواحد منهم فلا يستمعون إليه . ثم يطلب إليهم أن يتركوا الغرفة . فكانوا لا يفعلون إلا إذاجاء ناظر المدرسة . وفى إحدى المرات رفض واحد منهم أن يخرج برغم صراخ ناظر المدرسة . فقرر الناظر أن يأتى بوالد التلميذ الذى هو يكبرنا بعشر سنوات على الأقل .

فلم أكن أرى إلا صورة مؤلمة للمدرسين .

* * *

وعندما قابلت الرئيس أنور السادات لأول مرة سنة ١٩٦٩ . وكان وقتها نائباً لرئيس الجمهورية سألنى : ولماذا لا تكتب فى السياسة ؟ .

قلت : سوف أفعل .

فعاد وسألنى : متى ؟ .

فأجبت : غداً .

وكان رداً سياسياً وكتبت مقالا سياسياً . وعندما عدت إلى هذا المقال بعد ذلك ، لم أجده سياسيا تماماً ، وإنما وجدته نموذجاً للشكل والمضمون الذى أستريح إليه ، وأنا أستريح إليه ، لأن هذا هو الذى أقدر عليه . وأنا أقدر عليه ، لأنى أمارس حريتى فى التعبير . . ولكنى أراه ليس سياسيا تماماً إنما هو خليط من كل ذلك .

وفى مولد النبى عليه الصلاة والسلام ألقيت قصيدة أمام الشيخ حسن البنا فى مدينة إمبابة . وكنت فى ذلك الوقت عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين ، طالباً فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة . وكان الاحتفال فوق مبنى الجمعية . وكانت إحدى ليالى الصيف الباردة . وكان الهواء شديدا . وحاولت أن أزرر قميصى . ثم وضعت منديلا فى صدرى . ونهض الشيخ حسن البنا . وقدم لى مجلة لأضعها بين قميصى وجسمى حتى لا أصاب بالبرد ـ ولم يكن الجو هكذا بارداً ، ولكنها مخاوفى . ثم اللحظة الحرجة : أن ألقى قصيدة فى مدح الرسول أمام فضيلة المرشد العام حسن البنا . ولا أعرف كيف أنهيت القصيدة . ولا لماذا تلقاها الناس بالتصفيق . ثم نهض الشيخ البنا وصافحنى وضمنى إلى صدره . ودعا لى بأن يفتح اللّه علىّ .

ثم قال : لو حذفت بعض الكلمات مثل : الأبدية والعدم . . واللامتناهى . . والضرورة والمقولات . . لو فعلت لكانت أجمل وأوضح . .

وعندما فكرت فى هذا الذى قاله الأستاذ البنا وجدت أن الرجل كان فى غاية الرقة . وكان أستاذا وأبا . فهو لم يشأ أن يقول : لو فعلت ذلك لكانت أوضح ، وبذلك تكون أجمل .

فهو رجل الجماهير القادر على الحديث إليها فى بساطة وإقناع ، والمثل الأعلى عنده هو أن يمتلك الجماهير ، وامتلاك الجماهير لايكون إلا باجتذابها . ولا يكون ذلك إلا بالقدرة على فهمها وتفهيمها بعد ذلك .

وكان جوابى للأستاذ البنا : هذا ما فكرت فيه . ولولا أنك هنا لاعتذرت عن إلقاء هذه القصيدة . فأنا أدرس الفلسفة ولم أفلح بعد فى التخلص من مثل هذه

التعبيرات . ولكن سوف أعمل بنصيحتك وأحذفها قبل أن أنام . . بل لن أنام حتى أفعل ذلك . وهذا يشرفنى ! .

ولم أكن صادقا فى كل هذا الذى قلت . فلم أفكر لحظة واحدة فى أن هذه المصطلحات التى وضعتها فى القصيدة . فى غير موضعها .

ولكن الرد كان سياسياً . . فقد وافقت الأستاذ البنا فوراً على رأيه . وفى نفس الوقت أرضيت الرجل ، عندما قلت له إننى ضحيت بالوضوح من أجل أن ألقيها فى حضوره وليكن ما يكون ، فوجوده وإلقاء القصيدة بين يديه ، أهم كثيراً من كل عيوب القصيدة .

وعندما عدت إلى القصيدة بعد ذلك بوقت طويل ، أيقنت أنها لم تكن مفهومة . وأيقنت أنه هو الذى كان سياسيا . فلم يشأ أن يقول إنها غير مفهومة برغم موسيقاها ، ولكنه كزعيم سياسي لا يصدم الصغار ، إنما يأخذ بأيديهم . فإذا لم يكن قد نجح فى هذه المرة ، فلعله فى المرة القادمة . .

وعاتبت نفسى بعد ذلك كيف أسلم له بكل هذه العيوب من أول لحظة . لماذا لم أتمسك بكل كلمة . وأقول له : هذا أقصى ما أستطيع . وإذا كان أحد لم يفهم هذه القصيدة . فلأن مستواه الفنى والفلسفى لا يرقى إلى آفاقى البعيدة ؟ ! .

ووجدت أن هذه الإجابة ، لو قلتها فى ذلك الوقت ، لكنت خالياً من التواضع والذوق والأدب . ولكنت عنيداً مكابراً مغروراً . . ولكنت بعيداً عن السياسة تماماً .

ولم تمض هذه الحادثة الصغيرة دون نقاش طويل بينى وبين نفسى ، وبين زملائى أيضا . وكثيرا مارويتها متندرا برقة الشيخ البنا ، أو متندرا بضعفى . أو مدللا على خجلى وسهولة إحراجى أو على غرورى كطالب صغير تخصص فى الفلسفة وتهجم على كل المذاهب الفكرية والدينية . دون أن يصيبه من هذه المذاهب والنظريات شىء . . وإنما كنت كالذى يسبح ولا يبتل ، ويمشى حافياً على الشوك ولا يقول : آه . .

أو أنى تخيلت ذلك . .

وأنا طفل ذهبت لزيارة جدي وجدتى . وكان ذلك فى الريف . وفجأة توفى خالى . وكان رجلا وسيماً رقيقاً جميل الصوت . وقد تعلقت كثيراً بصوته ووجهه وهو يغنى . وكان الكثيرون يفعلون ذلك .

ولما مات انقلبت الدنيا واضطربت الأوضاع وتمزقت العلاقات . . وعرفت مالم أكن أعرف من أشكال الحزن والغم فى الريف . ورأيت النساء يضعن الطين على رءوسهن . ويصبغن بالسواد وجوههن . وكن يرقصن من الألم فى حلبات مثل حلبات الذكر . وأدهشنى أن أجد أمى أيضاً . ولم أفهم شيئاً . ولم أكن أتصور لحظة أن أمى هذه من الممكن أن تهتز أو يمزقها شىء أو تذوب دمعا على أحد . . فقد كنت أراها قوية صابرة ، وكنت أرى عنفها وهى تضربنى كثيرا ولأسباب كثيرة أيضا . ولم تكن كلها أسباباً معقولة . ولكن عندما كبرت وجدت لها ألف عذر . وبعد وفاة خالى وجدت من يقول لى : لا تلعب مع فلان . . لاتذهب إلى «هذه» المدرسة بعد اليوم . . ولا تجعل فلاناً يدخل بيتنا . . وخاصة أخاه الأكبر . .

وأصبح من المحرم علينا أن نذهب إلى حارة فلان وأن ندخل بيت فلان ، انسدت بيوت كثيرة وأغلقت حارات كثيرة ، وحرمت علينا علاقات عديدة لماذا ؟ لأن خالى مات . ولكن ما علاقة خالى وموته بهؤلاء الأطفال أو الرجال . أشيع أن زوجته هى التى قتلته . . أو كانت سببا فى وفاته . ولذلك يجب أن نقاطع أسرة الزوجة وجميع أقاربها من الرجال والأطفال والبيوت والحارات والمدرسة التى يملكها أخوها . . .

ودارت معارك كثيرة بالطوب والحجارة . . واستخدمت الأسلحة النارية . . وأشعلت الحرائق . . وهربت الجواميس والأبقار والأغنام ليلا من بيت إلى بيت . . ثم كان الخلاف على من يكون العمدة بعد ذلك ! .

وجاء عدد من البكوات والباشوات ، يحاولون إصلاح مافسد من هذه العلاقات . . وأغلقت عليهم الأبواب والنوافذ . . وقدمت لهم الأطعمة الضخمة الفخمة . . ثم منعونا من الاقتراب من الحجرات التى يجلسون فيها . . وكان الكلام همساً والحركات لمساً . .

وبعد سنة من وفاة خالى سمعت والدتى تتحدث مع بعض صاحباتها عن وفاة خالى . فتقدمت متطوعاً قالا : إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره وفى صحة جيدة . ومات فجأة لأن زوجته هى التى قتلته ! .

ورأيت عشرات النجوم فجأة أمام عينى . فقد صفعتنى أمى على وجهى بمنتهى العنف ! .

وعرفت فيما بعد أن صلحاً قد تم بين أقاربى وأقارب زوجة خالى . فقد دفنوا

الماضى مؤمنين بأن الأعمار بيد الله . وأن خالى توفى لأنه كان مريضاً . وأنه كان لابد أن يموت .

ولم تقل أمى ما الذى كان يجب أن أفعله أو لا أفعله حتى لا تغضب منى . ولكن عرفت فيما بعد أننى حشرت نفسى بين الكبار ، وأننى تدخلت فيما لا أعرف . وأننى مثل والدتى تماما . لم أكن سياسيا . وكان فى استطاعة أمى أن تقول مثلا : إنه صغير . . إنه لا يفهم . . إنه لايزال يكره ما يقوله الناس .

أو كانت تقول : إن حبه الشديد لخاله هو الذى جعله يتصور دائماً أن التى قتلته هى زوجته . وهو لم يكن يحب زوجة خاله لأنها ضربته فى إحدى المرات . .

ومضى وقت طويل جدا . قبل أن أنسى هذا الذى فعلته أمى .

ولكن ما هذا الذى كان ينقصنى . إنها السياسة فما هى ؟ .

يقال : إن الإنسان السياسى هو الذى يستطيع أن يتثاءب دون أن يفتح فمه . . أو إنه الذى يقول : نعم وهو يقصد أن يقول : لا . .

أو هو الإنسان الذى يحاول طوال حياته أن يجد كلمة واحدة للدلالة على : لا ونعم معا . . ثم إنه لا ييأس . .

ومعنى هذه التعريفات الساخرة أن السياسة هى ألا يكون للإنسان رأى واضح فى شىء . أى يجب أن يكون حريصا على ألا يقول . على ألا يكشف عن وجهه . ولكن المثل يقول : كيف تضحك وتخفى وجهك . أو كيف تبكى وتخفى دموعك . إن هذا غير ممكن . . ولكن الممكن هو أن يحسن الإنسان اختيار الوقت والأسلوب الذى يقول به : لا . . ويقول به : نعم .

ولكن لابد أن يقول . .

وفى كل هذه الأحداث التى رويتها كان المطلوب هو : نوع من ضبط النفس . أى أن يكون رأيى صريحاً إلا قليلا . وأقرب إلى إرضاء الآخرين . أما الصراحة الكاملة فمن الواجب أن أحتفظ بها لنفسى .

وفى يوم فوجئت فى بيتنا بواحد من أقاربى كان الاتصال به محرما . وسمعته يقول لوالدتى : ولكن ابنك ما ذنبه . . مادخله . . يجب أن يكمل القرآن الكريم . . لم يبق غير جزء واحد . . يجب أن يحفظه . . وبعده افعلى به ما تشاءين . . . إنه باسم الله ماشاء الله يحفظ بسرعة . . لا تضيعى مستقبل الولد .

وأعتقد أن هذه العبارة الأخيرة هى التى جعلت أمى تتحدى كل الأسرة وتوافق على أن أذهب إلى المدرسة وأكمل حفظ القرآن الكريم . حتى لا يضيع مستقبلى . .

ثم سمعت الرجل يعود إليها قائلا : ولماذا يجىء إلى المدرسة سراً ؟ لماذا تفرضين عليه أن يصحو مع الفجر ويسبق جميع الأطفال إلى المدرسة ؟ حرام عليك . . إنه لا يسرق . إنه يحفظ كتاب الله . .

وكانت أمى تأمرنى أن أذهب مبكراً جداً حتى لا يرانى إخوتها وأخواتها . ويكون ذلك خرقا لاتفاق غير مكتوب بمقاطعة المدرسة وصاحب المدرسة لأنه أخو زوجة المرحوم خالى . .

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الأطفال إلى مدرسة هذا الرجل . . وبعد أن ذهب الأولاد تقارب الآباء والأمهات وانفتحت الحارات والبيوت . . وكنا نلتقى جميعاً لنقرأ الفاتحة على روح المرحوم خالى . .

ويحدث بين الناس وبين العائلات ما يحدث بين الشعوب والدول . تختلف . وتتقاطع وتتمزق وتتباعد وتتحارب . ثم تتقارب وتتفاوض ويكون سلام . وأساس السلام أن كل طرف يريد أن يحمى حياته وثرواته ومستقبل أجياله . . وهذه هى السياسة الكبرى . التى تبدأ بسياسة صغرى بين الأفراد والعائلات .

فما هى هذه السياسة التى كنت أطالب نفسى بها ؟ .

إن سقراط العظيم عندما قال : «اعرف نفسك» كان سياسيا .

ولكن عندما قال : «اعرف نفسك بنفسك» كان فيلسوفا .

لأننى بالآخرين ، أى بعلاقتى بالآخرين ، من الممكن أن أكون اجتماعيا وسياسيا . . أن أكون ابنا لأحد ، أو أبا أو زوجا أو رئيسا أو شريكا ـ فكل هذه علاقات بالآخرين . وهى علاقات اجتماعية . وتنظيم هذه العلاقة وتأصيلها ومتابعتها وتطويرها والتمرد عليها ـ كل ذلك سياسة . ولكن أن أجلس وحدى وأغلق بابى وعينى وأنطوى أفكر فى هذا الإنسان الذى هو أنا . . وأحاور نفسى وأضبط نفسى . وأتخذ لى شعارا أو قرارا أواجه به الدنيا ، فأنا هنا متفلسف . ولكن عندما أطالع الناس بما قررته ، ثم أصطدم بالناس . فى هذه الحالة فقط . ومع هذه البداية فقط ، أكون على عتبة السياسة . تماما كما يجلس الإنسان على الشاطئ بعيدا عن الماء . فإذا فعل ذلك فهو ليس فى حاجة إلى دراسة علم وفن السباحة ، أو معرفة قوانين الطفو . ولكن إذا ألقى بنفسه فى الماء ، فهنا فقط سوف يقاوم الموج ،

وفى الوقت نفسه يطفو عليه . . فلكى أسبح لابد من الماء ، ولا بد أن أقاوم الماء حتى لا أغرق ، ولابد أن أنظم هذه المقاومة حتى أطفو وأسبح . . أى لابد من الحركة بالماء وضد الماء وعلى سطح الماء . وكذلك العلاقات الاجتماعية : هى علاقات مع الناس ، وبالناس وضد الناس .

ومعرفة طبيعة هذه العلاقات : هى أساس علم الاجتماع ، ولكن تنظيم هذه العلاقات هو أساس السياسة . .

أما تحليل طبيعة الإنسان أيا كان أبا أو أخا أو ابنا . فهو أساس علم النفس . .

وكل إنسان له تاريخان : تاريخه هو كفرد فى أسرة صغيرة . . وتاريخه هو كفرد فى الأسرة الكبيرة التى هى المجتمع الكبير : القرية أو المدينة أو الحضارة الإنسانية . ولكن على الرغم من أننى جزء صغير من شىء كبير . فإننى جزء متميز تماماً عن الآخرين جسماً واسماً وإثماً .

والناس جميعا . مثل حيوان الكانجرو يجلس على ذيله . وكذلك الناس يستندون إلى تاريخهم . .

وتاريخى كفرد فى أسرة صغيرة لم يؤهلنى لأن أكون سياسيا . إنما يؤهلنى لأن أكون متفلسفا . أو مشتغلا بالأدب . فقد كانت حياتى فى الريف قلقة . وكانت أسرتى تنقل من مكان إلى مكان . وكان من الصعب أن تكون لى علاقة ثابتة بأحد . فالشىء الثابت فى حياتى هو : أنه لاثبات ، وعلى ذلك فلا علاقات . بل لاضرورة لأن أفكر أو أندفع إلى تكوين علاقة لا تدوم . ولذلك حرمت طويلا من الصديق . . تمنيت ولكنى لم أستطع . حتى والدى لم يكن مقيما معنا . ولذلك كان شوقى الدائم إليه . وارتباطى العضوى بأمى ، وكان أبى رقيقا عطوفا شاعرا أخذ بيدى إلى عالم الكلمة الجميلة ، فجعلنى أحفظ القرآن طفلا . وأحفظ مئات الأبيات من شعره ومن شعر المتصوفين . وكان جميل الصوت . وكنت أيضا . وتوهمت أننى سوف أصبح مطرباً إما استمراراً فى حبى لأبى أو لخالى . وإما ارتباطا أقوى بالكلام الجميل فى القرآن الكريم والشعر الصوفى الغنائى . وإما كسباً لمزيد من احترام الناس . . فقد كان الناس فى الريف يحترمون رجل الدين ورجل الشرطة . وكنت أريد أن أصبح رجل الدين وكنت أجد متعة فى ذلك . فإذا سألنى أحد عن شىء فإننى أجيب . فإذا طلب منى أن أحلف باللّه العظيم . فإننى أقول له : لا أحلف . إننى لا أكذب لقد حفظت القرآن الكريم ! .

فإذا قلت ذلك تغيرت الوجوه وامتدت الأيدى إلى رأسى تباركنى وتدعو بالخير. إذن فأنا لا أكذب وأنا هكذا مختلف عن كل الأطفال ثم إننى أحفظ الشعر وأقرأ القرآن بصوت جميل. وكذلك أتغنى بالقصائد.. وبعد ذلك بالأغنيات المعروفة. وكنت أتمنى أن يسمعنى أبى. ولكن لا أجده. ولم تكن أمى تجد شيئا غريبا فى كل ذلك. فقد ثقلت هموما. وأرهقتها أمراضها أيضا. وهكذا وجدت أن حبى لأمى ليس متبادلا. إننى أحبها وأتوجع لعذابها وهوانها. ثم إنها ليست قادرة على التعبير ففى عينيها كل الحب. ولكنها لا تقول ذلك وإذا حاولت أنا. وقد حاولت. فإنها لا تسمعنى.. فهذا الذى أريده منها ترف عظيم لا تقوى عليه. وليست فى حاجة إليه. إنها تريد أن تسمع منى عبارة واحدة فى نهاية كل سنة: أننى نجحت وأن ترتيبى جاء الأول!.

وقد سمعتها أمى فى كل سنوات الدراسة.

وتدربت طويلا على الصمت وعلى العزلة وعلى الانكفاء على الكتب. وتدربت على أن أرى الناس عن بعد.. فلم أكن قادراً على أن أراهم وأنا بينهم.. فلم يكن بينى وبينهم شيء كثير. ولا ألوم الناس. إنما هى الأرض التى تتحرك تحت أقدامنا فتباعد بينى وبين الناس..

والتصق خيالى وقلمى بذلك المثل اليونانى القديم: إن الحجر المتحرك لاينبت عليه العشب! وأيقنت أنى هذا الحجر المتحرك. أما العشب الذى لا ينمو عليه فهو الكثير من العلاقات الإنسانية.. ولكى ينبت العشب، لابد للحجر أن يستقر. أن يسكن. فيسقط عليه الماء. ويجيء عصفور يلقى ببذرة يتمسك بها الحجر.. وهكذا تولد كل العلاقات الإنسانية.. وانتقلت من هذا الحجر الذى لا ينمو عليه العشب إلى كل الأحجار التى تحدثت عنها أساطير الإغريق.. فلم يفارقنى ذلك الحجر الذى يدفعه البطل سيزيف إلى قمة جبل.. فإذا بلغ القمة انحدر إلى السفح. فعاد سيزيف يدفع الحجر أمامه إلى القمة، لينحدر إلى السفح.. وإلى الأبد.

فقد حكمت عليه الآلهة بأن يقوم بهذا العمل الذى لا معنى له..

وعرفت أن عظمة سيزيف: هى أنه برغم علمه تماما بأنه لا أمل فى أن يتخلص من هذا العذاب. فإنه كان يدفع الحجر بحماسة وحيوية وتصميم. كأن النهاية آتية لاريب فيها وتعلمت أن سيزيف قد أغاظ الآلهة بذلك.. فهو لم يشعر بسخافة

مايقوم به . . ولم يشعر بالملل . وكأن الآلهة يريدون أن يعذبوه بالملل وأن يعذبوه باليأس . . ولكنه هو الذى عذب الآلهة باستمتاعه بما يفعل . .

ولم يغب عن عينى ذلك الحجر الذى كان يتعذب به تنتالوس أيضا . . فقد حكمت عليه الآلهة بأن يجلس عند مدخل أحد الكهوف . . ثم يجعلون حجراً ضخماً يسقط على رأسه ويكون لهذا السقوط دوىّ هائل . . يسبق سقوطه وفى أثناء سقوطه . . ولكن الحجر يتوقف عند مسافة قصيرة من رأس تنتالوس . . أى يخيفه ولا يصيبه . . ويظل الحجر يعلو ويهبط إلى الأبد .

ولكن تنتالوس اعتاد على هذا الخوف . . أو اعتاد ألا يخاف ـ وقد أغاظ الآلهة بهذه اللامبالاة التى تدل على أنه عاقل . وأن الآلهة ليسوا كذلك . . وتمنيت أن يكون عندى «حجر الفلاسفة» يلمسونه فيتحول كل شىء إلى ذهب . ولم يكن الذهب أملى فى الحياة . . وإنما كان أملى أن أكون قادراً على التعبير الجميل . . وأن أكون قادرا على فهم ألغاز الكون ومشاكل الحياة . .

وعرفت معنى الحجر الذى تصنعه عيون الجرجون ـ ففى الأساطير الإغريقية أيضاً أن بنات الجرجون إذا نظرن إلى شىء تحول حجرا . فمن الخير لهن ألا ينظرن إلى شىء . . إذا نظرن إلى الطعام أصبح حجرا . إذا نظرن إلى الناس أصبحوا أحجارا . . إذن فمن الخير لهن أن يعشن وعيونهن مغلقة . .

فلكى يكون الإنسان سعيداً فى هذه الدنيا . لابد أن يطبق عينيه كثيراً . . وألا ينظر إلى الآخرين أو مافى أيدى الآخرين ! .

وتذكرت قصة زوجة لوط التى جاءت فى التوراة . فعندما أمر اللّه بإحراق مدينتى سودوم وعمورة خرج لوط وزوجته وبناته . . واحترقت المدينتان . . وطلب إلى زوجته ألا تنظر وراءها . . أو طلب إليها ألا تندم على مافات . . وماتركته وراءها ، وإلا تحولت إلى تمثال من الحجر . . وحاولت زوجة لوط أول الأمر ألا تفعل ذلك . ولكنها لم تستطع أن تقاوم حب الاستطلاع . أو الشعور بالندم أو الأسف . . فنظرت وراءها فتحولت إلى تمثال من الملح . .

إذن كان لابد وأنا أحاول أن أعرف نفسى بنفسى أن أنظر إلى نفسى دون أن أكون حجراً . . وفى الوقت نفسه أريد أن أكون حجراً ثابتاً لينمو عليه العشب .

أى أن هناك مشاكل لاحيلة لى فيها . . ولا علاج لها إلا بأن يسكن الحجر . فإذا لم يسكن الحجر . فلا أفقد الأمل فى أن عشبا سوف ينبت عليه . .

وعندما ذهبت إلى الجامعة تخصصت فى الفلسفة . ومعنى ذلك أن الفلسفة بدأت مزاجاً نفسيا لأسباب اجتماعية ، فأصبحت أسلوبا عقليا لأسباب مهنية .

وقد كانت لى محاولات فى نظم الشعر وكتابة القصة . . وقرأت كثيراً فى الأدب وتاريخ الأدب . وأحببت عدداً كبيراً من الأدباء ، أحرص على مايقولون وأنتظره وأتابعه وأنشغل به . .

ورأيت فى الشعر الصوفى الذى حفظته صغيراً كلاماً كثيراً عن اللّه والوجود والكون والروح والشفافية . . ووجدت احتراماً للقلب واحتقاراً للمعدة . . ووجدت تعظيما للروح وتحقيراً للجسد . . ووجدت اللّه فى كل شىء . ولذلك فكل مكان نجد فيه اللّه هو مكان يستحق الاحترام والتأمل فاللّه فى كل شىء . . لأنه لا يمكن أن يخلو مكان من قدرة اللّه أو حكمة اللّه . . وأن أعظم ما فى الإنسان أن اللّه فى كل خلاياه . . وأن الإنسان جزء من اللّه وقبس من نوره . . وأن هذه الدنيا فانية . . وأن الدنيا جسر نعبره ولا نعمره . . وكان والدى يردد هذه المعانى كثيراً وكان له صديق من رجال الدين كنت أراه نموذجاً رفيعا لكل ما يجىء فى الشعر الصوفى . . فهو نحيف القوام . وهو هادئ الحركة . وهو هامس الصوت . وهو مضىء الوجه وهو لا يرفع عينيه عن السماء . وأكثر الكلمات ترددا على لسانه : اللّه . . والرسول . . والجنة . .

ولم أكن فى ذلك الوقت أعرف كثيرا : كيف يكون إنسان بهذه الطيبة وبهذا الصفاء ثم إنه فقير . وكذلك أبى . كان هو الآخر طيباً رقيقاً رحيماً يبكى لأحزان الناس . وينهض لزيارة المريض وشراء أدوية له . . أى مريض . . فى أية ساعة من الليل . . ثم يتغنى بكثير من الشعر له ولغيره وبكثير من آيات الله . . ويرفع يديه يطلب من اللّه شفاء كل مريض وعودة كل مسافر . وكان يكثر من دعاء الرسول عليه السلام : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . .

وكان والدى يقطع الدعاء ويلتفت ناحيتى ويقول ضاحكاً وكأنه يعتذر لى عن الذى حدث أو الذى قال : ولكنك إن شاء الله سوف تكون شيئا آخر . . إن الله قادر على كل شىء . .

ولم أكن أعرف بالضبط ما هو هذا الشيء الذى هو «أنا» . . أو الذى لا يحب أبى أن أكونه . . لم أعرف . .

وحفظت الكثير من أدب الدنيا والدين «للماوردى» . . وأكثر ما فى هذا الكتاب عن آداب السلوك الأخلاقى . . أو العادات الفاضلة بين الناس . .

وكنت مشغولا بالكلام الجميل . وكنت مشغولا بروايته . ولا بد أن مثل هذا الكلام قد استقر فى أعماقى : متعة وأملا . . متعة عندما أرويه . ومتعة عندما أجد الناس يقدرون لى ذلك . . وأملا فى أن يكون لى مثل هذا الاقتدار فى التعبير . .

وكان من الطبيعى أن أتجه إلى الفكر والتأمل . . وهذا أحد معالم نشأتى العقلية أو بداية اهتماماتى الفلسفية التى استغرقت كل حياتى . . فهى أقرب إلى المزاج الشخصى . والسلوك الاجتماعى . . أو «اللا اجتماعى» على الأصح . ثم أسلوبا فى الاقتراب من الأشياء والناس والعلاقات الإنسانية والأحداث التاريخية .

ومثل كل الطلبة الصغار اتجهت إلى كتب الفلسفة . وأول كتاب وجدته كان فى «المكتبة الفاروقية» وهى المكتبة العامة بمدينة المنصورة . وهى «الفاروقية» نسبة إلى الملك فاروق . . الكتاب صغير فى ٢٥٠ صفحة وعنوانه «تاريخ الفلسفة فى كل العصور» تأليف محمد أفندى حسن الهلالى . لقد ظللت أتردد على هذه المكتبة شهراً أقرأ هذا الكتاب ، قرأته عشرين مرة . هل فهمت منه شيئاً ؟ يمكن أن أقول إننى التهمت الكتاب . ولا أقول تمتعت بذلك . أى أننى ابتلعت الصفحات والمعانى والأسماء دون أن أجد لها مذاقاً لذيذاً . لقد كان مذاقها «خاصاً» أى مختلفا فقط . ولكن بعض المعانى هزتنى . وبعض الأفكار صدتنى . وأدهشنى أن أحداً من زملائى لم يعرف هذا الكتاب . ولم أشأ أن أحدث أحداً عنه . وظل الكتاب سرا ، ثم هدانى هذا الكتاب إلى كتب أخرى فى الفلسفة . ووجدتنى أختلف عن زملائى . وأهتم بما لا يهم الكثيرين . ومضيت فى طريق تهيأت له نفسيا تماما . إن هذا الكتاب قد فتح نفسى على نفسى . وأطلعنى على أعماقى . وأغمضت عينى لأرى أوضح وأجمل وأعمق . وعرفت الجلوس وحدى . والنظر إلى الأشياء وإن كنت لا أراها . وتوهمت أن الأشياء تحدثنى . وتوهمت النجوم تكلمنى وتخيلت القمر يغازلنى ، وقلت فى ذلك شعراً . .

وفى مسجد الشيخ حسين بالمنصورة كان الخطيب فصيحاً بليغاً قوياً يتزاحم

الناس على سماعه كل يوم جمعة . وذهبت أيضاً . ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل الناس لماذا هذا الزحام على الرجل . وعرفت السر الكامن وراء ذلك : إن الرجل يتفلسف . إنه يروى قصص الأنبياء ويفسر فلسفتها . . ثم إنه أول إنسان سمعته يتحدث عن المعنى وراء ما تنشره المجلات الأدبية للأستاذ العقاد ولطه حسين . . ولم أكن أعرف هذين الكاتبين العظيمين . . وكان يناقشهما ويعترض . وكان يعارضهما ويستفز . وكان يستفزنا وينتظر أن ننهض وراءه لنقتل هذين الرجلين ! .

وتخيلت فى ذلك الوقت أن خطيب المسجد قد اهتدى إلى الكتاب الفلسفى الذى قرأته كثيراً . وأنه هو أيضاً . لا يريد أن يعرف الناس ذلك . . فهو يقلب الكتاب قبل أن يلقى خطبة الجمعة . فقد عثرت على بعض المعانى فى خطبه ، أتى بها من هذا الكتاب وأسعدنى هذا الاكتشاف . فقد التقيت مع خطيب المسجد عند الإعجاب بكتاب واحد وأننا اهتدينا معاً إلى كنزى سرى لا يعرفه أحد ! .

ولابد أن تكون كتب «قصة الفلسفة اليونانية» و «قصة الفلسفة الحديثة» الذى ألفه أحمد أمين وزكى نجيب محمود . ثم ترجمة زكى نجيب محمود لبعض «محاورات أفلاطون» . هى التى جعلت الأرض تستقر تحت قدمى نهائيا ، وأصبحت الفلسفة طريقى وهدفى وطعامى وشرابى ومستقبلى . فهذه الكتب تمتاز بالوضوح وجمال العبارة . ولا أظن أن أحداً استطاع أن يجعل الفلسفة تبدو أجمل وأمتع وأروع كما فعل زكى نجيب محمود . فهو فيلسوف أديب . أى أنه قادر على الفهم السليم وقادر على نقل الذى يفمهه فى عبارة أسهل وأجمل . ففى هذه الكتب يتحقق للقارئ : المعنى العميق والفهم الواضح والأسلوب المشرق .

وكلها مشهيات قوية لمن لديه استعداد فلسفى . وكان عندى هذا الاستعداد . أى الرغبة القوية والصبر على ذلك والأمل فى التفوق . .

وربما الذى أعجبنى فى الفيلسوف العظيم سقراط هو الذى أعجبنى فى الأستاذ العقاد بعد ذلك . فكلاهما قادر على توليد المعانى . بعضها من بعض . وكلاهما صاحب منطق قوى وحجة مقنعة . وكلاهما قد تفرغ للفكر . وكلاهما يرى أن الإنسان أعظم الكائنات وأن العقل أعظم ما فى الإنسان . . وأنه هو مركز هذا الكون . وأنه من الممكن أن يكون الإنسان فقيراً وعظيماً . . وأن العظمة من شروطها الفقر أيضاً . لأن الفقير إنسان حر من كل قيد . . فهو لا يملك . ومادام لا يملك فهو ليس مقيداً بما يملكه . . لأن الذى يملكنى هو الذى أملكه . . فصاحب البيت ينام خائفا على بيته . وصاحب المال ينام خائفا على ماله . . وكذلك صاحب الأولاد

الأحفاد . أما الفقير فقد تحرر من كل الأشياء التى يملكها . . والتى هى تملكه أيضا . . إلا عقله العظيم الذى لا يستطيع أحد أن يسرقه . والذى لم يحصل عليه من أحد . . وإنما هو هبة من السماء . . وهذا هو الفارق بينهم وبين الناس العاديين .

أذكر أن الأستاذ العقاد قال لى مرة . ردا على أنه جاء من أسوان ليضىء الحياة فى القاهرة : يامولانا وهل تتصور أن الله يخلق موهبة عبثاً . . خلقها «هناك» لأن لها ضرورة «هنا» ! .

وسقراط نفسه قال : إن آلهة الإغريق يحسدون الفلاسفة . . لأن الفلاسفة هم وحدهم الذين يعرفون ضرورة وجود الآلهة . ولكن الآلهة لا يعرفون ضرورة الفلاسفة!

ووجدت كتاباً يتحدث عن حياة سقراط أكثر مما يتحدث عن فلسفته . . الكتاب اسمه «حياة سقراط» من ترجمة عباس ذهنى حسنين . ومن تأليف رنيه كاستيلو . ولاحظت أن المؤلف يخرج المعانى والحكم من حياة سقراط ومن علاقته بتلامذته ومن علاقته بزوجته وأولاده . . وعلاقته بتلميذه أفلاطون .

أما المفاجأة الكبرى فهى أن لسقراط فلسفة فى السياسة . إنه ينادى بقيام دولة من نوع خاص يتحقق فيها العدل ويكون الفلاسفة عند قمتها . والفنانون أصحاب العواطف والنزوات عند سطحها بل فى قاعها .

ولم أجد سقراط يتحدث عن «الدنيا» أى عن هذه الحياة اليومية . . عن هذه العلاقات الإنسانية وعن مشاكل الناس ومتاعب الناس . . إنه غير راضٍ عن هذه الدنيا . . ولذلك يريد أن يخلق دنيا جديدة . . شعوباً أخرى . . علاقات نموذجيًة . . إن سخطه على هذه الدنيا جعله يفكر فى الدنيا المثالية التى لا وجود لها إلا فى خياله . .

ووجدت فى الكتاب أيضاً أن تلميذه أفلاطون حاول أن يحقق هذه الدنيا العادلة النموذجية . ولكنه فشل . وأذكر أننى وجدت مثل هذه العبارة للمؤلف الفرنسى : عاش سقراط غريباً عن دنياه ، ومات غريباً عن دنياه أيضاً . كان أكبر من شعب أتينا ، وأعظم من القضاة الذين حكموا بإعدامه . ولكن أحلام سقراط لم تمت . ثم إن الكثير الذى استنكرته الإنسانية من خيال سقراط ، قد تبنته كل المذاهب الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية بعد ذلك . . فسقراط أستاذ الفلسفة والسياسة فى كل العصور ! .

ولم أعد أجد شيئا ممتعا عن الفيلسوف العظيم سقراط . . الفيلسوف «التوربين» أى الذى تتولد لديه المعانى من شدة تساقط الأفكار فى كل حوار مع تلامذته . .

ففى النقد الفلسفى يقال : إن سقراط هو الذى أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض . . أى أنه هو الذى جعل قضايا الفلسفة قضايا إنسانية . . فهو يحاور الشباب ويسألهم عن الحب والزواج والجنس والفقراء والأغنياء والجمال والجسد والفضائل والرذائل . . ولكن الذى فعله سقراط هو أنه فقط جعل لأفكاره صوتاً . . فهو لا يلقى خطاباً أو يملى مقالا . . وإنما هو يجرى حواراً . . مع أى أحد . . ولذلك فكل الذين يحاورهم هم «أى أحد» فليست لأحد فيهم معالم متميزة . . ومن الممكن أن تكون محاورات سقراط التى سجلها تلميذه أفلاطون ، حواراً بينه وبين نفسه . . فهى تعطيك انطباعاً بأنها مناقشة ولكنها ليست مناقشة علنية . . إنما هى مناقشة سرية . . فسقراط يريد أن يعرف نفسه بنفسه . .

* * *

من متابعتى لما تنشره مجلتا «الرسالة» و «الثقافة» وجدت سلسلة من المقالات عن «فلسفة دستويفسكى» والمفاجأة أن دستويفسكى لم يكن إلا روائيا عظيما . وكنت أتصور قبل ذلك أن الفلاسفة هم سقراط وأفلاطون وأرسطو وهيجل وشوبنهور ونيتشه . عباقرة تفرغوا للفكر فقط . وليس بينهم واحد يؤلف القصص الطويلة أو القصيرة . . ولكن وجدت أمامى شيئاً جديداً وجدت أديبا فيلسوفا . ووجدت له فلسفة فى الحياة الاجتماعية وقواعد فى علم النفس الجنائى . ووجدت قواعد وأصولا لبناء الرواية .

إذن فهناك بين الفلاسفة : فلاسفة لهم دراسات تحليلية . وفلاسفة لهم روايات فيها حياة وصراع . . ومن تصارع الأشخاص تتولد أفكار جديدة . مواقف جديدة . وأنماط جديدة من الحياة .

ووجدت مقالا مترجماً يقول : إن دستويفسكى هو «الينبوع الحقيقى» للفلسفة «الوجودية» المعاصرة . .

وكانت هذه أول مرة أقرأ كلمة «الوجودية» ولم أعرف معناها . . ولا شرح أحد ذلك وأصبحت هذه الكلمة «ضالتى» التى يجب أن أعثر عليها . .

وفى امتحان مادة الفلسفة فى المسابقة التى أجرتها الدولة لطلبة التوجيهية سألنى المؤرخ الكبير الأستاذ يوسف كرم قائلا : هل تعرف كيف تصف وجود اللّه؟ .

فقلت : إن «الوجود» ليس من صفة اللّه . إن الوجود من صفة الإنسان الذى يولد ويموت . . ولكن اللّه هو «الأبدية» هكذا تقول الفلسفة الوجودية ! .

ولا أظن أن الأستاذ يوسف كرم . ود . أبو العلا عفيفى قد أقنعهما ماقلت . ولابد أن الدهشة لما سمعا قد جعلتهما يكتفيان بهذا القدر من الإجابة الجريئة من طالب ريفى . لا يعرف تماما مايقول . ولكنه ذكر كلمة «الوجودية» ولم تكن معروفة كثيراً فى ذلك الوقت . .

فالوجودية لاتزال ترى أن الأبدية والخلود من صفات اللّه . ولكن الوجود إنسانى . ولذلك فهو محدود . واللّه لايوصف بأنه كائن ولا بأنه موجود . فالحيوان والنبات والجماد يوصف بأنه كائن . والإنسان يوصف بأنه موجود . . أما اللّه فاللغة لا تسعفنا فى أن تجد له صفات أخرى غير أبديته وخلوده . . بلا بدائية ولا نهاية . .

واهتديت إلى الفلسفة الوجودية الفرنسية . فيما كتب الفلاسفة : سارتر وكامى ومارسيل والفلاسفة الألمان : هيدجر ويسبرز ، والفيلسوف الدنمركى كيركجار ، وفيلسوفاً أسبانيا : أونامونو وأوريتجا إى جاست ، وفيلسوف روسيا : يرد يانف . وفيلسوف إيطاليا : أبانياتو . . وفيلسوف إسرائيل : مارتن بوير . . وفيلسوف مصر : عبد الرحمن بدوى . وهو الذى قدم لنا كل مدارس الفلسفة الألمانية فى الحضارة والوجود والعذاب والألم واليأس والموت . . وقدم أيضا كل مصطلحاتها الغامضة . فكانت هذه المصطلحات هى مفاتيح كنوز المعرفة الجديدة .

وقد امتاز الفلاسفة الوجوديون الفرنسيون بالأسلوب الأدبى الجميل . . فسارتر كتب الرواية والمسرحية والقصة القصيرة . . وكامى كتب الرواية . . ومارسيل كتب المسرحية . . وكذلك أونامونو . .

وكتب كيركجار «اليوميات» الدينية والأدبية الممتعة . .

إنها دنيا جديدة مثيرة .

فوجدت فى الفلسفة الوجودية كل شىء : أروع وأمتع . . فقد تحولت الأفكار الوجودية إلى قصص ومسرحيات وروايات ومقالات فى الأدب وفى السياسة وفى علم النفس .

وكانت الفلسفة الوجودية أقرب إلى مزاجى النفسى : إنها تؤكد فردية الإنسان . . أو تصحح فردية الإنسان . وترى أن الإنسان فرد حر . . أو أن الفردية هى الحرية ذاتها . . فأنا عضو فى أسرة . . ولكنى عضو متميز تماماً . . بل إننى أقوى من

هذه الأسرة ومن هذا الكون كله . . فالكون من أوله لآخره ليست له ملامح متميزة مثلى . . ليست له عين مؤكدة ولاذراع ولاساق . . ولا هو قادر على أن يعبر عن نفسه . . أما أنا فأستطيع . . صحيح أننى جزء من كل . ولكنى أكثر وضوحاً ويقيناً من هذا الكل . . وأنت عندما تتحدث عن «المجتمع» مثلا ، فأنت لا تعرف ما الذى تقصده بهذه الكلمة . . وأنت عندما تقول الجماهير والشعوب . فأنت لست على يقين من المعنى المحدد الواضح لهذه الكلمات الضخمة . . ولكن عندما تقول : أنا وأنت . فأنا وأنت على يقين من ذلك تماما ! . . فلا يوجد كائن حى منفرد اسمه : الشعب . . أو الجمهور . . إنما يوجد كائن حى متميز تماماً اسمه : أنا . . واسمه أنت .

وقد ظهرت هذه المعانى الوجودية فى القصة والرواية والمسرحية . . أى كانت لها حياة اجتماعية ونفسية وسياسية . . أى أنه من الممكن أن يكتب الإنسان عن السياسة أو يكتب سياسة بصورة أخرى . . غير أن تجىء فى شكل مقال أو تحليل منطقى جاف مهما كان واضحاً مقنعاً .

أى أنه من الممكن أن يكون الإنسان فيلسوفاً سياسياً وأديباً سياسياً وشاعراً سياسياً . . وفى التاريخ كله فلاسفة وأدباء وشعراء سياسيون . . أى أنهم أدباء وفلاسفة وشعراء أولا وسياسيون بعد ذلك .

وفى الوقت نفسه عاشت فلاسفة وأدباء دون أن يشاركوا فى السياسة فقد وجدوا أنهم عاجزون عن ذلك . أو وجدوا أن متعتهم الحقيقية فى أن يكونوا بعيداً تماماً كما يفعل الرهبان فى الصوامع . أو كما يفعل العلماء فى المعمل .

وقد وجدتنى فى عالم الفلسفة مبكراً . ولكنى دخلت المجتمع متأخراً .

وقد حاولت أول الأمر أن أجد نفسى . فنظرت فى مرايا كثيرة . . وكانت المرايا صغيرة وكبيرة . وملونة وصافية . ومقعرة ومحدبة . وعندما لا أجد نفسى . أو لا أجد صورتى كما تمنيتها فإننى أنطوى وأنزوى وأعود إلى سقراط أعرف نفسى بنفسى . . وليس بالآخرين .

واشتركت فى جمعيات دينية وفكرية وروحية . . وكنت حجراً متحركاً . لم ينبت عليه عشب كثيف . . (أرجو أن تقرأ ماجاء فى ثلاثة كتب من تأليفى هى : طلع البدر علينا . . وفى صالون العقاد . . ثم وداعاً أيها الملل) .

وقرأت ماكتبه المؤرخون السياسيون : الجبرتى والطهطاوى . وابن النديم . ومحمد عبده . والعقاد . وطه حسين . والحكيم . ود . هيكل . والرفاعى . ونجيب محفوظ . ووجدت أنهم أدباء يكتبون فى السياسة . أو ساسة يصنعون الأدب . أى أنهم جميعاً حريصون على الوضوح والجمال أى على جذب القراء . أى كسب القراء بالفن والمنطق . ورأيت فى السياسة الكثير من الفن والقليل من المنطق . فمن مظاهر الفن : الخطابة . . أى العبارة التى ترن وتطن وتكتسح القارئ . وتكتسح عقله قبل أى شيء آخر . . ووجدت أن أسوأ ما كتب العقاد هو الذى كتبه فى السياسة . فقد كان غاضبا دائما ، ولم يكن سبب غضبه أنه على حق ، إنما سببه أنه وهو «رجل منطق» قد وجد من يعارضه . فالعقاد يرى أنه قادر بمنطقه وعقله الكبير ، على إقناع أى إنسان بأى شيء . . ولكنه عندما لا يجد ذلك ، فإنه يتخلى عن المنطق ويترك نفسه لعواصف الغضب . ولذلك فالدراسات السياسية التحليلية التى كتبها العقاد ولم يكن يخاطب بها الجماهير ، كانت أفضل وأبقى . وهى أبقى لأنها أقرب إلى الأدب منها إلى السياسة .

وسلسلة «العبقريات» الإسلامية التى كتبها العقاد ثم كتابه عن «سعد زغلول» الزعيم السياسى ، لم يكن سياسة ، إنما كان أدبا فى السياسة ، أو كان تحليلا نفسيا للسياسة .

وقد اختلفت أنا مع د . طه حسين وكان لنا حوار عنيف حول أسلوب العقاد فى دراسة الشخصيات الدينية والأدبية ، وكان رأى طه حسين أن العقاد عالم نفسى وليس مؤرخاً أو ناقداً أدبياً . وأن تفسير الأديب يكون استنادا إلى أدبه ، والشاعر إلى شعره .

ولم أوافق طه حسين على ذلك . .

وكانت مقالات طه حسين فى السياسة أدباً جميلا . ولم يكن فى استطاعة طه حسين إلا أن يكونا أديباً ، فهو عندما يجلس للكتابة تطل عليه مئات الكتاب من روائع الأدب والفن العربي والعالمي . ولم يكن فى استطاعة طه حسين أن يسد أذنيه عن الذى يدور حوله ، ولا أن يمحو من ذاكرته تجارب السنين فى الأدب وتاريخه ونقده .

وكذلك كان توفيق الحكيم . بل ربما الحكيم هو أقرب الجميع إلى الفنان الذى

اختار أن يتفرج على المجتمع دون أن يشارك فيه كثيراً . . فكان إذا كتب مقالا أطل برأسه مثل نوح عليه السلام من سفينة النجاة ، ثم رأى وسمع . . وأغلق النافذة وجلس يكتب . وليس صحيحا أن توفيق الحكيم كان صاحب «البرج العاجى» إنما هو صاحب «البرج العالى» . . من فوقه يرى ، وإليه يعود . . فهو ليس بعيداً عن الناس ، ولكنه تباعد عن الناس ليرى أوضح . . فأنت إذا ألصقت لوحة بعينيك فإنك لا تراها بوضوح . ولذلك يفضل الحكيم وغيره أن ينظروا من بعيد . .

ونجيب محفوظ هو المتفلسف بين الروائيين العرب . . فهو قد درس الفلسفة وعلم النفس وهو قد استوعب التاريخ . . ثم إنه قد تمكن من فن الرواية . ولذلك فنجيب محفوظ هو المؤرخ الحقيقى للحياة السياسية فى مصر ، ولكن ليست له صفات المؤرخين الذين يعرضون ماحدث كما حدث ، معتمدين على الوثيقة والتجربة الشخصية . ولكنه يعرض التاريخ شاعراً وفناناً وعاشقاً وناقداً ـ وهو أكثر حرية من المؤرخين . وأطول عمراً أيضا . فالمؤرخون فى خدمة فنه . ولكن فنه تاج على رءوس المؤرخين .

وإذا كان لابد أن أفاضل بين اثنين من المؤرخين : الجبرتى والرافعى ، فإننى أفضل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى . فالرجل لم يكن سياسيا . إنما هو شاهد عيان ينقل بصدق وأمانة . وسجل رأيه بوضوح . وتاريخ الجبرتى سجل لكثير من العادات والتقاليد والألفاظ العربية والمصرية والأجنبية والمصطلحات السائدة فى عصره ، وعلى الرغم من أن الجبرتى كان حريصاً على الصدق والأمانة ، فإنه لم يشأ أن يكون جهاز تسجيل . وإنما كان يعلن غضبه واحتقاره لكل أشكال الظلم والقهر الفرنسى . . وكان يشيد أيضا بعظمة مصر . . وهذا هو الذى جعل مؤرخاً عظيماً مثل توينى يقول «إن الجبرتى هو أعظم المؤرخين فى كل العصور» هكذا قال بالحرف الواحد .

أما أسباب ذلك فى رأى توينى فهى أن الجبرتى قد أعجب بالتطور العلمى الفرنسي . وأعجب بالعدل الذى أظهرته المحاكمات الفرنسية . فقد كانوا يأتون بالمصرى المتهم ويحاكمونه ويتركون له حرية الدفاع عن نفسه ، ويأتون له بالمحامى يترافع عنه ـ وقد انبهر الجبرتى بكل ذلك ولكنه فى الوقت نفسه ثار على الغزو والاحتلال .

وكان عبد الرحمن الرافعى رجلا طيباً على خلق كريم . وكان يسجل ما حدث كما حدث . ولكنه فى الوقت نفسه كان يقوم «بتصفية» التاريخ من الشوائب الأخلاقية أو الاجتماعية . فتاريخ الرافعى تاريخ «مهذب» . . إنه يشبه الطعام

المسلوق ، إنه طعام صحى ، ولكنه لا طعم له . . أو ليست له نكهة النباتات الطازجة أو الغابات الوحشية .

وكان الرافعى رجلا حزبيا وسياسيا . وكذلك كان العقاد وطه حسين ود . هيكل ولم يكن الجبرتى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وقرأت فلاسفة التاريخ . . وهم أيضا فلاسفة السياسة . . أى السياسة التى سار عليها التاريخ أو فلاسفة التاريخ السياسى وتطور المجتمعات ، وقواعد تطور المجتمعات . قرأت فيلسوف الحضارة أوزفالد اشنبجلر . قرأت مقدمة كتابه «انحلال الغرب» وقرأت تبسيطا لهذا الكتاب . وقرأت ما كتبه د . عبد الرحمن بدوى وهو أول من قدم لنا فلسفة هذا الرجل ووضعها فى مكانها من الفلسفة الألمانية ومن الفلسفة الوجودية أيضا .

وقرأت ما كتبه المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى وهو أيضا من فلاسفة الحضارة ولكن أسلوبه الأدبى برغم قوته وتماسكه الشديد ، لايخلو من جمال ، ثم إن له كتبًا فى تاريخ الأديان ممتعة أيضا .

وقرأت ما كتبه فيلسوف الحضارة بندتو كروتشه ، وهو أسهل الجميع عبارة وأبسطهم منطقا ، وأقربهم إلى الأدباء والشعراء .

وقرأت «مقدمة ابن خلدون» فيلسوف علم الاجتماع العربى الأول . أو هو أول فلاسفة الاجتماع فى التاريخ . ووجدت أن ابن خلدون كان أقدر على أن يضع يده على التاريخ العربى والإسلامى . وأغناهم فى ضرب الأمثلة . وإن لم يكن أكثرهم إحاطة بتاريخ الحضارة الإنسانية .

والفيلسوفان هيجل وماركس كلاهما يستخدم نفس المصطلحات ولكن لأسباب أخرى فالفلسفة المثالية الهيجلية هى الفلسفة الماركسية تماماً . ولكن هيجل جعل الدنيا تمشى على رأسها ، وجاء ماركس فجعلها تمشى على قدميها ـ وكلاهما ينشد عالماً ليس موجوداً . ولكنه يرى أنه ممكن التحقيق .

ووجدتنى مستغرقا فى الفكر السياسى ، والمذاهب السياسية .

* * *

وعندما أعود إلى ما كتبته عندما كنت طالبا فى الجامعة ، فإنى أجده فلسفيا . أو فلسفيا أدبيا ، أو فلسفيا دينيا ـ بما فى ذلك الشعر والقصة القصيرة والتأملات الرمزية .

ولكنى فضلت دائما أن أكتب «فى» السياسة . . أى أن أمس السياسة دون أن أنغمس فيها . . فقد كان من الصعب عقليا ووجدانيا أن أرتضى «إطارا فكريا» جامداً . . أى مذهباً فى السياسة أو فى الاجتماع أو فى الدين . . وربما كانت الفلسفة الوجودية أقرب دائما إلى مزاجى النفسى ، لأنها ليست «مذهباً» ولا إطاراً وإنما كانت تمرداً على الإطارات وعلى الأشكال . . لم تكن زيا فكريا وإنما كانت نوعا من الملابس الواسعة لها شكل الملابس وإن لم تكن لها أناقتها . . وهى بذلك تغطى جسمى ولا تقيد حركتى وإذا أنا خيرت بين الزى المريح والزى الذى يبدو أنيقا فإننى أفضل الذى يريحنى ! .

وعندما أعود إلى فلسفة سقراط ـ ولا مفر من ذلك ـ فإننى أجد أن الذى عرفته عن نفسى قليل ، وأن القليل ليس مؤكداً ، وأن هذا الذى ليس مؤكدا لم يساعدنى كثيراً على معرفة الآخرين . . ولذلك لم أكن متأكداً من علاقات كثيرة . وهذه الشكوك تجعل اتصالى بالآخرين ليس مريحاً لهم ، وليس مريحاً لى . . فالذى ينزل البحر ، وهو ليس متأكداً تماماً إن كان ماء البحر مالحاً أو حلواً ، أو كان عميقاً أو ضحلا ، والذى ليس متأكداً إن كان من الضرورى أن يعبر الإنسان الماء سابحاً ، بدلا من أن يركب زورقاً ، لا يمكن أن يتعلم السباحة . وإذا تعلمها ، فلن يكون سباحاً ماهراً . . إنما سوف يسبح دائماً إلى جوار الشاطئ وفى الوقت نفسه سوف يكون لديه شعور دائم بأن الشاطئ أسلم ، أما البحر فلا أمان معه .

وفى الوقت نفسه يرى أن الشاطئ وإن كان أسلم ، فلا أمان فيه أيضا ، لأنه مادام هناك أناس آخَرون ، أو آخرون ، فلا أمان لأحد . . ولا عزلة لأحد ، ولذلك لابد أن يخرج الإنسان من عزَلته ليأمن الناس ، ثم يعود إليها مرة أخرى . . وهكذا . . مثل كل القواقع ، ومثل كل الرهبان فى الصوامع ، والعلماء فى المعامل ، ومثل كل نوح صاحب سفينة فى طوفان العلاقات الاجتماعية المضطربة المعقدة .

وفى دراستى الفلسفية كنت أتقلب على مذاهب الفكر السياسى . . أى أصول مبادئ التفكير السياسى فى الحرية والترابط الاجتماعى وحتمية التاريخ وتطوره أو تطويره بالقوة والثورة .

* * *

وكان أول درس تعلمته فى الكتابة السياسية ، قاسياً فقد كتبت مقالا بعنوان «حمار الشيخ عبد السلام» وعاقبنى عليه الرئيس جمال عبد الناصر بالفصل من

عملى ، وكنت فى ذلك الوقت سنة ١٩٦١ رئيسا لتحرير مجلة «الجيل» ومدرساً فى الجامعة . ووجدت نفسى فى الشارع ، بلا مرتب محروماً من الكتابة ومن التأليف ومن الخروج من مصر إلى أى مكان آخر - وفي ذلك الوقت طلب منى عدد من الأصدقاء والأمراد السعوديين أن أترك مصر نهائياً . وفكرت فى الهرب من بورسعيد ولكن ظروفاً خاصة منعتنى من ذلك ! .

أما هذا المقال فكان تعليقاً على رواية توفيق الحكيم «السلطان الحائر» وقد عكست المعانى الواردة فى رواية الحكيم على أوضاع الصحافة فى مصر وكانت قد أممت نهائيا . ولقى الأستاذان مصطفى أمين وعلى أمين كل أنواع الهوان . ولكنهما رفضا ذلك . ووجدا أن موقف الرئيس عبد الناصر لم يكن موقفاً قوميا من الدرجة الأولى ، ولكنه موقف شخصى ، وكنت وثيق الصلة بالأستاذين على أمين ومصطفى أمين - وبعلى أمين أكثر : صداقة وحبا وتشجيعا وحزنا على ما أصابهما وأصابنى .

وأذكر أننى عندما أعدت نشر هذا المقال فى مجلة «أكتوبر» قرأه الرئيس السادات فقال ضاحكاً : أعوذ باللّه . . إن هذا المقال تستحق عليه الشنق وليس الفصل ! .

وفى أول لقاء للرئيس السادات بمحررى أكتوبر فى «ميت أبو الكوم» رويت قصة هذا المقال وحرية الصحافة فى عهد الرئيس عبد الناصر . وأعدت تعليق الرئيس السادات وقلت مداعباً : سيدى الرئيس إنك تحيرنى . . فالرجل الذى كان يشنق الناس اكتفى بفصلى وأنت الذى لا تفصل الناس تطلب بشنقى !! .

والدرس الثانى عندما انتقلت مع الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين إلى دار الهلال . فقد كتبت مقالا أقارن بين «الوحدة والعزلة» . وكان مقالا فلسفيا نفسيا . ولكن الذى لم يخطر على بالى أن الرئيس عبد الناصر قد وجد فى هذا المقال أيضا تعريضا به وسخرية بالوحدة مع سوريا والانفصال عنها ولذلك أمر بمنعى من الكتابة . وأذكر أن د . محمد عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإعلام فى ذلك الوقت قد دعانى للقائه . وذهبت فقال لى : إن السيد الرئيس قد أمر بأن تعود إلى الكتابة .

ولما سألت الصديق د . حاتم : ولكن لماذا منعنى من الكتابة ؟ .

فتضايق من ذلك قائلا : لقد أمر السيد الرئيس أن تعود إلى الكتابة . وهذا كل ما عندى .

ولما عدت إلى سؤال د . حاتم بعد وفاة الرئيس عبد الناصر : ولكن لماذا منعنى ؟ فأقسم أنه لا يعرف .

وقبل ذلك تلقيت خطابا رقيقا من المرحوم على أمين وكنت وقتها فى طوكيو ، أدور حول العالم سنة ١٩٥٩ . جاء فى خطابه .

إن الرئيس جمال عبد الناصر قرأ مقالك المنشور فى «أخبار اليوم» عن نظام «الشيوعيات» الصغيرة فى الصين فأعجبه جدا وقال : إنه مقال سياسى ممتاز فلماذا لا يكتب فى السياسة ؟ .

وفى واشنطون قابلت رئيس هيئة الاستعلامات وكان مريضا فى أحد المستشفيات وقال لى : إن الرئيس جمال عبد الناصر قد كتب بقلمه على هذا المقال . . إنه مقال سياسى رائع ! .

وفى سنة ١٩٦٣ ذهبت أتلقى جائزة الدولة فى أدب الرحلات من الرئيس جمال عبد الناصر ، ولما اقتربت منه كانت له نظرة فاحصة . . أو هى نظرته العادية . لا أعرف ثم سمعته يقول : هوه أنت ! .

ولم أفهم المعنى المقصود من ذلك ولكن فى أحد الأيام روى لى المرحوم يوسف السباعى أن الرئيس عبد الناصر سأله : إن كنت شيوعيا ؟ .

وكان رد يوسف السباعى : الشيوعى أنيس آخر . . عبد العظيم أنيس . . وليس أنيس منصور . .

ربما أدى هذا الخلط بين الاسمين إلى أن يكون للرئيس عبد الناصر موقف خاص فيما أكتبه . .

وفى يوم أخبرنى الصحفى اللبنانى الكبير سعيد فريحة أنه التقى بالرئيس جمال عبد الناصر وتحدث فى عودة الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين إلى مكانهما من «أخبار اليوم» بدلا من وقفهما عن العمل . فقال له : بل لابد من إذلالهما . . وحتى هذا الأنيس منصور اللى طالعين به السماء ، قد فصلته هو أيضا ! .

وظل الشك يلاحقنى فى كل الذى أكتبه فى السياسة . . أو يكتبه غيرى فى مجلة «الجيل» التى أرأس تحريرها . فأنا لا أعرف أين يقع هذا الذى أكتبه إذا سمح بنشره من نفس الرئيس عبد الناصر أو الذين حوله . .

بل أذكر أن الصديق إبراهيم بغدادى وكان وكيلا للمخابرات جاء يسألنى عن صورة على شكل ظلال قد ظهرت فى مقال عن صيد الأسماك فى بورسعيد وكان الموضوع عن نقص السردين بسبب السد العالى الذى أنهى عصر فيضانات النيل . ولم نجد صورة لصيد السمك نضعها مع المقال . فوضعنا صورة ظلالية لرجل وامرأة ليست لهما معالم واضحة . وقد وقفا عند السور الحديد على قناة السويس . وسألنى إبراهيم بغدادى : من الذى وضع هذه الصورة .

فقلت : سكرتير التحرير . .

وسألنى إن كنت أعرف من هما صاحبا هذه الصورة . فقلت : لا أعرف .

واستدعيت سكرتير التحرير . وقال : إنه لا يعرف من هما .

وسأله إبراهيم بغدادى : هل تعرف ناهد رشاد ؟ فأجاب : لا .

وسأله : ولا يوسف رشاد ؟ .

فأجاب : لا أعرفه .

وكانت الصورة الظلالية الباهتة لناهد رشاد وزوجها يوسف رشاد الذى كان طبيب الملك فاروق . ولا أحد يعرف ذلك . ولا معنى لها إذا عرف أحد ذلك ولا علاقة لها بنقص السردين بسبب بناء السد العالى!! وإنما وضعت هذه الصورة لتجميل الصفحة التى خلت من الصور . .

ومرة أخرى جاء الصديق إبراهيم بغدادى يسألنى «ما معنى أن تنشر فى مجلة «الجيل» أن الرئيس جمال عبد الناصر قد أقام حفل زفاف ابنته فى بيته «المتواضع» فى منشية البكرى .

ولم أفهم . وناديت المحرر الذى كتب هذا الخبر . . فقال : لابد أن يكون حفلا متواضعا لأنه لم يقمه فى فندق سميراميس أو فى فندق شبرد . .

وكان سؤال إبراهيم بغدادى : ولكن كيف عرفت أن بيت الرئيس متواضع ؟ .

ولم يكن هو ولا أنا نعرف أن بيت الرئيس عبد الناصر ليس متواضعا بسبب التعديلات التى أدخلت عليه وعلى حديقته وعلى ملاعب التنس ولا أن به حمام سباحة .

فظن الرئيس عبد الناصر والمخابرات أننا نغمز ونلمز ! .

وعرفت فيما بعد أن الشك والقيود لم تكن قاصرة على أنا وحدى وإنما لحقت كثيرين . .

* * *

ويمكننى أن أقول بمنتهى الوضوح : إن نكسة سنة ١٩٦٧ هى التى جعلتنى كاتباً سياسياً . وجعلت الفلسفة أبعد عن قلمى . وإن كان الأدب والتاريخ وعلم النفس هى المداد والدم والعرق الذى أمزج به كل ماكتبت بعد ذلك .

فقد بدأت الصدمة الكبرى بأن ذهبت إلى الجبهة فى الأيام الأولى من شهر يونيو سنة ١٩٦٧ . ورأيت وسمعت وانبهرت وتوقعت أن النصر لنا لاشك فى ذلك . وقد جمعت قصائد الشبان وخطبهم . . ووعدت بنشرها . . وامتلأت عينى وأذنى وعقلى وقلبى . وأصبحت مثل مدفع سريع الطلقات قد أعد إعدادا تاما لينطلق فى أية لحظة ضد العدو اليهودى . وكنت آخر الذين عادوا من الجبهة يوم ٤ يونيو . . أو آخر مدنى قد عاد . فقد دعانى الفريق صدقى محمود إلى طائرته . .

لتكون النكسة بعد ذلك بساعات . . وليكون كل الذى رأيناه تراباً ، والذى سمعناه صدى ، والذى توقعناه سراباً . وليكون يوم النصر هو يوم الهزيمة ، وليكون جمال عبد الناصر ذلك البطل المصرى القومى ، هو الزعيم الذى هوى ، والفراغ السحيق الذى امتلأ بالألم واليأس والشك والذل والهوان . . وليكون أيضا هو الذى أجهز على الروح المصرية يوم قرر أن يتخلى عن الرياسة والزعامة ـ تماماً كما يقرر قائد الطائرة أن يقفز بالمظلة بسبب الخلل التام فى المحركات . . ثم يترك الطائرة والركاب وينجو بنفسه جريحاً مهيناً ! ! .

فتكون نجاته بالمذلة . . لا بالمظلة ! .

كأن انسحابه يعوضنا عن فضيحتنا وعارنا . أو كأن هذا فقط هو العقاب الذى يستحقه . . ولم يكن ذلك إلا لحظات وبعدها خرجت الجماهير تؤيد بقاءه مهما كان ، فقد عاشت معه «على الحلوة والمرة» وعرفت معه العظمة والثورة ولن تتخلى عنه فى محنته الكبرى . . وكان هو أسبق من الناس إلى المناداة بكل ذلك . . فحشد رجاله مئات الألوف من الناس تطالبه بالعودة ، وعاد جمال عبد الناصر . عاد غائبا . . وظل غائبا عن مصر والساحة العربية حتى مات . .

بل إن غياب جمال عبد الناصر قد بدأ يوم انتصر سنة ١٩٥٦ على العدوان الثلاثى . وكان غيابه نشوة غامرة ، لأن انتصاره كان شخصيا .

ثم غاب مرة أخرى عندما كوفئ على هذا النصر ا السياسى بالوحدة مع سوريا . . وكان غيابه نشوة النصر العظيم . . غاب لأنه ارتفع وارتفع حتى لم يعد يراه أحد ، أو يرى هو أحداً أو يسمعه أو يدرى به .

ولما وقع الانفصال . كانت أعنف ضربة وجهت إليه فى كبريائه وفى كل ما يعتز به . وكان احتشاده لمعركة ١٩٦٧ ، ولم يكن يقصد به إلا انتصاراً على إسرائيل من أجل استعادة سوريا التى انفصلت .

وكانت النكسة أكبر هزيمة فى حياته وفى حياة الأمة العربية . . وقد أدت الهزيمة إلى غيابه نهائيا فى غياهب الهوان العسكرى ، والعار المصرى ، والشماتة العربية . .

إن هذه المعانى وغيرها قد هزتنى من أعماقى . ودفعتنى إلى الاعتقاد بعدد من الحقائق فى مقدمتها : أننا حاربنا عدوا لا نعرفه . وحاربنا عدوا يعرفنا تماما . فكان لنا ما نستحقه ، وكان له ما يستحقه .

ولذلك لابد أن نعرف عدونا . . واتخذت شعار «اعرف عدوك» فرحت أكتب عن اليهود فى التاريخ كله . . وعن إسرائيل وكيف قامت ، وما الذى تريده الصهيونية العالمية من العرب ومن العالم كله . . ومن مصر بصفة خاصة . . وكتبت مئات المقالات فى «أخبار اليوم» و«الأخبار» و «الجيل» و «آخر ساعة» . . وهذه المقالات هى دراسات متعمقة للبيئة اليهودية والكيان الصهيونى .

ثم جمعت الكتب التى صدرت عن اليهود والتاريخ اليهودى والصهيونية وإسرائيل باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية . ورحت أتنقل بهذا المعرض بين العواصم المصرية والعواصم العربية . وأذكر أننى ذهبت إلى طرابلس . . وألقيت محاضرة عامة . وكنت أدعو فيها إلى أنه إذا لم نعرف من هم هؤلاء اليهود وما الذى يريدونه لنا وبنا ، فلا أمل فى نصر فى حرب .

وأصدرت ثلاثة كتب جمعت فيها كل هذه المقالات هى : الحائط والدموع . . والصابرا : الجيل الجديد فى إسرائيل . . ووجع فى قلب إسرائيل .

وكانت هذه هى قضيتى فى الصحف وفى الإذاعة وفى التليفزيون .

وكانت المعانى التى أدور حولها هى : أننا يجب أن نعرف عدونا لأن عدونا يعرفنا . . فقد عاد جنود مصريون من القتال وهم يقولون : لم نر جنديا يهوديا .

بل إن واحدا من الجنود قال لى بمنتهى السذاجة : إننى لم أر إلا عدداً من الخواجات !

ولم يخطر على باله أن اليهود «خواجات» لأنهم قد جاءوا من كل دول العالم ليحتلوا بالقوة أرضا ليست لهم .

وفى ذلك الوقت آمنت بما قاله المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى عن أن الدولة اليهودية فى قلب العالم العربى لا يمكن أن تعيش طويلا . فليس لها نظير فى كل التاريخ . لابد أن تنقرض . لأنه مستحيل أن تعيش فى سلام - لا فى سلام داخلى بين جميع الطوائف والأجناس اليهودية ولا فى سلام مع العرب حولها – ثم إن اليهود بسبب تاريخهم الطويل ، ليس لديهم شعور بالأمان ، وعدم الأمان يدفعهم إلى الشك . والشك يدفعهم إلى سوء الظن بكل الناس . وسوء الظن يدفعهم إلى الكراهية . والكراهية أم الحروب . . فهم يحاربون لا لأنهم يريدون الموت ، ولكن بسبب الخوف وسوء الظن .

وكان من رأيى أن العالم كله قد اتخذ موقفاً واحداً من اليهود . وهذا الموقف هو سوء الظن بهم لأنهم حريصون على الانطواء والانزواء والاستفادة من المجتمع الذى يأويهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم شيئا فى التضحية من أجله . . فهم هكذا استغلاليون أو متطفلون وهم أول من يقفز من السفينة إذا غرقت . . وأول من يتحالف مع العدو والقوى ضد أى شعب يعيشون فيه . . ثم إنه لا ولاء عندهم لأحد ، وإنما لدينهم وشعوبهم . . ولإسرائيل ! .

وانتهيت إلى أنه لا سلام مع إسرائيل وأن إسرائيل إذا كانت قد انتصرت على مصر والشعوب العربية فى ١٩٦٧ ، فلابد من الانتقام . . أى لابد من حرب بعد حرب . فالسلام مع إسرائيل مستحيل . . لأنهم لايريدون السلام وهم لايريدون السلام لأنه مستحيل عليهم أن يعرفوه ، انظر إلى كل تاريخهم فى العالم وفى هذه المنطقة .

ثم كتبت عن عشرات من الكتب تؤكد هذه المعانى . .

وقد ظهرت فى إسرائيل وفى أمريكا وفى بريطانيا كتب عن العلاقات المصرية الإسرائيلية وكلها تهاجمنى . وتنقل عنى ماكتبته بعد النكسة .

وعندما بدأت أتحدث عن إمكانية السلام بين مصر وإسرائيل . كان تعليق الصحفى البريطانى دافيد هريست والصحفى الإسرائيلى أموس إيلون وغيرهما : أننى لا أقصد ذلك . فالذى أقصده قد جاء فى كتبى التى تهاجم اليهود ، والتى هى عداء صريح للسامية .

وفى أعقاب النكسة العنيفة الموجعة كان رأيى أن السلام مستحيل مع إسرائيل . . ولكن بعد أن تمكن الرئيس السادات من أن ينتصر فى حرب أكتوبر وأن يفك الاشتباك بيننا وبين إسرائيل مرة ومرتين . . ثم أن يبادر بالسلام ، ثم بالاتفاق بين البلدين ، فوجئت بأن شيئا كنت أراه مستحيلا قد أصبح ممكنا وفوجئت بأن أمامنا فرصة جديدة لنعرف إسرائيل بلا حرب . حتى لا تقع حرب وإذا وقعت فلن نكون الجهلاء الذين ذهبوا فلم يروا ولم يسمعوا ، وعادوا يقرأون ما يكتبه اليهود عن الذى حدث . ليعرفوا ماذا جرى لنا . . ولكن بأقلام وعيون الآخرين ، أعدائنا ! .

ومادام السلام المستحيل أصبح ممكناً ، ومادام قد أصبح حقيقة ، فلابد أن نعترف بما حدث . وأن نسعد بذلك . وأن نرى الصعوبات الكثيرة الى تواجهنا ، أمرا طبيعيا . فالسلام أيضا صعب كالحرب . وإن كانت الحرب أقصر عمراً وأعنف أثراً ، ولكن مصر التى حاربت وانتصرت ، هى التى سالمت وانتصرت أيضاً . ولم تستوعب الدول العربية الشقيقة ماحدث ولم يكن أحد يتصور أن شيئا من ذلك سوف يحدث . والموقف غريب وعجيب . ولكنه أصبح ممكناً .

ولم أشعر بأن انتصار السلام هزيمة لى . فأنا لم أكن أدعو إلى الحرب . ولكن كنت أرى الحرب ضرورة . وقد حدث أن حاربنا وانتصرنا . ولولا حرب أكتوبر ما كانت «مبادرة» ١٩٧٧ ومعاهدة ١٩٧٩ وانسحاب ١٩٨٢ . . والدول العربية الشقيقة معذورة إذا أفزعها أن مصر حكومة وشعباً قد اختارت السلام . فهذا الذى حدث لم يكن يتوقعه أحد . فلم يكن أحد يثق بأن إسرائيل سوف تفى بكلمة واحدة ولا أحد كان يثق بقدرة مصر على أن ترغم إسرائيل على ذلك . . ولكن السلام فى صالحنا . كما أنه فى صالحهم أيضا . وإذا كانت إسرائيل تصنع المشاكل ، فسبب ذلك أنها يجب أن تساوم لتحصل على أطول وقت وأكبر مكسب . ولأنها بتاريخها لاتثق فى أحد ، ولا فى قدراتها ولا فى وحدة شعوبها وراء سياسة أية حكومة لها .

ولابد أن يكون هجوم الدول العربية على مصر بأقلام أبنائها ، وبأقلام وخناجر مصرية ، سببه أن مصر قد اختارت أن تمشى فى طريقها هى . لأنها هى وحدها التى حاربت والتى أضيرت والتى تهدمت مدنها وتهدمت معنويات ملايينها ، ولأنها هى التى تجوع وتتعرى والتى لاتريد أن تسأل العرب عوناً ، مهما زاد عدد أبنائها ومهما زادت حاجتهم إلى السكن والطعام والشراب والنصر والسلام .

وكما لقيت مصر من رفض وعداء الدول العربية والمنظمات المتطرفة ، لقى كتابها أيضا . . وأنا واحد منهم . ولكنى ، ولكننا ، لم نجد فى ذلك إلا تضحية عارضة من أجل سيادة مصر . . فلم يكن أسهل أن أعود إلى أصدقاء لى فى السعودية والكويت . . لهم صحف ضخمة . . ولهم دور نشر . . ولهم أموال كثيرة تفتح الطريق إلى المصايف الأوروبية شهوراً من كل سنة . . ولكن كان نداء الواجب ولايزال أعظم من ذلك .

ولا أزال أحتفظ بخطاب من الصديق الأمير عبد اللّه الفيصل . هذا الخطاب وجهه إلى الرئيس أنور السادات يستأذنه فى شراء قطعة أرض فى مصر الجديدة نقيم عليها مطبعة ودارا للنشر ، قيمة هذه الدار عشرون مليوناً من الجنيهات ، وأنه يكلفنى أن أتولى ذلك . وقد تحدثت فى أمر هذه الدار الكبرى مع الصديق د . فؤاد إبراهيم ، وكان عضواً منتدباً لدار المعارف . . ومع الصديق الناشر أحمد يحيى . . وفجأة قررت أن أسكت نهائيا عن هذا المشروع الذى لم يعرف عنه الرئيس السادات شيئا . فقد وجدت أن الذى يغرينى فى هذا المشروع العظيم هو أننى لا أريد أن أشتغل بالسياسة . أما هذه السياسة فهى تأييد مصر فى موقفها من أجل السلام بغير حرب . ومساندة مصر فى موقفها مع الدول العربية التى ترى أن مصر قد خرجت عن «طوعها» وليست الدول العربية التى خرجت عن «الواقعية المصرية» فى حل مشاكلها تمهيداً لحل بقية المشاكل العربية . وفى مقدمة هذه المشاكل هى أن تكون للشعب الفلسطينى دولة .

تماما كما أن للشعوب اليهودية دولة هى إسرائيل . وأنه بغير هيئة تكوين الدولة الفلسطينية فلا سلام لا مع مصر ولا مع العالم العربى . . وهذه هى إحدى الحقائق التى آمنت بها ، بعد النكسة وبعد النصر . ولأزال أومن بها بعد الانسحاب التام .

ويوم طلب منى التليفزيون الإسرائيلى عند خروجى من مكتب الرئيس الإسرائيلى نافون أن أتحدث عن السلام قلت : هل من الممكن أن يذاع ماسوف أقول؟ فقيل : طبعاً .

قلت : إن السلام مع مصر هو سلام ناقص . لأن السلام يجب أن يكون كاملا ، ولا يكون السلام كاملا إلا بعد قيام الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة . فإذا لم تقم اليوم أو غداً أو بعد عشر سنوات أو عشرين ، فالسلام مؤقت . . فنحن قد ارتضينا السلام خطوة نحو هدف ، الهدف هو السلام الشامل مع كل العرب .

ولايكون السلام شاملا إذا لم يكن للشعب الفلسطينى دولة . . تماما كما أن الشعوب اليهودية أقامت لها دولة وليس من العدل أن يقال للشعب الفلسطينى : لا تقل : آه إذا ضربك اليهود . بينما ملأ اليهود الدنيا صراخاً عندما ضربهم هتلر وعندما طردتهم الشعوب الأخرى . . وهذا كلام ثقيل وموجع ، ولكن هذا هو طعم الحقيقة . . اليوم وغدا ! .

ولذلك فإننى أعتبر نفسى «أحد الجيوب» التى قاومت الاحتلال الإسرائيلى لسيناء . وأن مقاومتى اتخذت شكل المقالات العنيفة والكتب الملتهبة . وقد انغمس قلمى فى مرارة الهزيمة ونار الانتقام .

وفى الوقت نفسه ، لا أعرف مثل ملايين الناس ، ما الذى يمكن عمله عسكريا . وكنت أومن أنه لابد من حرب . وعندما كان الرئيس السادات يتحدث عن الحرب . كنت واحداً من الذين لم يصدقوه . وصارحته بذلك أيضاً ، ووجدت أن العالم كله لا يصدقه . لأننا أناس صناعتنا الخطابة والكلام . وبعد ذلك اكتشفنا أنه من فضل الله علينا أن أحداً لم يصدقنا عندما نادينا بالحرب والاستعداد لها . ولذلك انصرفت عنا عيون المخابرات الإسرائيلية والأمريكية والسوفيتية . وكانت الحرب مفاجأة مفزعة . أبكت عيوناً كبيرة من قادة إسرائيل ، وأدمعت عيوناً كثيرة على إسرائيل فى العالم كله .

فلما كانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كان ذلك انتصاراً عظيماً للذين يقاومون الاحتلال اليهودى بأقلامهم ، وللرافضين للهزيمة النفسية .

وأنا أجد عذراً مقبولا لكل الأدباء والمفكرين الذين تشككوا فى صدق نيات الرئيس السادات عندما أعلن أنه يستعد للحرب . وأن الحرب هى الوسيلة الوحيدة للنصر النفسى أولا ، والكرامة العربية ثانياً والعزة العسكرية ثالثاً .

وعندما طلب منى الرئيس السادات أن أصدر مجلة «أكتوبر» كان أمله أن تحمل هذه المجلة اسم النصر العظيم ، وأن تمضى فى حمل عبء النصر تمهيداً إلى نصر أكبر . . أو إلى السلام وكان السلام حلماً قديماً فى رأس الرئيس السادات . بدأ بما أعلن سنة ١٩٧١ . . . وكان مجرد فكرة يقلبها ويناقشها ويستشير فيها ويحسب لها الخسائر والأرباح . . ووجد أن الأرباح ، مهما كان الطريق إليها صعبا ، أعظم وأبقى . . وسوف يقتنع بها المصريون والعرب واليهود على سنوات طويلة . لأن خطوة السلام أجرأ وأعظم من أن يستوعبها أحد فى حينها .

وعاودنى الشك كثيراً بعد النصر فى أكتوبر فقد رأيت الصعوبات التى تضعها سرائيل على أرضنا وفى طريقنا . ولكن لم أعرف كيف تكون الحرب بعد ذلك . كيف تنتهى هذه الحرب الصليبية ـ أى الحرب الدينية بين المسلمين واليهود .

وارتفعت نبرة الكلام ، وحدة المنطق ، واتسعت الهوة بيننا وبين ما نحلم به . ولم يجرؤ أحد أن يقول : إن الخطوة القادمة هى الحرب . فقد أصبح معروفاً أن حرب كتوبر كانت مغامرة عنيفة . وأننا لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك . . ولكن رغم الاعتراف بهذه الحقيقة المؤلمة ، فإننا قد انتصرنا . . أو أننا قد هزمنا إسرائيل وأوجعناها وأبكيناها حكومة وشعباً . . وإن لم يكن سلام هذه المرة ، فحرب أخرى بعدها حرب إلى غير نهاية . . أو إلى نهاية إسرائيل ، كما تنبأ المؤرخ البريطانى توينبى وقد يكون ذلك بعد عشرات السنين ، أو بعد عشرات القرون . . ولكنها نهاية مؤكدة ، والتاريخ الإنسانى بكل أشكاله وألوانه وتجاربه أكبر دليل يقدمه لنا على ذلك ! .

وسوف أعود إلى ذلك فى كتاب مستقل إن شاء اللّه . .

* * *

وكما تطورت المذاهب السياسية ، تغيرت أيضا أساليب الكتابة عنها . . ولا أريد أن أذهب إلى بعيد جدا . فقد كان من أحلام الملوك . أن يكونوا فلاسفة . وكان من أحلام الفلاسفة أن يكونوا ملوكاً .

كان الإسكندر يحلم بأن يكون مثل أستاذه الفيلسوف أرسطو . .

وكان من أحلام الفيلسوف أرسطو أن يكون مثل تلميذه الملك الإسكندر الأكبر . فصاحب الفلسفة يحلم بالقوة التى تجعله يرى أفكاره حقيقة واقعة . وصاحب القوة يريد أن يضيف إليها نور العقل الذى يهديه إلى تحقيق ما يريد .

وقد حاول فلاسفة كثيرون أن يكونوا ساسة . فأفلاطون حاول أن يطبق مدينته المثالية فى إحدى الجزر وفشل . .

والفيلسوف توماس مور أعدموه .

والفارابى فيلسوف العرب كفروه . .

ولكن فلاسفة عقلاء حكماء رأوا أن المسافة بعيدة جدا بين ما يفكرون فيه ، وبين ما يقدرون عليه . فرفض الفيلسوف الإيطالى كروتشه أن يكون رئيساً

للجمهورية ، ورفض الرياضى الكبير أينشتين أن يكون رئيساً لإسرائيل . . ورفض العالم الفلسفى لطفى السيد أن يكون رئيساً لمصر .

بينما وافق رجل كيمائى مثل فايتسمان أن يكون أول رئيس لإسرائيل . لأن العلاقات الإنسانية هى نوع من «الكيمياء» أى إضافة عناصر إلى عناصر تتفاعل لتكون مادة جديدة . . ومن النادر أن تلتقى الفلسفة والسلطة . فلم يفلح الفيلسوف الثورى كارل ماركس أن يكون له سلطان . فى حين أفلح لينين فى أن يكون الفيلسوف الملك . . وكذلك ماوتسى تونج . .

وحاول فولتير عندما وقف إلى جانب الإمبراطور الألمانى فريدريش الأكبر .

وحاول الفيلسوف الهولندى أرازموس برسائله إلى كل الرؤساء والملوك ، فإن لم يكن واحداً منهم ، فقد حاول أن يكون قريباً منهم . .

ولكن الأديب الفرنسى كوكتو قد حقق هذا المستحيل عندما صنع لنفسه عملة ذهبية جعل على وجه منها الإسكندر الأكبر وعلى الوجه الآخر أرسطو ـ أى أن الملك والفيلسوف لم يلتقيا إلا مرة واحدة على هذه العملة الذهبية . . التقيا وجهين لرأسين ، وليس وجهاً واحداً لرأس واحد ! . .

ففى عصر النهضة الأوروبية مثلا كانت الاهتمامات الأولى لكل المفكرين إنسانية ـ أى كان الاهتمام بالإنسان صانع كل شىء والهدف من كل شىء . ومركز الكون . فقد كانوا يرون أن الكرة الأرضية هى مركز الكون ، والإنسان هو سيد الأرض ، إذن فهو سيد الكون . وما خلق اللّه السموات والأرض إلا لكى يتفرج عليها الإنسان إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ! . .

ولكن ابتداء من القرن السابع عشر حتى التاسع عشر ، خضع الفكر الإنسانى كله للعلوم الجديدة . والعلوم الجديدة هى العلوم المادية ، الفيزياء والكيمياء . فكل شىء مادة . وهذه المادة لها وزن وحجم وكثافة وحرارة وأشكال تتغير حسب التفاعلات المختلفة ، فالفيزياء : أساسها المادة والكيمياء أساسها تحول المادة من صورة إلى صورة ولكن حركة المادة مضبوطة . أى أن هناك قواعد رياضية لحركة المادة . وعلى ذلك فالمثل الأعلى للفكر الإنسانى : أن يكون مادياً محدوداً واضحاً . وأن يكون بسيطاً مثل المعادلات الرياضية . ولذلك فالكون كله : عمل هندسى . . ساعة لها عقارب . . واللّه هو المهندس الأعظم . أو أن الخلق ليس إلا معادلات كيميائية أبدعتها أصابع اللّه ، دون تدخل من الإنسان ، أى أن الإنسان ليس مركز الكون ،

إنما هو واحد من المخلوقات ، أو صورة من صور تطور المخلوقات من المادة إلى الحيوان إلى الإنسان .

وأصبحت كل العلاقات الإنسانية معادلات كيميائية . . كل العواطف : كيمياء . . كل التغيرات والتطورات والثورات : كيمياء .

ففى التفسير المادى للتاريخ نجد هذه القاعدة : التراكمات الكمية تؤدى إلى كيفيات جديدة .

ومعناها : أننا إذا رفعنا درجة حرارة الماء درجة فإنه يتحول إلى بخار . . أى تراكم درجات الحرارة يؤدى إلى خلق كيفية جديدة هى البخار . . وكذلك كل المواد . . وكل العلاقات المادية بين الناس . . فالظلم المستمر يؤدى إلى الثورة ، والتسيب المستمر يؤدى إلى الانحلال تماماً كما يذوب الجليد فيصبح ماء . . أوكما يذوب الحديد فيصبح سائلا . . وهكذا . .

ولكن ابتداء من الثورة الفرنسية والأمريكية والسوفيتية والانقلابات العسكرية التى أدت إلى تحرير الشعوب من الاستعمار والاستغلال أصبحت السياسة هى سيدة العلوم الأخرى . .

وفى القرن العشرين أصبحت السياسة هى العلم الذى «يسود» العلوم الأخرى . . فكما كانت الطبيعة سيدة علوم القرن الثامن عشر ، والرياضة سيدة علوم القرن التاسع عشر ، والفلك سيد علوم القرن العشرين ، فإن السياسة أيضا سيدة العلوم كلها بما فيها الفلك . . فالتنافس بين السوفييت والأمريكان على الكواكب الأخرى ، ليس علماً بالدرجة الأولى ولكنه سياسة تماماً . فكل منهما يحاول أن يثبت أن مذهبه فى السياسة هو الذى أدى به إلى بلوغ القمر أولا ، وإنزال إنسان عليه وإعادته . .

وكان أستاذنا أرسطو يرى أن الإنسان حيوان سياسى ــ أى أنه حيوان أولا ، ثم يحاول أن يتحكم فى غرائزه الحيوانية بالسيطرة عليها ، وهذه السيطرة هى السياسة . .

على حين كان أستاذه أفلاطون يرى أن الإنسان حيوان ناطق . أى أن الفرق بين الإنسان والحيوان هو النطق أو هو التفكير .

ولكن السياسة الحديثة ترى أن الإنسان : سياسى حيوان . أى أنه ـ سياسى

أولا ، ثم إنه حيوان بعد ذلك . أى أنه يفرز قواعد السلوك ، ثم يتمسك بها بصورة حيوانية ، أو يحطمها بصورة حيوانية . . فالإنسان مثل دودة القز ، يفرز سريره الذى يصبح نعشه بعد ذلك . . أو أنه يريد أن يقول : إن الإنسان سياسى أولا ، وحيوان أو إنسان بعد ذلك فهو ولد فى مجتمع والمجتمع قد سبقه إلى الحياة . أى أن الإنسان كما يقول كارل ماركس قد ولد فى ظروف سبقته إلى الوجود . . سبقته بالاسم والدين والجنس والعنصر والطبقة والمشاكل ، ولذلك مادام هكذا غارقًا فى أوضاع وظروف اجتماعية ودينية واقتصادية وطبقية ، فهو لا يمكن إلا أن يكون سياسياً .

ولذلك لم يعرف العصر الحديث إلا أدباء وفلاسفة فى السياسة . ولأنهم حريصون على أداء هذا «الواجب» أو الوفاء بهذا الالتزام الفكرى والوطنى والقومى ، فلابد من أن يكونوا على صلة بالجماهير : فى الصحف والإذاعة . . فليس بين جميع الكتاب الكبار من لم يكتب فى الصحف والمجلات . . أو لم يصدر الصحف والمجلات . . لأنه لكى يكون سياسيا ، أو مشتغلا بالسياسة أو منشغلا بها ، فلابد من أن يضع أصابعه على نبض الناس . . على نبض الآخرين الذين يكتب لهم ويقف متهماً بينهم . . ولأن الكاتب السياسى يلتقى بالقراء فى الأندية والمؤسسات ، فليس فى حاجة إلى أن يتخيل حواراً معهم ، لأنه يحاورهم . . فى حين أن الكاتب الذى اختار أن يرى من بعيد ، وأن يسمع كذلك فإنه يفعل ما فعله سقراط : يجرى حوارا بينه وبينهم . . أو يتخيل ذلك . .

والفيلسوف العظيم برتراند رسل قد استغرقته السياسة فى آخر أيام حياته بصورة مؤلمة . فقد كان وهو فى الثمانين من عمره يتظاهر ضد الأسلحة النووية . وما كان أغناه عن ذلك ، يكفى وزنه الأدبى العالمى . . ولكنه عندما سئل عن ذلك قال : لم أعد قادراً على الكتابة . وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أتحدث إلى نفسى كما كان يفعل القديس أوغسطين فى اعترافاته أو جان جاك روسو فى هذيانه وشذوذه . . فأنا أريد أن أجعل حوارى مع الشباب عضويا . . أزاحمهم فى المظاهرات ويزاحموننى أيضا . .

ولذلك كان الفيلسوف الوجودى سارتر يكتب القصص والمسرحيات ، وعندما توقف عن الإبداع الفنى ، راح يتزاحم بجسمه المريض فى مظاهرات الشباب ،

وعندما حاول أن يكون له حزب سياسى ، كان حزبه نموذجاً جديداً لفشل الفيلسوف إذا أراد أن يكون حاكماً ، فليس من الضرورى أن يكون صاحب المذهب الفلسفى ، هو رئيس الحزب السياسى ـ أى يكون الفيلسوف والملك معاً . ولذلك كانت لكثير من الأحزاب فلاسفة لا يظهرون فى الصفوف الأولى من السلطة . . كان سوسلوف فيلسوف الاتحاد السوفيتى ، وكذلك كان ألفرد روزنبرج فيلسوف النازية ، والشاعر داتسيو فيلسوف الفاشية . وإذا ظهر فلكى تكرمه الدولة فقط ، دون أن تلزمه بأعباء الملك والسيطرة .

وأقرب نموذج لكل الذى أريد هو ما كتبه د . عبد الرحمن بدوى فى رواية له بعنوان «هموم الشباب» فقد كان عبد الرحمن بدوى شابا ألمانى الفلسفة أسطورى الأمل ، حالماً بالبطولة ، وقد قدم لنا الكثير من أحلامه البطولية والفلسفية فأضاف إلى أجنحتنا الخضراء ريشا طويلا قويا . . جعلنا نرتفع مثل الفتى الإغريقى «إيكاروس» الذى ألصق الريش فى جناحيه بالشمع فلما اقترب من الشمس ذاب الشمع فسقط أول إنسان حاول أن يطير بجسمه هارباً من جاذبية الأرض . ولكن الصمغ الذي استخدمه د . بدوى لتثبيت ريشنا لم يذب بهذه السرعة . . إنما أصبح الشمع غدداً تفرز الكثير كلما احتجنا إلى ذلك .

والصفحات الأولى من رواية «هموم الشباب» مثل موج البحر الهادر الثائر بالعبارات الضخمة الفخمة الصارخة الجارحة . . وبعد ذلك يظهر الإرهاق على البطل وهو يرى ماحدث لعزيز باشا المصري وآخرين . .

وكما أن المؤلف قد خمدت جذوته بسرعة . فقد انزوى هو بنفس السرعة فابتعد تماماً عن السياسة وعن مصر كلها .

لقد قال كلمته وأراح نفسه ومضى .

والحقيقة أنه لم يكن فى استطاعته أن يقول أكثر أو يفعل أكثر . فهو رجل الفلسفة وليس رجل السياسة . . فهو الإنسان الذى امتلأ بنفسه ، ولم يعد فى نفسه مكان لنفس أخرى . . وهو الذى أوقف الزمن حين لم يرتبط بتاريخ أو حدث . . فلا تربطه بالسياسة اليومية أو الأسبوعية صلة أو ضرورة . . وهو الذى تصور أن رواية كهذه من الممكن أن يكون لها أثر «آلام فرتر» للشاعر الألمانى جيته فتنتحر الفتيات العاشقات ، حزناً على البطل .

ولم يكن لهذا الكتاب الأثر الذى تركه كتاب «هكذا قال زرادشت» للفيلسوف نيتشه فى فلاسفة البطولة وفى النازية بعد ذلك .

ولم يكن لهذا الكتاب ما كان لكتاب «الأمير» لمكيافيللى من أثر فى حياة موسولينى .

لقد ألقى عبد الرحمن بدوى حجراً ملتهباً أطلق دخاناً عندما لامس الماء ، ثم اختفى خامداً بعد ذلك . .

* * *

والمشكلة التى تواجه أديب السياسة هى ألا يفقد حماسته الأدبية تحت ضغط الأحداث العنيفة المستمرة وفى الوقت نفسه ألا تغرقه السياسة فينسى خط البداية .

* * *

إنما أديب السياسة هو الذى يعرف جيداً أدوات التعبير وقاعدة الانطلاق ، وأن يقول كلمته ثم يمشى . . ويقولها فى اليوم التالى ويواصل المشى أو الحركة أو يتعهد بذلك . .

وقد ذهبت بعيداً فى هذا الذى كتبته ، لأننى لا أريد أن أقترب من المقالات التى جمعتها هنا . . ولا أريد أن أفسر وأن أبرز أو أتحفظ ـ وإن كنت أعتذر عن أى نقص أو غموض فى كل الذى كتبت هنا . وكنت أتمنى لو اتسع وقتى فأعيد صياغتها وأغير فى نتائجها ، أو فى توقعاتى التى لم تجئ مطابقة تماماً لما حدث بعد ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا حقى ، فإننى أخشى أن أكون قد «حرفت» أو «زورت» فيما كتبت ، وقرأه الناس فى ذلك الوقت .

ولا أدعى أن هذا الذى كتبته هو صورة من نفسى تمًاما ، ولا صدى لأعماقى ، ولكنه كذلك إلى حد كبير . ومادمت قد نشرتها ثم أعدت نشرها ، فأنا مسئول تماما عن كل ذلك .

وأقول إننى كاتب سياسى حاولت أن أكسو السياسة أدباً وفلسفة . . فإذا كان

هذا هو ما تراه أنت أيضاً بعد ذلك ، فسوف تجد الكثير فى كتبى أيضاً ـ مزيج من الأدب والفلسفة والتاريخ والدين وعلم النفس ومن حياتى .

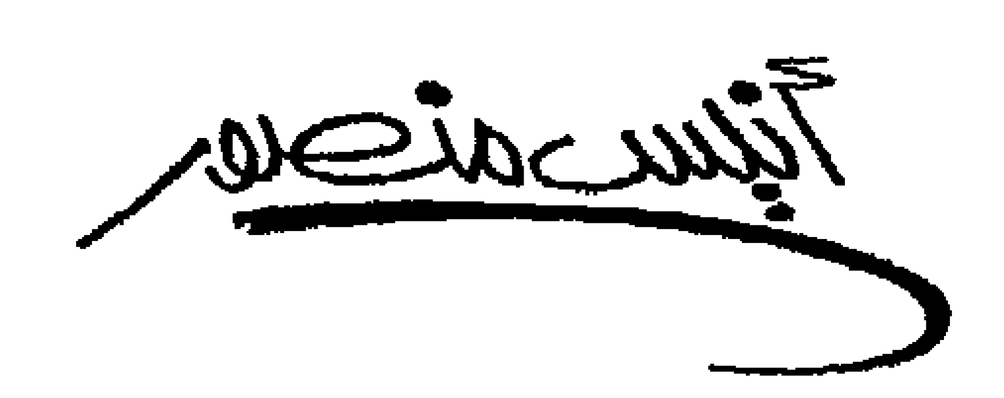
ومعنى هذا أننى جربت ذلك منذ وقت طويل . ولا أزال .

وسوف أعود إليه بصورة أخرى عندما أتحدث عن «رحلة السلام» فقد عايشت الكثير من الأفكار والقرارات . وكنت شاهدا على فترة استغرقت ست سنوات ، ومن واجبى أن أدلى بشهادتى السياسية . التى هى وثيقة تاريخية .

وليست هذه المقالات إلا تعليقا على بعض ما حدث . على جوانب من الذى حدث ، كما أحسست بها . .

فإننى دائماً ، مشتغل بالأدب وأتنقل بين غابات السياسة الخارجية والداخلية . .

وأعود مثل دودة القز ومثل قواقع اللؤلؤ ، أنسج وأفرز راضياً عن الذى حاولت وعن الذى استطعت ، وأملى أن أكون ممتعاً ومفيداً لك .



البيلوقراطية .. أو نظام الحكم فى بيلا

حدث فى مركز بيلا ، مالم يحدث فى أية مدينة فى مصر كلها ، تخريب وإحراق واعتداء على المواطنين . والمعتدون مجموعة من الخارجين على القانون والهاربين من السجون .

وهذا مالم يحدث فى أى بلد آخر فى مصر . . لأنه كان عنيفا عنيدا وفى وقت قصير وبصورة صارخة ! .

وقد وضعت هذه القضية أمام رجال الأمن ورجال السياسة والإعلام وعلماء الاجتماع . والموضوع : لماذا حدث كل ذلك فى مدينة واحدة ! .

وليست القضية هى قضية الجريمة أو الخروج على القانون .

فسوف تكون دائما جريمة . وسوف يعتدى أناس على القانون ، وكلما زاد عدد الناس زادت معدلات الجريمة ، كلما ازداد الضيق الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، تنوعت أرقام وأشكال الجريمة .

وهناك نظريات وعلماء وكتب ومعاهد تبحث فى أسباب الجريمة . وكيف يمكن إنقاصها ، وليس القضاء عليها .

وهناك مواسم للجريمة .

وهناك نوعيات للجريمة : جرائم المدن غير جرائم الريف ، وجرائم الأغلبية غير جرائم الأقلية . . وجرائم المثقفين غير جرائم الأميين . .

ولكن ما حدث فى مدينة بيلا : شىء خطير . .

نحن أمام ادعاءات كثيرة . من بينها أن رجال الأمن قد أرسلوا تقارير لوزارة الداخلية ، كاذبة . ومضللة بعد ذلك ، وقد اعترف وزير الداخلية بأن رجاله قد كذبوا عليه ، وأنهم أيضا قد ضللوا العدالة . أى أن رجال الأمن قد شاركوا فى جريمة الكذب والتضليل لصالح من؟ لصالح أنفسهم ، حتى لا يقال إنهم عاجزون عن الضبط

والربط . وفى نفس الوقت لصالح المجرمين الذين يحرصون على أن يمضوا فى طريقهم دون أن يدرى بهم أحد . أو دون أن يعترضهم أحد . أو يثبت قدرته على ذلك .

إن رجال الأمن متهمون بجريمة التستر على الجريمة . .

ولو فرضنا أن الأطباء فعلوا نفس الشيء . وأرسلوا من مستشفيات الأقاليم ، أو من مستشفى بيلا ، تقارير كاذبة . . فقالوا عن انتشار الكوليرا إنه الزكام ، وعن انتشار التيفود إنه الرمد . . وقالوا إن أحدا فى بيلا لم يمت فى العشرين عاما الماضية ، وفجأة ظهر وباء فى بيلا . . فما الذى يمكن أن نفعله؟ أليس من حقنا أن نتساءل بعد ذلك : إن كانوا أطباء أو مجرمين؟ . . أطباء أو ميكروبات؟ . . ثم ما هو معنى الطب؟ وما معنى الداء والدواء؟ فإذا كذب الأطباء وضللوا وخدعوا وتستروا على الأوبئة ، فمن الذى يحمى مصر ؟ . .

وإذا فعل ذلك مهندسو المبانى ومهندسو السكك الحديدية والتليفونات وإذا فعل ذلك كل مسئول فى موقعه؟ .

هل هذه مشكلة أخلاق فقط؟ هل هذه مشكلة أمن عام أو أمن بيلا وحدها ؟ .

إن رجال الأمن مفروض أنهم يحمون الجميع من أخطاء الأطباء والمهندسين والمحامين والفلاحين . . فماذا نفعل إذا فوجئنا برجال المباحث يكذبون وأمناء الشرطة لاهم أمناء ولا هم شرطة . وإنما هم يعتدون على الأبرياء ؟ .

أغرب من ذلك أن رجال التنظيمات الشعبية يحمون المجرمين أيضا ! .

فما معنى ذلك ! معناه أن المواطنين العاديين قد انضموا إلى المجرمين ، انضموا إليهم ضد رجال الأمن . . ضد القانون . . ومعنى ذلك أن الشعب ضد رجال الأمن . أو أنهم يرون أن هذه الجرائم لها مايبررها ، وأنها لم تعد جريمة ! .

ألا يدفعنا ذلك إلى أن نتساءل : ما هى أخطاء رجال الأمن التى تبرر الجريمة . . والتى ترى أن القانون هو المجرم ، وأن رجال الأمن هم جماعة من الأشقياء . . وهكذا نجد أننا أمام أوضاع مقلوبة .

ثم شىء أخطر من ذلك . . إن أحد أعضاء مجلس الشعب قد تستر على أحد المجرمين . . أحد زعماء العصابة . . وليست عصابة واحدة بل ثلاث عصابات لها مصالح مختلفة . .

ويقال أيضا : إن زعيم هذه العصابة هو المسئول عن نجاح عضو مجلس الشعب فى الانتخابات . .

فما هو الخطأ فى رجال الأمن ! هل هو خطأ فى الأشخاص؟ فى الإجراءات؟ فى نظام التقارير التى يبعثون بها إلى وزارة الداخلية ؟ .

هل الخطأ فيما تعلنه وزارة الداخلية من أنه كلما كانت الجرائم أقل . . ازدادت درجات أو علاوات رجال الأمن .

ونحن أمام «فزورة» من نوع جديد ، مجرم يقنع المواطنين بضرورة أن ينجح عضو مجلس الشعب ، ما هى وسائل الإقناع التى يلجأ إليها زعيم عصابة لكى يقنع المواطنين؟ وما هو المقابل الذى سوف يدفعه لزعيم العصابة ، إذا نجح العضو ؟ . وقد نجح ويقال : إن العضو لم يتردد فى دفع الثمن وهو التستر على المجرم . .

فعضو مجلس الشعب والتنظيمات الشعبية لا تتعاون مع رجال الأمن . . ونحن أمام معسكرين : رجال الأمن من ناحية . . وعضو مجلس الشعب ورجال التنظيمات الشعبية من ناحية أخرى . . والخائفون من أبناء بيلا فى الوسط . . وهؤلاء الخائفون ليسوا متفرجين على مباراة بين فريق الحكومة وفريق الشعب . . وإنما هم فى حالة من القلق ينتظرون النتيجة بفارغ الصبر . . واتضح أنهم رغم الاعتداءات التى وقعت عليهم ولم ترد فى تقارير الأمن . فإنهم يميلون إلى المجرمين . ضد من ؟ .

ضد رجال الأمن . .

وهذه هى الخطورة .

وبناء على ذلك فرجال الأمن حريصون على إخفاء معالم الجريمة ؟ . . وفى ذلك قصص ونوادر معروفة للجميع .

هل هو خطأ وزارة الداخلية التى لم تعد تستخدم العصا فى الضرب على أيدى وأرجل الخارجين على القانون ؟ هل القانون ، لذلك أصبحت ذراعه قصيرة ، وأصبح فى الإمكان أن يلوى أى إنسان ذراع القانون . وقد استطاع أناس أن يفعلوا ذلك فى بيلا ؟ وفى غيرها اليوم وغدا .

إن أجهزة الأمن استطاعت الكثير جدا فى ظروف أقسى وأقصى . يكفى أن أجهزة الأمن واجهت أعنف التجارب وأكثرها مرارة فى ظروف الحرب وأيام مراكز

القوى ،.وأيام عبث القذافى فى مصر . . كل ذلك حدث وبنجاح ومع عظيم الامتنان .

ولكن الذى حدث فى بيلا يجعلنا نتساءل عن الجريمة والعقاب .

إن الجريمة ليس صحيا أنها لا تفيد لقد استفاد منها كثيرون فى بيلا وعلى مستوى التنظيمات الشعبية ومجلس الشعب .

ولكن المؤكد الآن : أن العقاب هو الجريمة . .

أى أن أسلوب العقاب وشكله لم يعد رادعا . إن العقاب فى غاية التراخى والكذب على الحكومة أيضا . فالعقاب هو الجريمة ! ويكفى أن نستعرض الذى يفعله أمناء الشرطة والذى تفعله وزارة الداخلية لهم من عقاب . . أو الذى تفعله وزارة الداخلية فى التقارير التى ترد إليها . . أو ما تتطلبه من الذين يكتبون التقارير . .

إن هناك غلطة ما ، أو غلطات جسيمة يجب أن تراجعها أجهزة الأمن . حتى لا تكون هناك أكثر من بيلا . .

ومهما تعددت أسباب ما حدث فى بيلا ، فإن أبرز الأخطاء هى التى تدحرجت إليها أجهزة الأمن . والسبب رجال الأمن .

صحيح أنه يمكن أن يقال : انظروا إلى بلاد العالم الأخرى ! انظروا إلى معدلات الجريمة فى أمريكا وفى إيطاليا وفى فرنسا وفى بريطانيا ! وأن أمريكا وحدها فيها من الجرائم ما يعادل جرائم أوروبا كلها ! ولكن هذا لا يمنع أن الجريمة هى الجريمة فى أى موقع . ولا يقلل من شأن الوجع فى ضرس ، أن أناسا عندهم أوجاع فى خمسة ضروس . . أو أنهم كانوا يتمنون أن تكون لهم ضروس بدلا من الأسنان الصناعية ! .

ولابد أن نبحث عن هذه «التركيبة» الاجتماعية والشعبية فى مركز بيلا لنعرف المقدمات التى أدت ـ فجأة ـ إلى هذه الأعمال الصارخة . وهل صحيح أنها حدثت «فجأة» أو أنها متكررة متواترة الحدوث ، ولكن رجال الأمن يسكتون عن ذلك . .

إن بيلا تستحق بشكلها ونظام الأمن والتنظيمات الشعبية التى فيها أن تدخل القاموس الجنائى تحت اسم ومصطلح جديد «البيلوقراطية» . . أى نظام الحكم فى بيلا ! .

يا فقراء العالم وأغنياءه : اتفقوا من أجل السلام !

شاعر أفريقى هو الذى قال : إن شعوبنا مثل أشجار «الأفزاليا» . . عندما تكون صغيرة تكون أعوادها لينة معوجة ، وروائحتها كريهة . . ولكن عندما يشتد عودها ، وتعلو أغصانها ، وتتعالى أزهارها . وتصبح فى صلابة الحديد وتقوى على حمل الفيل دون أن تتوجع .

ويقول أيضا : وقد حملت أشجارنا وهى صغيرة الفيلة التى يركبها الأوروبيون فسحقتنا ترابا وأعدمتنا بشرا ، وأبقتنا بعد ذلك عارا على البشرية . .

هذا الشاعر اسمه (ابنو راكولى) فى ديوان له عنوانه (أصداء الصدى الأسود) .

ولكن شعوب أفريقيا تجاوزت مراحل العود الأخضر . ولا يستطيع أحد أن يدوسها ، ولا أن يجعلها ترابا ، انتهت هذه الفترة الشائنة من تاريخ الإنسان الأبيض الذى استعمر الرجل الأسود . .

واستقلت الدول الأفريقية ، وتقاربت وتضامنت وأصبحت ــ معا ــ قوة كبرى . . أصبحت ملايين الأيدى تزرع الأرض وتقطع الأشجار وتشق المناجم ليشتريها الرجل الأبيض ويعود بها لمئات الملايين من المستهلكين السود . . فهم ضرورة استهلاكية ، وهم فى نفس الوقت ضرورة حيوية . . فالخامات كلها هنا . . والأسواق كلها هنا . . والزبون على حق دائما ــ وهى كلمة تعلمناها من الرجل الغربى .

ولنا مصالح : نحن أفقر الفقراء وأغنى الأغنياء الذين اجتمعنا فى القاهرة . .

فالكثيرون ليس عندهم فلوس ، والقليلون عندهم الكثير من الفلوس . .

والذين يملكون الفلوس لايملكون الأيدى ، أما ملايين الفقراء فلا يملكون إلا أيديهم . وإذا كنا نطلب العدل من العالم كله ، فإننا ينقصنا أن نكون عادلين مع أنفسنا . . فنعطى لأنفسنا ما نحتاج إليه وما نقدر على مضاعفته . .

وقد سمعنا ذلك فى المؤتمر وفى كواليس فنادق القاهرة .

هذا أول ما يطلب به ملايين الفقراء . .

ولكن رغم ما لدينا من عدد ، وما لدينا من مال ، فإننا لم نتطور بعد كما تطورت أوروبا وأمريكا . . ولذلك فنحن فى حاجة إلى شراء الخبرة الحديثة ، واستعارتها وتقليدها . . وهذا يحتم علينا أن نتجه إلى الغرب . . إلى الرجل الأبيض بخبرته وفلوسه ونفوذه مرة أخرى . . ومعنى ذلك أننا عندما أخرجناه من الشباك فتحنا له الباب لكى يدخل باختيارنا .

وفارق كبير بين ما كان وبين الذى ارتضيناه الآن فى علاقاتنا بالرجل الغربى . . ولنا نحن العرب والأفارقة معا مشكلة أخرى : وهى أننا نواجه التفرقة العنصرية القائمة على اللون . ونحن نلعن هذه التفرقة فى روديسيا وجنوب أفريقيا وفى إسرائيل .

ونحن ضد هدم الحضارة وآثارها كما يحدث فى إسرائيل . .

وضد مساندة إسرائيل للبيض فى جنوب أفريقيا . .

وضد التوسع الإسرائيلى القائم على الهوس الدينى ، وطرد شعب فلسطين بالقوة ، وإلقاء ألوف الأبرياء فى السجون وتجريدهم من أقل حقوقهم الإنسانية .

ولقد أدانت الأمم المتحدة إسرائيل كدولة عنصرية متعصبة . . وكدولة تعتدى على المقدسات عندما أحرقت المسجد الأقصى وحفرت الأرض تحته ليسقط فى النهاية . . وفى ذلك إهدار لكل ما جاء فى ميثاق الأمم المتحدة ــ وكان للدول الأفريقية ودول العالم الثالث الفضل الأكبر فى تلطيخ وجه إسرائيل بالعار . .

ثم إننا بدأنا حملة من أجل السلام . فى كل مناسبة سياسية ودبلوماسية عربية وغربية وأفريقية كبرى . فالسلام لنا جميعاً . ونقدر عليه مادمنا كتلة واحدة ، وينهار السلام ونحن أيضا إذا تفرقنا . .

واجتماعنا هو قمة الفقراء والأغنياء الذين جمع بينهم : الأمل فى العدل طريقا إلى الكرامة والرخاء .

نحن نلوم أنفسنا كثيرا جدا . ولا نزال ندق رءوسنا بأيدينا حتى لا تبقى لنا رءوس فتتضاءل أمام أعيننا . لماذا ؟ ! .

* * *

نحن نرفع الطين من تحت أقدامنا ونلطخ به وجوهنا ، حتى لا نرى وجوهنا فكأننا أجسام بلا رءوس . بلا وجوه ، لماذا ؟ .

نحن لم نترك وصمة عار إلا ألصقناها بأنفسنا ابتداء من نكسة ٦٧ حتى سرقة مقابر الفراعنة فى الأقصر . لماذا ؟ .

نحن غرسنا الندم فى نفوسنا بالأمس وجنينا اليأس اليوم . وأصبح طعم الدنيا على ألسنة شبابنا مرا والطريق أمامهم ضيقا ، والشمس سوداء . لماذا ؟ ! .

* * *

نحن نعيب على شبابنا أنهم بلا طموح ، وأنهم بلا قيم أخلاقية وأنهم ضعاف الإيمان وأنهم يستخفون بكل شىء . وأنهم لا يدينون بالفضل لأب أو أم أو أستاذ أو زعيم أو تاريخ . لماذا ؟

* * *

إننا نطالب العالم كله بالعدل ، ثم لا نعدل بين أنفسنا . . ثم لا نرحم أنفسنا من أنفسنا ولا نحنو على شبابنا بالفهم والحب والتسامح . لماذا ؟ ! .

* * *

لو أن أحداً تسلط على مصر وقرر أن يحطم معنوياتها لصالح عدونا ما فعل أسوأ مما فعلنا بأنفسنا ! فلماذا ؟ ! .

لماذا نجعل تحطيمنا سهلا ، لماذا نجعل تمزيقنا وقهرنا هيناً ؟ كيف ننفق كل ما أنفقناه على بناء الناس ثم نهدمه بهذه السهولة أو دون عذاب من ضمير ، أو خوف من اللّه ؟ .

* * *

إننا بعد أكتوبر صدرنا الهزيمة إلى إسرائيل . هذا صحيح أننا صدرنا لهم التمزق واليأس والرغبة فى ترك إسرائيل والهجرة إلى أركان الأرض ، هذا صحيح . إننا صدرنا إليهم الموت والخوف من الموت وهذا حق . . وصدرنا إليهم الانحلال والفساد والشك . هذا صحيح . .

* * *

ولكن صحيح أيضاً أننا بدأنا نسترد ما أعطينا . . ونستورد ما صدرنا . ونكفر بما آمنا . . وبدأنا نشعر بالغربة فى بلادنا . لماذا ؟ ! .

من الذى جعل الناس يشعرون بأنهم غرباء فى أوطانهم ؟ . . من الذى أفزع الآمنين ، وأقلق المؤمنين وسد الطريق وحجب الشمس ، وأوقف سير الزمن عند الأمس . واختار للأمس اسما آخر هو البكاء على مافات وما هو آت أيضاً ؟ ! .

* * *

نحن فعلنا ذلك بأنفسنا فما أقسانا وما أبشعنا ! .

فبعد النكسة استعرنا من إسرائيل «حائط المبكى» وأقمناه أمام كل بيت ورحنا نبكى على ما كان وعلى ما سوف يكون . .

* * *

فلم نكن نتصور أن ما سيكون بعد ذلك فى أكتوبر هو أروع ما كان فى كل العصور . .

وبعد أكتوبر نسينا حائط المبكى .

ولكن مع حرية الكلمة استعدنا «حائط المبكى» الإسرائيلى ورحنا نبكى من جديد . . ماذا جرى لنا ؟ .

* * *

إنها غلطة الذين يكتبون . ويملأون أقلامهم بالطين والندم واليأس ، كأن مصر بلا مستقبل . أو كأن مصر بلا شباب . أو كأن أرض مصر أرض لا ينبت فيها الأمل ولا تزهر فيها الرحمة ، ولا يشرق فيها الحب .

هل نكف عن لوم أنفسنا ؟ .

هل نتوقف عن نقد عيوبنا ؟ .

هل لا نعرف غير كلمة واحدة نقولها للحاكم : نعم ومليون نعم ؟ .

* * *

لا . . بل يجب أن ننقد أنفسنا . وأن نترفق فى ذلك وأن نضع حلا لمشاكلنا . فالمشاكل كالهواء الفاسد والماء العكر والمطبات فى الشوارع والغلاء والتضخم والزكام

تنتقل عدواها للجميع . . ولا يستطيع أن ينجو منها أحد . فأمام مصائب الناس ، لا أحـد يتـفـرج على أحـد . . ولا أحـد برىء من دم أحـد . . وأصـابعنـا التى تتـهم الآخرين . . تتهمنا أيضا .

وأقـلامنا التى نشـرعهـا فى وجوه الآخـرين . . هى سـهـام نسـددها فى المرآة إلى وجوهنا وصدورنا وأعز أمانينا . .

إن النقد العنيف الهدام ، هو كالسهام المرتدة . . نطلقها مسمومة فترتد إلينا فى نحورنا . . فنكون أقسى على أنفسنا من أعدائنا . . فلنرحم أنفسنا من أنفسنا ! .

* * *

فقـد شوهنا أنفسنا ، ومـزقنا قلوبنا ، وحطمنا رءوسنا ، وأخـفنا الناس من مـصر ، وأفزعنا شباب مصر من مستقبل مصر . . إننا جنينا على مصر ونلوم غيرنا . . فما أقسانا وما أتعسنا بعد ذلك ! .

* * *

أول لقاء فكرى في إحدى الصيدليات

فى الخرطوم التقى الرؤساء السادات والأسد ونميرى : إخوة من أجل قضية واحدة . أمن العرب وبحرهم الأحمر . .

ففى السنوات الأخيرة شاهد العالم محاولات للتسلل المستمر إلى السودان بقصد إسقاط حكم الرئيس نميرى ، وكان التسلل من الغرب ومن الشرق . والدافع المادى إلى ذلك : ليبيا . . والدافع المذهبى إلى ذلك : روسيا . . فليبيا هى لعبة السوفييت فى المنطقة . فمنها تحمل الطائرات البلغارية السلاح والعتاد إلى أثيوبيا الماركسية ومن أثيوبيا تتسلل قوات مأجورة إلى السودان . .

والكلام عن أمن البحر الأحمر معناه : أن يكون البحر الأحمر أحمر اسماً لا فعلا . . ففى اليمن الجنوبية نظام شيوعى وفى الصومال عند مدخل البحر الأحمر نظام شيوعى . وأثيوبيا شيوعية والمحاولات لن تتوقف ضد السودان . . وفى مصر سوف يجدد الشيوعيون محاولات الشغب بقصد تشويه صورة مصر التى تدعو للسلام وتريد أن تحققه بجهودها المتواصلة .

والغرض من هذا كله أن ننشغل فى معارك أخرى قومية : أى بين الدول العربية ، ووطنية : أى فى داخل الدولة الواحدة . وبذلك يكون التمزق شاملا . .

وقد سافرت إلى السودان ثلاث مرات . وقابلت كبار القوم . ولكن لم أجلس قط إلى أحد من الصغار ــ أى الناس أمثالنا من المثقفين . وتمنيت ذلك ، ولكن لم تتحقق لى هذه الأمنية . فالوقت ضيق . ونحن نجرى وراء ركب الرؤساء .

إلا هذه المرة . ذهبت إلى إحدى الصيدليات : يوسف السباعى وعصام الحسينى من رجال سفارتنا فى الخرطوم وأنا . ومددت يدى إلى العقاقير التى أريدها دون أن أفكر كثيرا إذ كان المألوف هناك يقضى بذلك . . ولكنه ذلك الشعور القوى الذى

أحس به كلما ذهبت إلى السودان : إنه بلدى ، وأى مكان هو بيتنا . وأنا على راحتى ، وعلى راحتى هذه مددت يدى وجمعت العقاقير وقدمتها للوجوه الباسمة الضاحكة التى رحبت بنا لأنها تعرفنا من مصر أو لأنها تعرفنا كتابا من مصر : أهلا وسهلا . . نورتم الخرطوم . .

– بل الخرطوم منيرة مضيئة بكم قبل أن نجىء .

– إذن فلقد ازدادت نوراً . .

– أنتم الذين ازددتم كرما وسماحة . .

– تفضلوا . .

وتفضلنا إلى داخل (أجزاخانة كمبال) . . ودخلنا من غرفة . . إلى غرفة أخرى . . إلى قاعة كبرى ، وتجمعنا عشرين رجلا . . ودارت مناقشة . . أول مناقشة ثقافية فى السودان . وكان موضوعها : كل ما يخطر على بال قارئ الصحف والكتب المصرية .

والقضية : هى قضية الفكر والصدق والعدل .

والمناسبة . . لاتوجد مناسبة خاصة ، وإنما نحن جميعا مثقفون ومشغولون بقضية واحدة : هى مصير أمتنا العربية . وكيف يتعاون الجنوب والشمال على دفعها إلى الأمام . .

وفى كل مرة أزور السودان يتعاظم عندى شعور بالتقصير : فلم أمكث فى السودان وقتا كافيا ولذلك فالذى أكتبه قليل . ولا أحب أن أكتب عن السودان كأى سائح أجنبى . . فلا أنا سائح ولا أنا أجنبى . . ويتعمق هذا الشعور بالتقصير . إذ كيف أكتب عن القارات الخمس وأسافر إلى القطب الشمالى والجنوبى وأكتب عن الكونغو وأوغندة وعن جزيرة بالى ولا أكتب بنفس الحرارة والحماسة عن السودان الشقيق . لا شىء ينقصنى ، الرغبة الصادقة والحب والأمل الواحد . . ولكنه الوقت الذى لا أجده فى كل مرة أسافر فيها إلى السودان .

وقنعت بهذا التعويض الذى جاء عفوا عندما استدعانا أصحاب أجزاخانة كمبال لأن نجلس معاً .

ولم أشعر بالغربة . إنهم مثلنا يبيعون العقاقير . . وزجاجات الدواء تشبه الكتب . . فهى أيضا تركيبة كيماوية . . والكتاب علاج . والكاتب طبيب .

والصيدلية مكتبة تبيع الفكر فى زجاجة . والمكتبات صيدليات تبيع الدواء فى ورق . ونحن جميعا أطباء ومرضى . . وكثيرا ما وجدنا الدواء وكان التشخيص خاطئا .

ولا أعرف سببا معقولا لكى أطلب شاياً بالنعناع . . وجاءت الفناجيل . . وكانت تأكيداً لما يحدث فى الصيدليات فتطلب دواء فيعطونك دواء آخر . . طلبت شاياً فأتوا بقرفة . شربتها شاكرا . إنهم أكدوا لى أنها صيدلية فعلا وقولا وأن صيدليات السودان كصيدليات مصر واحدة . . صادقة النية ولكن الدواء شىء آخر . والحديث النبوى يقول : «الطريق إلى النار محفوف بالنيات الطيبة» ! .

ولكن طعم المناقشة ورائحتها ودفئها كان أمتع وأعمق وأبقى ـ فشكرا لدكاترة أجزاخانة كمبال بالنيابة عن مثقفى مصر والسودان ! .

* * *

الذين يصيدون في المياه الدافئة

ما الذى يفعله السوفيت فى أفريقيا ؟ .

فالرئيس السوفيتى بودجورنى يرتاد القارة الأفريقية من الوسط والجنوب . . ومن ورائه ومن أمامه الرئيس الكوبى كاسترو . .

من الواضح أن السوفييت أكثر اهتماما بأفريقيا من أمريكا ومن الغرب . فهذه القارة قد استعمرها الغرب . وقامت كل حركاتها التحريرية على طرد أوروبا من أفريقيا . . ولايزال السود يحاولون التخلص من النفوذ الأوروبى أو من الأقلية البيضاء فى الجنوب أو الوسط . .

والسوفيت يمدون بالسلاح هذه الحركة التحريرية ، لأسباب أخرى . . فمن المنطق أن يحاول السوفيت ملء الفراغ الغربى فى أفريقيا ، وأن يحولوا دون التسلل الصينى إلى أفريقيا . . وأهم من ذلك كله أن تكون للروس قواعد فى المياه الدافئة . .

فقد كانت البحار الدافئة حلم القيصرية الروسية من أيام بطرس الأكبر . .

والسياسة السوفيتية تعتمد على النفس الطويل . . وهى مغامرة ، أحيانا تنجح وأحيانا تفشل . . فقد نجح السوفييت فى أن تكون لهم «قاعدة» فى الإسكندرية على أيام جمال عبد الناصر ثم خسروها على أيام أنور السادات ، ثم أصبحت لهم الآن قواعد فى ليبيا . . ثم كانت لهم قواعد فى الحديدة باليمن الشمالية ثم خسروها . . وأصبحت لهم قواعد فى عدن فى اليمن الجنوبية . . عند مدخل البحر الأحمر . . ثم لهم «قاعدة» فى بربر فى الصومال عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . . ولهم قواعد فى هافانا بكوبا . . ولهم الآن قواعد عند الدول الصديقة على المحيط الأطلسى . . حتى انتصرت أنجولا بالسلاح السوفيتى والقوات الكوبية . . ولم يكن من السهل الانتصار فى أنجولا إلا عن طريق التسلل من الدول المجاورة الصديقة للسوفيت أيضا . .

والسوفييت لهم هدف استراتيجى ـ أى فلسفى سياسى بعيد المدى . فقد ظهر فى الخمسينيات كتاب عن البحرية السوفيتية من تأليف الأميرال جورشكوف قائد الأسطول البحرى السوفييتى . هذا الكتاب يكاد يكون سريا . وليس من الكتب الشعبية المتداولة أو حتى التى يسهل فهمها . الكتاب عنوانه وموضوعه وهدفه وأمله أيضا هو «القوة البحرية للدولة» والمؤلف قد لقى مقاومة عنيفة فى داخل الكرملين . وتعب فى إقناع الساسة السوفييت حتى كانت أزمة الصواريخ فى كوبا سنة ١٩٦٢ عندما اضطر خروتشيف أمام تهديد كيندى أن يسحب الصواريخ السوفيتية ، هنا فقط اقتنع الكرملين أنه من الضرورى أن يكون لهم أسطول يستطيع أن يواجه الأسطول الأمريكى فى أى مكان من أى محيط على الكرة الأرضية .

ومن العبارات ذات الدلالة الخاصة فى هذا الكتاب قول المؤلف «إن البحار ليست ملكا لأحد . والأساطيل أكثر حرية من الطائرات والدبابات . . ثم إن الأساطيل تستطيع أن تهدد كل الشواطئ وأن تغزوها إذا اقتضى الأمر ذلك . .

ولم يشأ المؤلف أن يقول : إن روسيا تستطيع أن تعود إلى «سياسة الزوارق المسلحة» التى كانت تقف فى الموانئ فى القرن التاسع ، حدث ذلك فى أفريقيا وفى آسيا .

ولذلك فروسيا حريصة على أن تكون لها مياه دافئة ـ أى قواعد فى المياه الدافئة . وإن كانت فكرة «القاعدة» الثابتة لم تعد ممكنة الآن ، لأنه لابد للروس أن تكون لهم السيادة التامة على القواعد وأن تكون القاعدة فى مأمن من سياسة الدول المضيفة ، وقد فشل الروس فى ذلك تماما . وأكبر مثل لذلك ما حدث لهم فى الإسكندرية .

ولذلك فالروس يفضلون أن تكون لهم «تسهيلات بحرية» . . أى تكون أساطيلهم قادرة على التزود بالماء والطعام والوقود والذخيرة . . وبذلك تصبح هذه الأساطيل قادرة على المناورة والحركة والبقاء الطويل فى البحر الأبيض والمحيط الهندى والمحيط الأطلسى .

وفى أفريقيا يجد الروس أنهم أمام قضايا عنيفة متضاربة وأمام قضايا أخرى سوف تشتعل ولذلك فهم يستعدون لها من الآن ، وهذا يبرر ويفسر ما يقوم به الروس منذ انتصاراتهم فى أنجولا حتى الآن .

فهم مع السود ضد البيض فى حركاتهم التحريرية فى روديسيا وجنوب أفريقيا . .

ثم إنهم أمام موقف شديد التعقيد فى المنظمة التى تسمى «القرن الأفريقى» ـ وهى الصومال التى تشغل مساحة من الأرض على شكل قرن يمتد جنوبى البحر الأحمر وعلى المحيط الهندى . فالصومال وأثيوبيا وأريتريا وجيبوتى مجموعة من المشاكل المتضاربة .

فالاتحاد السوفيتى قد ساند الانقلاب العسكرى الأثيوبى بالسلاح والمال . وأعلن اعترافه بالنظام الدموى القائم على أنه نظام ثورى نظيف .

وفى نفس الوقت فإن هذا النظام الثورى معاد للنظام الثورى الموالئ للسوفييت فى الصومال .

وروسيا تمد الدولتين بالسلاح . وقد تساءل الرئيس الصومالى كثيرا إن كانت الأسلحة السوفيتية سوف تستخدم ضده .

وهناك منطقة أريتريا وثورتها الوطنية وكل شواطئها على البحر الأحمر ، وهى تريد أن تستقل عن أثيوبيا ، والدول العربية تساندها . وكانت روسيا تساند الثورة الأريترية ضد حكم هيلاسلاسى . فلما سقط حكم الإمبراطور ، انقلبت روسيا على ثورة أريتريا التى تساندها الصومال .

ويتقدم السوفييت بمشروع يرضى الجميع ويغضب الجميع أيضا ، وهو إنشاء اتحاد كونفيدرالى للصومال وأثيوبيا وأريتريا وجيبوتى . وعن طريق هذا الاتحاد يمكن تسوية كل مشاكل السكان والموانئ والحدود ! .

فإذا حدث ذلك أصبحت للسوفييت قواعد وتسهيلات بحرية هائلة على البحر الأحمر ، وعند مدخله ، وعلى المحيط الهندى أيضا .

وأصبحت روسيا قادرة على إشاعة القلق والفتن فى السودان عبر أثيوبيا وأوغندة أيضا . . وعن طريق ليبيا التى اتخذها السوفييت عميلا وحليفا ، لمجرد أنها ضد مصر . . وفى نفس الوقت واضح جدا أن السوفييت يريدون تطويق مصر والسودان والسعودية . .

ومع السوفييت ، ولأسباب مختلفة ، تتقدم إسرائيل إلى الدول الأفريقية ، أثيوبيا وجنوب أفريقيا ـ بالمال والخبرة . . سواء كان هذا الدخول صريحاً أو من وراء ساتر أوروبى أو أمريكى أو شيوعى . .

وفى المؤتمر الذى عقد فى تعز بين السودان واليمن الشمالية واليمن الجنوبية

والصومال كان الهدف هو «أمن البحر الأحمر» وأن يظل هذا البحر عربيا . . أى حتى لا تتدخل فيه إسرائيل . . أو تسيطر على مدخله أو شواطئه . . وليس معروفا بوضوح الآن إن كان رؤساء الدول الأربعة قد تصارحوا بشأن النفوذ السوفييتى المتزايد فى الصومال وأثيوبيا والمتربص بغيرهما من الدول . . أو أن أحداً قد صارح الصومال بضرورة أن يعود إلى القومية العربية الإسلامية ، وإن كان فى الإمكان أن يملأوا فمه ذهباً ! .

ربما تفجر هذا الموقف عندما يجرى الاستفتاء على الاستقلال فى جيبوتى . وسوف تكون مستقلة وتصبح الدولة ٤٩ فى منظمة الوحدة الأفريقية . . ويبدأ اللعب بالنار جنوبى البحر الأحمر . .

إن مياه البحر الأحمر تتعكر الآن وبشدة . والروس يصيدون فى المياه العكرة وإسرائيل أيضا ، ولا يزال أمام العرب كبارهم وأغنياءهم الكثير من المتاعب ، حتى يعيدوا الإخوة المارقين أو الناشزين إلى الوحدة العربية ضد الصهيونية والماركسية والتبعية المطلقة . . فنكون ضحايا توازن قوى الرعب ، وتعطش السوفييت إلى المياه الدافئة ، وبذلك نستبدل قوة بقوة ، وسلطاناً أبيض بسلطان أحمر . .

وهذا النشاط السوفييتى يؤكد بصورة صارخة (غفلة الأمريكان) والغرب . . وهذا هو أكبر التحديات التى تواجه الإدارة الأمريكية الجديدة فى أفريقيا .

إن قارتنا السوداء تغلى وتتفجر وسوف تمتد إليها أيد من الشرق والغرب تنتقى ما لذ وطاب . . ولذلك يجب ألا يغيب عن عيوننا أننا الضحايا . . وأن مصيبتنا أننا بعض لبعض عدو . . فليس أعداؤنا من خارجنا ، وإنما أعداؤنا من داخلنا؟ لماذا ؟ ! وكيف ؟ ! .

إنه الجنون من ناحية ، والصمت على ذلك من ناحية أخرى . . فهل يطول ذلك الصمت؟ ربما طال الصمت لأننا مشغولون بالسلام بيننا وبين عدونا ، وبعد ذلك نتفرغ للسلام فيما بيننا . .

والسلام ليس استسلاماً ، وإنما هو استعداد عسكرى دائم حتى لا نفاجأ بالقتال . إننا لا نريد أ نحارب ليبيا أو غيرها من أجل أن نتفرغ لإسرائيل وللذين تشويهم المياه الساخنة فى البحر الأحمر ! .

أنت أحسن من يكتب عنك

المفكر الإنجليزى توماس كارلين . . عندما تحدث عن أهم معالم الحضارة فى عصره قال : اختراع البارود والمطبعة وثورة البروتستانت على الكنيسة الكاثوليكية . . والمفكر الألمانى هربرت ماركوزة عندما وصف حضارة القرن العشرين قال : العقول الإلكترونية والصحافة وثورة الشباب وسلاح «المذكرات» التاريخية ! .

فقد ظهرت فى العشرين عاما الأخيرة مذكرات ويوميات واعترافات لمئات المشاهير من الأدباء والزعماء وكلها من أجل هدف واحد : أن يقول كل واحد منهم حقيقة ما جرى له وما جرى عليه ، وأن يكون ذلك على لسانه وبقلمه .

لماذا ؟ .

هذه هى مشكلة القرن العشرين فليس أسهل من أن يظلمك الناس وخصوصا إذا كنت إنساناً قوياً لأن القوى شخص له سلطة ، وله سلطة لأنه يقوم بعمل وهذا العمل يستغرقه فلا يجد وقتا لأن يقول ما فى نفسه ، فهو مشغول بالناس عن نفسه ثم إنه من الصعب أن ينفرد بنفسه ليفكر فى حالته وفى رواية تاريخه ويصحح الأخطاء التى وقع فيها الآخرون أو تعمدوها! .

ولذلك يسارع كل زعيم سياسى بأن يروى قصة حياته من البداية إلى النهاية ، أو يروى مرحلة من حياته . حتى لا يكون ضحية القوة التى كانت له . . لأن القوة قد أعطته الكثير من أجل الناس ، وسلبته الكثير من نفسه . .

ومن الصعب على أى زعيم أن يتكلم عن الظلم الذى وقع عليه ، ولكن من المستحيل أن يسكت عن ذلك أيضا ! .

ولاتزال العبارة التى قالها الزعيم الإنجليزى دزرائيلى صادقة . . فهو الذى قال : أنت أحسن من يكتب عنك ! .

والتاريخ ـ كما يقول كارلين أيضا ـ هو قصة حياة الأفراد النابهين . . قصة زعماء الشعوب .

ولايزال التاريخ هو سياسة الأمس . ولاتزال السياسة هى تاريخ الغد .

والزعماء عندما يكتبون تاريخهم ، فإنهم يسجلون ما كان بالأمس لعله ينفع ما سوف يحدث غدا . . فهم يتحدثون عن ماضيهم هم من أجل أن ينفعوا مستقبل الآخرين .

وكل مذكرات سياسية هى نوع من «الاعترافات» . . فالزعيم يجلس أمام التاريخ ـ أى أمام محكمة العدل الدولية . . ويترافع فى قضيته هو . . صحيح أن القاضى والمحامى والواقف فى القفص والمحلفين جميعا من صنعه هو . . ولكن هذه هى المحكمة الوحيدة الممكنة . . وهى المحكمة الوحيدة المريحة لكل من يكتب ، فالزعيم يريد أن تنعقد المحكمة وأن يكتب ويقرأ ويسمع براءته بنفسه . .

ومن هذا الشعور يتحول الزعيم إلى فنان يروى قصة ، أو يصور لوحة ، أو يعزف لحناً . . فيعيش القارئ معه ملحمة إنسانية . .

وبذلك يكسب القارئ مؤرخا وفنانا . فالمؤرخ يريد العدل ، والقارئ يريد الجمال . والعدل والجمال وجهان للحقيقة .

ولذلك كانت المذكرات السياسية عملا فنيا وكسبا إنسانيا فى النهاية .

وفى السنوات العشر الماضية فقط ظهرت عشرات المذكرات السياسية . ولنفس المعنى . .

إن تشرشل وهو الحائز على جائزة نوبل فى الأدب والذى أصدر عشرات الكتب ، لا تزال مذكراته تتوالى طبعاتها . . بل إن مئات الخطابات قد صدرت له أخيراً . وفى هذه الخطابات تفسير وتبرير لما حدث . . أو لما وقع له وما قام بتوقيعه من قرارات فى أقسى الظروف الإنسانية . .

كما ظهرت مذكرات الجنرال ديجول فى طبعات أنيقة . . فهو أيضا شاهد على عصره . وصانع لأحداثه ، ومن الضرورى أن يقول وأن يكشف وأن يكاشف الناس .

وحاييم وايزمان كتب «المحاولة والخطأ» وبن جوريون كتب الرسائل ونشر الأحاديث والاعترافات من أجل أن يروى لأجيال إسرائيلٍ الصغيرة هذا المعنى الواحد الذى قاله فى مئات الصفحات : يا أبناء إسرائيل غداً وبعد غد ، ترفقوا بنا فقد تعذبنا كثيرا من أجل أن نحصل لكم على هذه الكرامة والحرية . . ومن أجل أن تهجروا حارات اليهود فى كل عاصمة ! .

وفى بريطانيا ظهرت مذكرات كل الزعماء السياسيين وأخيراً ظهرت مذكرات هارولد ويلسون زعيم حزب العمال «الحكم البريطانى» . . وقد جعل كتابه عن فن رياسة الوزراء . . وكتاب ويلسون يعد ثانى كتاب فى تاريخ بريطانيا عن رياسة الوزراء .

ومن العبارات العميقة التى جاءت فى كتابه هذا أن هناك شرطين اثنين ليكون أى إنسان رئيس وزراء ناجحا : أن يكون لديه إحساس عميق بالتاريخ ، وأن يعرف كيف ينام . .

فالذى يعرف التاريخ ، يعرف المسرح الذى تحركت عليه الأحداث ويعرف المصنع الذى تتولد منه طاقة الحركة . . أو يعرف الأمعاء التى توجع الناس فيتطلعون إلى الخبز والحرية والقوة واللّه .

ويعرف أيضا كيف ينام : لأن الذى يعرف الأرق ، يعرف التردد والاندفاع أيضا ، ولكن النوم هو العلاج الوحيد الذى يجعل الحاكم قادرا على الرؤية الواضحة وقادرا على العدل بعد ذلك ! .

أما زعيم المحافظين إدوارد هيث فهو رجل فنان . . ولذلك أصدر كتباً عن التجديف وعن السباحة . . ثم أصدر كتابا عن الموسيقى . . أى عن تذوق الموسيقى وعن دراسة الموسيقى وعن كيف يقود هو الفرق الموسيقية .

وهو بذلك يريد أن يقول : إنه إلى جانب زعامته السياسية هو أيضا رجل رياضى ، يقبل النصر والهزيمة بنفس الروح المتسامحة . . وهو أيضا يتذوق الموسيقى . . والسياسة والموسيقى لا تختلفان . . فالرجل الزعيم هو الذى يقود الأوركسترا الجماهيرى من أجل لحن جميل عن الرفاهية والسلام . .

والأديب الإنجليزى رسكن هو الذى قال : اعطنى زمام الموسيقى فى أى شعب ، وأنا أجعله لك شعباً خبيرا مسالما نبيلا . .

وقبل ذلك قالها أفلاطون : الموسيقى هى انسحاب لرغبات الجسم ونزوات النفس وشطحات الجماهير . .

وليس مهما إن كان إدوارد هيث قد حقق هذا الانسجام العام لشعبه أو للأسرة الدولية . ولكنه قد اعترف لنا بأنه كان يأوى إلى الزوارق هربا من مناقشات مجلس العموم ويلجأ إلى دور الأوبرا فراراً من الخلافات الحزبية . وأنه من الواجب أن يكون للزعيم مكان يهرب إليه . .

فالرهبان كانت لهم صوامع . . والأنبياء كانت لهم كهوف . . أى كانوا جميعا ينسحبون من أجل الصمت النبيل أو العزلة الشريفة ! .

وبعد حرب أكتوبر ظهرت المذكرات فى إسرائيل . أما جولدا مائير فقد نشرت قصة حياتها . . وفى الفصول الأخيرة نهايتها الحزينة مع حرب أكتوبر . وكيف أنها بكت . . وأنها لن تسامح نفسها مدى الحياة على ترددها وخوفها ودماء اليهود بعد ذلك .

والذى فعلته جولدا مائير فعله أيضا موشى ديان فقد أصدر كتاباً عن حياته أيضا . وفصوله الأخيرة عن حرب أكتوبر وراح يفسر ويبرر لهذه الهزيمة .

وكلاهما لم يشأ أن يكتب عن حرب أكتوبر مباشرة وإنما قدم لها بإنجازاته هو من أجل الصهيونية العالمية ومن أجل إسرائيل . . فكأن كلا منهما أراد أن يقدم تاريخه الجليل ،لعل هذا يخفف الحكم على أخطائه . . أو لعل هذا يشفع له عند القارئ الإسرائيلى أو المولين اليهود فى كل مكان ! .

وكل رؤساء أمريكا أصدروا كتباً مماثلة بعد الحرب وظهروا على الشاشة الكبيرة والصغيرة يؤكدون ويصححون كل ما وقع أثناء وبعد الحرب . . إلا أيزنهاور فهو الوحيد الذى لم يظهر على التليفزيون . ولكن أحدا من خلفائه من الرؤساء لم يرتكب هذه الغلطة .

والرئيس الأمريكى نيكسون الذى أسقطته فضيحة ووتر جيت ، وظهرت عنها عشرات الكتب والمسلسلات والأفلام . يكتب مذكراته . وقبل أن تصدر مذكراته سجل ثلاثين حلقة تليفزيونية ، كل واحدة مدتها ساعتان ، يشرح فيها حقيقة ووترجيت ــ أو فضيحة التصنت على الحزب الآخر . ومعرفة ذلك والسكوت عليه يعتبر دليلا على الموافقة . . أى والمشاركة والمسئولية الجنائية أيضاً . .

وقد تقاضى نيكسون ثلاثة ملايين دولار . .

ود . هنرى كيسنجر يكتب مذكراته . وفى نفس الوقت تعاقد على نشرها مسلسلة فى ٢٠ لغة . وتعاقد أيضا على الظهور فى التليفزيون مرة كل أسبوع لمدة عام يشرح القضايا الخطيرة التى تعرض لها ، وساهم فى حلها أو تعقيدها ، وتقاضى مليونين من الدولارات .

أما الرئيس فورد فهو صاحب أكبر نصيب من المذكرات ومن الدولارات فى

التاريخ فقد تعاقدوا معه على مذكرات مقابل مليون دولار . وتعاقدوا معه على مسلسلات فى التليفزيون مقابل ربع مليون دولار .

وتعاقدوا مع زوجة فورد على نشر مذكراتها عن الرقص والأزياء ومرض السرطان الذى مرضت به . . وعن حياتها فى البيت الأبيض مقابل ثلاثة أرباع مليون دولار . .

وتعاقدوا مع جاك فورد ، ابن الرئيس فورد على أن يعمل مساعداً لرئيس تحرير مجلة موسيقية مقابل ثلاثة ألف دولار . فإذا كتب مذكراته عن والده وحياته فى البيت الأبيض فسوف يقبض مائة ألف دولار .

وتعاقدوا مع ستيف فورد الابن الثانى على أن يظهر على شاشة التليفزيون يروى نوادر فى حياة البيت الأبيض مقابل خمسين ألفاً من الدولارات .

وكذلك تعاقدوا مع سوزان فورد التى تهتم بالتصوير أن تنشر كتاباً بعنوان «البيت الأبيض فى صور» وسوف تتقاضى عشرين ألف دولار . .

وأخيرا تعاقدوا مع جاك فورد الابن الثالث على إصدار مجلة عن الرحلات مقابل مائة ألف دولار . .

* * *

إنه الظلم الذى يقع على الزعماء هو الذى يدفعهم إلى رفعه فى أسرع وقت ممكن قبل أن تتمكن الأكاذيب والشائعات من عقول الناس .

والصورة النموذجية لذلك : الرئيس نيكسون . فلم يحدث أن سقط أحد هذا السقوط العنيف ولم يحدث أن فضحت كل أجهزة الإعلام القوية رجلا ، بلا رحمة كما فعلت بهذا الرجل ومعه وضده . .

ثم إنه أيضا الخوف من المؤرخين الآخرين . وليس الخوف من المعاصرين ولكن من الذين يجيئون بعدنا . . الخوف أن يعلقوا صورنا على جدران من الكذب ، ثم إنها المتعة أن يعود الإنسان إلى نفسه . . وأن يخلو بها ، وأن يراجعها وأن يعيشها مرة أخرى . .

فإذا كان من معالم الحضارة الأوروبية اختراع المطبعة فمن كوارث القرن العشرين : الصحف . . وبعد ذلك الإذاعة والتليفزيون ، أى هذه الأدوات القادرة على النشر السريع والتأثير العظيم على الناس . .

فإذا عرفنا أن الإذاعة والتليفزيون والسينما قد جعلت الناس سلبيين ، يتلقون المعلومات دون تفكير لأدركنا خطورة هذه الأجهزة فى نشر الكذب أو نشر الخطأ .

والزعماء بسبب حساسيتهم الشديدة بالجماهير ، فهم أيضا حريصون أكثر من غيرهم على تبديد الكذب وإزالة آثاره فى أسرع وقت وبأقوى وسيلة . .

والفكرة التى تسيطر على صاحب المذكرات أو الاعترافات هى أنه يريد أن يصنع العدل لنفسه . . وأن يوضح موقفه وأن يصحح الأخطاء أمام المعاصرين . وأن يستريح إلى صدى ذلك فى نفوسهم فهل هذا هو حكم الأجيال القادمة ؟ .

إن كل جيل له منطق وله لغة وله مقاييس فنحن لا نعرف ما الذى سوف تقوله الأجيال القادمة . إننا لا نعرفها ولذلك فنحن لا نشغل أنفسنا بها كثيرا . وحتى عندما ننشغل بها ، فلأننا نريد أن نعيش أطول . . أى نريد أن يكون له صوت اليوم وصدى الغد وبعد غد . . إن الكاتب الروسى ديستوفيسكى فى روايته «الإخوة كرامازوف» هو الذى قال : إن المسيح نفسه إذا عاد حيا ، فسوف يحاكمه المسيحيون بتهمة الخروج عن الدين ! .

وديستوفيسكى فى روايته هذه قد جعل المسيح يعود حيا إلى مدينة أشبيلية فى أسبانيا . . وجعل الشعب يلتف حوله مما أغاظ أحد رجال الدين الذى انصرف عنه الناس ليروا المسيح حافى القدمين عارى الصدر نحيفا بسيطا . . وكان رجل الدين قد ارتدى ملابسه الفاخرة فوق كرشه الكبير . . فهدد المسيح بأنه إن لم يخرج فورا فسوف يضعه فى السجن . ثم وضعه فى السجن وهدده إن لم يختف من المدينة كلها فسوف يصلبه بتهمة الكفر والإلحاد ! .

وقال للمسيح أيضا : إن الدنيا تغيرت إننا تعذبنا من أجل الحفاظ على دينك . ولا نستطيع أن نمشى حفاة ولا أن نتحدث إلى كل الناس . ولا أن نموت من أجلهم ! .

* * *

ومن هنا اتجهت كل المذكرات السياسية إلى أبناء العصر ، لأنهم جميعاً طرف فى القضية التى يجب أن يترافع ويعترف ويرتفع أمامها كل زعماء الشعوب ! .

ارتفعت حرارة قصر الإليزيه بباريس

فى الكتب العسكرية يعلمون الجنود كيف يتحولون من أعداء إلى أصدقاء . وذلك بأن يشتركوا فى حفر خندق أو بناء جسر . . وبسرعة تتقارب الأيدى وتتلامس ويتضاحك الجميع : إنهم أصدقاء . .

فالصداقة ليست شيئا يوجد ، إنما هى علاقة نصنعها معا ، لنا معا . والصداقة درجة من درجات المودة .

وأهل الريف أقدر الناس على المودة ، فليس أسهل من أن تمتد أيديهم بالتحية . . وأن تتسع أذرعهم بالعناق . فهم قريبون وأقارب . وكل مكان يجلسون فيه هو بيت . وكل بيت يضم عائلة واحدة ، ولذلك فالريف عائلات . والعقلية التى تسودهم جميعا : إنهم أبناء عم أو خال أو إخوة فى الرضاعة . . أو فى الشرب من قناة واحدة أو يطحنون قمحهم فى ماكينة واحدة . فكل شيء يربطهم بعضهم ببعض فهم دائما مرتبطون مترابطون .

هكذا يعيشون ويحبون أن يكون كل ما يربطهم بالآخرين كذلك . .

ولا أدعى أننى أقرأ أفكار الرئيس أنور السادات . وإنما ألاحظ حرصه على ذلك . . ثم إنه أضاف شيئا آخر . فهو قد أقام الجسور وفتحها بين كل الأطراف . . ومد ذراعيه لكل الأشقاء العرب بعد أن تولى الحكم . . فلا تزال الجسور والعبور والمودة والأخوة أسلوبه وغايته فى التقارب والتفاهم .

وهو حريص على أن يخلق ذلك أو يشجع عليه . . فى كل ما يعمله فى مصر أو خارج مصر ، سواء فى العالم العربى ، أو العالم الغربى الذى يختلف عنا فى أسلوب العمل .

.ولكنه حريص على أن يكون شرقيا عربيا ، وأن يكون مصريا ريفيا . . فهو فى رحلته فى ألمنيا قد رأى المودة وخلقها وأشاعها أيضا منذ كان أول عشاء أقامه الرئيس الألمانى فالترشيل . . فقد رأى فى هذه الحفاوة العائلية تقديرا عالياً لمصر فى

شخصه . فمصر أم الحضارة وصانعة التاريخ ، وكبرى الدول العربية . وقد ظهر ذلك فى «الجو» الرقيق . . وفى الكلمات الشخصية الودية التى قيلت أثناء الطعام . .

ولابد أن الرئيس السادات قد عاد بذاكرته إلى أكثر من عشرين عاما عندما زار ألمانيا فى سنة ١٩٥٥ فى عصر «الرجل العجوز» أديناور . . لقد كان الرجل منحازا تماما لإسرائيل . وكانت علاقة ألمانيا بمصر ـ عادية لاحرارة ولا مودة . . ولكن فى زيارة الرئيس السابقة لألمانيا وهذه الزيارة قد لاحظ تغيرا هائلا فى موقف الرئيس شيل والمستشار شميت . وقد أحس الرجلان أن لألمانيا مكانة خاصة عند الرئيس السادات ، فهو يرى أنه من الضرورى أن يتوقف عندها ذهابا وإيابا . ولما علموا بأنه سوف ينشد فيها بعض الراحة بعد عودته من أمريكا أسعدهم ذلك أيضا .

بل إن عودة الرئيس السادات إلى ألمانيا قد جعلت المستشار شميت يختصر إجازته . . رغم أن الرئيس السادات قد طلب إليه ألا يفعل ! .

ولم تستغرق المناقشات الاقتصادية مع المستشار شميت أكثر من نصف ساعة . فقد تم الاتفاق على كل شىء وبسرعة . لأن كل شىء كان فى غاية الوضوح منذ البداية .

والمستشار شميت يستمتع بعظيم التقدير والاحترام من الرئيس السادات . ويرى أنه رجل اقتصادى عظيم .

والمستشار شميت له نظرية فى الاقتصاد : إن الاقتصاد العالمى مرتبك ، وفوضى . ولدى المستشار شميت صورة لعلاجه الفوضى العالمية فى الاقتصاد . .

وعلى الغداء شكر الرئيس السادات مضيفه الرئيس شيل والمستشار شميت على الفهم الواضح والحرص على الصداقة المصرية . وشكرهما أيضا على الخبير الاقتصادى الألمانى مولر الذى أهدته ألمانيا إلى مصر ومعه عدد من الخبراء الممتازين .

وفى المقطع الأخير من كلمته وكان باللغة الألمانية ، عاد الرئيس السادات وجدد لهم الشكر الغامر والود العميق .

وعلى الرغم من أن الكلمات كانت قد ألقيت قبل الغداء ، فقد جاء الرد على كلمته وديا للغاية . .

أما الجو العام ، فهو ما نتمناه لأنفسنا ، فقد جمعوا للرئيس السادات أقطاب الأحزاب السياسية وأقطاب المعارضة أيضاً . ورغم ذلك فقد كان الجو عائلياً .

وبما أسعد الرئيس السادات فى هذا الجو الودى أن يلتقى أقطاب الحكومة مع زعماء المعارضة فى مناسبة واحدة . فهذه الصورة لها دلالة كبرى ومعنى عميق . . وتعطى نوعا من الوحدة رغم الاختلافات فى الرأى . ولكن لاخلاف على المصلحة العامة . .

وفى فرنسا التقى الرئيس السادات بالرئيس الفرنسى جيسكار ديستان ، وبينهما علاقة صداقة عميقة . . ولذلك فاللقاءات عادة عائلية . فعلى الغداء أو العشاء يلتقي الرئيس الفرنسى وزوجته والرئيس المصرى وزوجته . . وأحيانا يحضر الأولاد أيضاً . وعلى الرغم من «المعنى التاريخى» لطقوس البلاط الإمبراطورى أو الملكى الفرنسى ، فإن شيئا من ذلك لايتمسك به الرئيس الفرنسى . . ولذلك يصبح الكلام أهدأ ، والحوار أرق . . والهدف قريبا . فلا تزال المودة أسرع وسائل الاتصال بين القلوب والعقول معا .

ومن يرى لقاء العائلتين على الغداء أو العشاء أو يستمع إلى الحوار والنكت المتبادلة لا يخطر على باله أنه يقف أمام رئيسى دولتين . . إنما يقف أمام صديقين التقيا على عشاء أو غداء . . بلا قيود وبلا بروتوكول . .

وكان قصر الإليزيه ساخنا جداً . كانت التدفئة شديدة .

وعندما خرج الرئيس السادات استقبله الصحفيون . استوقفوه فى الجو البارد جداً . ولم يتنبه الرئيس السادات إلى أنه كان يتصبب عرقا . ولكن عندما عاد إلى قصر الضيافة ـ المارينيه ـ أوى إلى الفراش . وكانت الغرفة باردة جدا . وطلب تدفئة الغرفة . وأحضروا له دفايتين ولكنهما لم تفلحا فى تدفئة الغرفة .

ولم يتنبه الرئيس السادات إلى ارتفاع درجة الحرارة فى قصر الإليزيه ثم انخفاضها الشديد أمام القصر فى حديثه مع الصحفيين ، ثم برودة قصر الضيافة ثم المقابلات الكثيرة جدا المرهقة قبل استئناف رحلته إلى أمريكا . .

ولكن بعد أن اتجهت الطائرة إلى أمريكا هنا أحسن الرئيس السادات بارتفاع فى درجة حرارته ، واستدعى طبيبه . وخشى الطبيب أن يصارحه بأن درجة حرارته قد بلغت الأربعين . ولكنه أحس بالإرهاق الشديد وعدم القدرة على التركيز . .

وظلت درجة الحرارة كما هى أكثر من خمس ساعات وأجريت للرئيس السادات كمادات من الماء والكولونيا . ولم تنخفض درجة الحرارة فلم يغمض له جفن طوال هذه الرحلة .

ولما لاحظ السيد إسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الأسبق أن الإرهاق قد استبد بالرئيس السادات اتصل من الطائرة ببرج اللاسلكى فى مطار سانت أندروز الحربى بضرورة أن تكون سيارة الرئيس السادات تحت الطائرة مباشرة . وبذلك ينزل من الطائرة إلى السيارة دون أن يتعرض للهواء ، وأن يتجه مباشرة إلى قصر الضيافة فى واشنطن .

وكنا لانزال على مدى ساعة واحدة من المطار . وقد لاحظنا جميعا حركة غير عادية فى الطائرة . . فالدكتور عطية الطبيب الخاص قد ذهب وعاد . ثم استدعى مرة أخرى . . ولكن أحدا لا يسأل . ولا أحد يقول شيئا . وقيل لنا إن الرئيس درجة حرارته ارتفعت . . وأن هناك تفكيرا فى إلغاء برنامجه فى اليوم الأول أو الثانى . . وأنه لابد أن يلزم الفراش يوما أو يومين . .

ولكن انخفضت درجة الحرارة . . ولاتزال الحرارة تنخفض حتى أصبحت عادية تقريبا . ولكن الرئيس السادات قد بدأ يستعد للنزول من الطائرة متساندا على نفسه . وعندما هبط سلم الطائرة استند بذراعه اليمنى إلى السلم . . وكان عند نهاية السلم سيروس فانس وزير خارجية أمريكا السابق والسيدة حرمه وعدد من رجال السلك الدبلوماسى الأمريكى والمصرى .

ثم وجد الرئيس السادات أن المطار قد امتلأ بأبناء الجالية المصرية جاءوا من كل الولايات الأمريكية ومن كندا . . فاقترب منهم يرد عليهم التحية . رغم أنه لم يكن قادرا على المشى ولكن لم تطاوعه نفسه أن يرى أبناء وطنه ينتظرونه ويفرحون بلقائه ثم لايذهب إليهم ليشكرهم على ذلك . .

رغم أن أصواتا كثيرة وراءه كانت تطلب إليه أن يكتفى بالتحية من بعيد وأن يركب السيارة وينطلق إلى الفراش .

ولم يكد الرئيس السادات يصل إلى بلير هاوس ــ بيت الضيافة ــ حتى وجد الطبيب الخاص للرئيس كارتر فى انتظاره ومعه عدد من الأطباء الأمريكان . وفجأة تصافح طبيب كارتر وطبيب الرئيس السادات فقد كانا صديقين .

وكشف الطبيب الأمريكى على الرئيس السادات . وقرر أن يبعث إليه بممرضة لتسهر عليه . وفى اليوم التالى سوف ينقله إلى المستشفى . .

وبعد أن أجرى الطبيب الأمريكى الكشف التام وإجراء التحاليل الكاملة قرر : أن

الرئيس السادات يجب ألا يزاول أى نشاط . وأنه من الضرورى إلغاء البرنامج لليوم الأول على الأقل ! .

ولكن الرئيس السادات أصر على عدم الذهاب إلى المستشفى وعلى الوفاء بكل ما التزم به . فلديه لقاءات صحفية واقتصادية ولقاءات فى التليفزيون وأخطر من ذلك أن يلتقى بالرئيس كارتر وبرجال الكونجرس . وأنه لن يعدل عن الوفاء بكل ما ارتبط به بالنسبة للأمريكان أو العرب أو الطلبة المصريين فى أمريكا وكندا .

وفى اليوم التالى نهض الرئيس السادات من نومه مستريحا . ودرجة حرارته عادية . ولكن فجأة ارتفعت درجة الحرارة بعد أن انتهى من جلسة المحادثات الثنائية مع الرئيس كارتر .

وعاد الأطباء إلى استخدام كمادات الماء والكولونيا . وهذه الكمادات تجعل النوم متعذرا . تماما كما حدث فى الطائرة . .

ثم إن الأطباء أعطوه بعض العقاقير التى تجعله يتفصد عرقا . وكان ذلك واضحا عندما ألقى الرئيس كلمته فى القاعة الشرقية فى البيت الأبيض . فقد كان وجهه يتندى عرقا . وكلما أخرج المنديل من جيبه يمسح عرقه لمعت كاميرات المصورين لدرجة أضحكت السيدة جيهان السادات وقرينة الرئيس كارتر . فلم يكن شيئا عجيبا أن يعرق أحد تحت المصابيح الباهرة الساخنة .

ولكن هذه المتاعب هانت فى عين الرئيس السادات عندما نجح فى مهمته . وعندما أقنع كارتر بتصوره للوضع فى الشرق الأوسط وفى أفريقيا . وعندما أبان له تماما موقف مصر أو «الصيغة المصرية» للحل . .

وأكثر من ذلك أنه وجد فى كارتر ذلك الريفى المؤمن . فكارتر ضابط أمريكى . بل إنه أمضى فى البحرية الأمريكية أحد عشر عاما ، أى ضعف المدة التى أمضاها الرئيس السادات فى الخدمة العسكرية . . ثم إن كارتر هذا كان ثانى اثنين اختارتهما البحرية الأمريكية ليعمل فى الغواصات النووية .

ويوم أعلن كارتر لزوجته أنه قرر أن يترك البحرية وأن يعيش حياة مدنية اعترضت زوجته ونصحته ألا يفعل .

وعقب الرئيس السادات على ذلك بقوله : لو كان قد سمع كلامك فمن كان

يلقانا فى البيت الأبيض اليوم . . ومن كان الذى يحسن فهم قضيتنا ويشجعنا على المضى فى خطانا إلى السلام ؟ .

والرئيس كارتر بدأ حياته المدنية من الصفر . لم يكن فى جيبه سوى خمسة آلاف دولار . . ولكن فى أمريكا من الممكن أن يبدأ الإنسان من الصفر ثم يستطيع أن يضع عشرين صفرا أمام الواحد فيكون مليونيرا أو ملايينيراً . . فلا حدود للثراء هناك .

وفى شقة الرئيس كارتر فى البيت الأبيض أحس الرئيس السادات أنه فى بيت عمدة . . ولكن البيت نظيف وبسيط . ولكن أهم من ذلك كله أن جميع أفراد الأسرة قد عاشوا معا . . وأن غرفهم كلها قد توزعت حول «حوش البيت» . . هذه غرفة الرئيس وزوجته . . وهذه غرفة ابنه الأكبر وزوجته . . وهذه غرفة ابنه الثانى . . وهكذا . . كلهم معا . .

وقد اعترف الرئيس كارتر للرئيس السادات بأنه اعتمد على جميع أفراد أسرته فى الحملة الانتخابية . . جميعا ساهموا فى إنجاحها . . تماما كما يفعل أبناءالريف .

ولم يكن من الصعب على الرجلين أن يتفاهما . فأكثر عادات أبناء الريف واحدة . وتناولهم للأشياء واحد . وما يتوقعه الواحد من الآخر من الاقتراب والقرابة واحد تماما . فالفلاح المصرى والفلاح الأمريكى والفلاح الصينى يتفقون فى ٩٠٪ من الوسائل والغايات .

وداعبه الرئيس السادات قائلا : البنت الصغيرة التى أنجبتموها على كبر . . نسميها عندنا فى الريف : إنها خلف العجائز ! .

وضحك الرئيس كارتر وأصر على أن يذهب مع الرئيس السادات إلى غرفة الفتاة الصغيرة . وكانت نائمة واقترب منها أبوها يقول لها : الرئيس السادات . . قومى سلمى على الرئيس السادات . .

وكانت الفتاة غارقة فى النوم . . ففتحت عينيها . . ثم طوقت والدها بذراعيها وعادت إلى النوم . وحاول أبوها من جديد أن يوقظها لكى تسلم على الرئيس السادات . ولكنه لم يستطع . . وقبلها الرئيس السادات وخرج الاثنان من الغرفة يضحكان . ثم سأله الرئيس كارتر : ماذا تسمون هذه الطفلة . . تسمونها خلف العجائز . ولكن لِمَ لا ؟ .

وبعد لحظات عادت زوجة الرئيس كارتر من حفلة كانت قد أقامتها للسيدة جيهان السادات . وبعد دقائق امتلأت شقة الرئيس كارتر بأولاده وزوجاتهم . . هيصة . . كأى بيت عمدة فى أعماق الريف ! .

وكان الرئيس السادات قد قرأ الكثير عن الرئيس كارتر . وقرأ قصة حياته التى عنوانها «ولماذا لايكون الأفضل؟» أو كيف لا نستطيع أن نحقق ما هو أفضل فى أى شىء ؟

وقال له : لقد قرأت عن قرية بلينز التى ولدت فيها . . كم عدد سكانها ؟ .

قال الرئيس كارتر : ٥٠٠ نسمة . . آه . . قل لى ياسيادة الرئيس السادات أين توجد قرية ميت أبو الكوم ؟ لقد بحثت عنها على الخريطة فلم أجدها .

وضحك الرئيس السادات وهو يقول : إنها أصغر من أن تظهر على الخريطة . .

سأله الرئيس كارتر : كم عدد سكانها ؟ .

فأجاب الرئيس السادات : ألف نسمة ! .

وفى أحد المؤتمرات الصحفية أعلن الرئيس السادات : أن هذا الرجل كارتر سوف يترك بصماته على تاريخ أمريكا والعالم . .

وقد صارحه الرئيس السادات بأن انتخابه هو «عودة الروح» إلى أمريكا . . فهو رجل جديد فى أفكاره وفى أسلوبه . ثم إنه رجل على خلق . ثم إنه أمريكى نموذجى . هو الوجه الحسن لأمريكا . فقد بدأ من الصفر ليرتفع كالصاروخ إلى أعلى مكان فى الدنيا فى أغنى وأقوى دولة فى العالم . .

ومن رأى الرئيس السادات أن أمريكا كانت تقوم بدور رجل الشرطة الذى يقوم بتأديب المتمردين والخارجين على القانون الدولى أو القانون الأمريكى فى العالم كله . . كانت تقوم بدور «البعبع» .

أو كان دورها نوعا من اللامبالاة بما يحدث خارج أمريكا . . بل كانت فيها اجتهادات بالعودة إلى الانعزال والانطواء وترك العالم كله يتمزق ، مادام بعيدا عنها ! .

والذى حققه هذا الرجل ، كمواطن أمريكى عادى ، حققته أمريكا كلها فى ٢٠٠ سنة . . ويبدو أن الأمريكان متطرفون فى عواطفهم إذا أحبوا أعطوا ، وإذا كرهوا

سحقوا . . فألمانيا هاجموها حتى هدموها ومسحوا بها أرض أوروبا ، وعندما أعانوها أعطوها حتى أصبحت أغنى دولة أوروبية . . أو هى الدولة التالية بعد أمريكا . . وكذلك اليابان ضربوها بالقنابل الذرية ، ثم أعطوها حتى نافستهم فى بلادهم .

وقد لاحظ الرئيس السادات سرعة التقدم الهائلة الذى أحرزته أمريكا من مجرد مقارنة أفلام رعاة البقر التاريخية والتى تصور حياة أمريكا من خمسين عاما فوجد أن البيوت خشبية ، وأن العربات خشبية . . ولكن فى هذه الفترة القصيرة تغيرت أمريكا وتسابقت وسبقت حتى وصلت إلى الكواكب الأخرى .

ولكن الصورة التى هزت الرئيس السادات وملأت قلبه بالدفء هى هذا الجو العائلى الريفى فى بيت أقوى رجل فى العالم : كارتر ! .

إن الرئيس السادات يعتقد أن الصداقة هى أعظم هدية يقدمها الإنسان لنفسه . . ولذلك فهو حريص على أن يكون صديقا وأن يكون له أصدقاء فى كل مكان وفى كل موقع ! .

* * *

المهاجر المصرى ذلك المجهول ولكن.. إلى متى؟!

كانت هناك شجرة كبيرة عند نهاية كوبرى الزمالك من ناحية إمبابة . الشجرة قطعوها بمناسبة زيارة شخصية كبيرة لمسرح البالون . أما ما هى العلاقة بين مسرح البالون ، وشجرة فى حجم البالون ، وهذه الزيارة ، فلا أحد يعرف حتى الآن . . إلا إذا كان المطلوب هو أن نذبح شيئاً تحت قدمى الزائر الكبير . ولما كانت عادة العرب أن يذبحوا جملا أو شاة ، ولما كانت أزمة اللحوم عندنا مستحكمة فلم نجد إلا هذه الشجرة . . فذبحناها وضحينا بظلها ، وجمالها . . ولم ينتبه الزائر الكبير إلى أن الناس الذين دعوه لرؤية اللوحات الفنية الجميلة على المسرح قد كذبوا عليه . . إذ كيف يحبون الجمال ويحكمون بالإعدام على هذه الشجرة الجميلة . .

هذه الشجرة لها أهمية خاصة فى هذا المقال . فقد كنت أريد أن أنشر صورتها من أجل توضيح فكرتى عن شباب مصر وحياتهم خارج مصر . .

ولم أجد فى القواميس اسما لهذه الشجرة إلا «شجرة تين البنغال» أما اسمها الأجنبى فهو شجرة «البانيان» وليست لهذه الشجرة أية علاقة بالتين ، ولكن هذا هو اسمها ، والأشجار كالإنسان لها أسماء ، وليس من الضرورى أن يكون لهذه الأسماء أى معنى خاص . .

وقد صدر فى ذلك الوقت كتاب بعنوان «شجرة تين البنغال ـ وهجرة أبناء الهند وباكستان وبنجلاديش» للأستاذ هـ . تنكر ، والكتاب مثل هذه الشجرة المصرية قبل أن يقطعوها : جميل فخم متجمع متشابك .

ومن خصائص هذه الشجرة أن لها أغصاناً كبيرة وكثيرة . وأنها تتشابك وتتداخل فتكون مظلة جميلة وهى لذلك مأوى للطيور والحيوان والإنسان ومن أهم مزايا هذه الشجرة أنها تسقط أغصاناً صغيرة . هذه الأغصان تشبه الأطفال ، إذا

سقطت على الأرض نفذت إلى التربة فتتحول بسرعة إلى أشجار جديدة . . وكلها تنمو من جديد وتتعلق بالشجرة الأم . . والمهاجرون هم هذه الأغصان الصغيرة ، ولكن فى أرض غريبة . .

بعض هذه الأغصان يجد التربة السهلة . . وبعضها يسقط على تربة صلبة عنيدة . . أو تتكاثر عليها الآفات الزراعية فتقضى عليها . .

أو تمتد إليها الأيدى فتقتلعها قبل أن تنمو أو بعد أن تنمو . .

وقد درس الأستاذ تنكر حالة المهاجرين فى بريطانيا وأمريكا وأفريقيا . ولاحظ أن القليل من هؤلاء المهاجرين عندهم هذه القدرة على أن يثبتوا فى الأرض بسرعة . ولكن الأغلبية قلقة متحركة . . وقد يدفعها اليأس إلى الحركة . وتؤدى بها الحركة المستمرة إلى الانكماش والموت .

وهذه الأقليات المهاجرة يجب أن تتماسك تماماً ، وأن تكون على علم البيئة الجديدة . وأن تكون فى نفس الوقت على صلة بالوطن الأم . . تماما كما ترعى الأشجار بذورها . . وكما ترعى الحيوانات صغارها . .

ويقول الأستاذ تنكر : إن الهند وباكستان وبنجلاديش . نظراً لكثرة الملايين على أرضها ، فإنها تفغل تماما عن هؤلاء المهاجرين وتتركهم يتحولون من مهاجرين إلى مغامرين . . فتهب عليهم رياح التغيير فتطيح بهم . كما حدث لهم فى بلاد كثيرة فى آسيا وأفريقيا . . وإن كان أمل هؤلاء المهاجرين كبيراً جداً فى أن يذوبوا فى المجتمع البريطانى بعناصره الكثيرة الملونة! .

ولا يقترح الأستاذ تنكر حلا لمشاكل المهاجرين أو علاجاً لفشلهم أو يأسهم من الاستمرار غرباء فى أرض غريبة ! .

وكثير من الدول الأوروبية تعتمد على أبنائها الذين يعملون فى الخارج . أو الذين هاجروا واستقروا ناجحين فى بلاد أخرى . .

إيطاليا ويوغوسلافيا واليونان والبرتغال وسوريا ولبنان وتونس والفلسطينيون وتركيا أحسن الأمثلة على ذلك .

ويكفى أن يتنقل الإنسان بين الفنادق والمطاعم والمصانع فى أوروبا كلها ليجد هؤلاء الأجانب يقومون بأعمال هامة . ويبعثون إلى بلادهم بألوف الملايين كل سنة وهذه الملايين هى الدعامة الكبرى للدخل القومى . .

وقيام دولة إسرائيل أكبر دليل على ما استطاعه ويستطيعه المهاجرون في إقامة دولة بالمهجرة في أى مكان . . فيهود روسيا الشيوعيون أقاموا إسرائيل فكرياً ، ويهود أمريكا الرأسماليون أعطوها الحياة من الرغيف إلى الصاروخ ! .

الهجرة غريزة عند الحيوان ، وعند الإنسان باعتباره حيواناً عاقلاً ، فالطيور تهاجر من أقصى الشمال لترمى بنفسها على شواطئ الإسكندرية . . إنها هربت من البرودة وجاءت إلى الدفء . . ولكننا نقلناها من مجرد الدفء إلى النار وأكلناها ولكن الطيور لا تقصد أن تموت وإنما هى هربت من البرد المميت . والأسماك تهاجر من شرق المحيط الأطلنطى إلى غربه فى أوروبا ، تتوالد وتعود مرة أخرى . . والسردين يهاجر إلى حيث تلتقى مياه النيل بمياه البحر . . وهذه غريزة البقاء . .

والإنسان عنده نفس الغريزة أيضا : فهو يهاجر من أرضه إلى أية أرض أخرى لأنه يريد أن يعيش أفضل . أو أن يعيش أولاده أفضل مما عاش هو وأبوه . .

عشرات الألوف من المصريين فعلوا ذلك .

ولكن لا أحد يعرف كم ألفاً أو كم من عشرات الألوف هؤلاء ؟ .

ولا ندرى ما هى الجهة التى نسألها عن المصريين . . لنعرف حالهم وأسباب نجاحهم أو فشلهم وكيف نسهل الهجرة على غيرهم كل عام . . هل نسأل وزارة الداخلية . . لأن هؤلاء جميعاً قد طلبوا الهجرة . سألت فلم أعرف كم عددهم ! .

هل أعود فأسأل وزارة الداخلية باعتبارهم خارجين «على» مصر وليسوا خارجين منها؟

هل نسأل وزارة الثقافة باعتبار أن الآثار تابعة لها ؟ وبما أن هؤلاء جميعاً توابيت سبقت توت عنخ آمون إلى الطواف حول العالم . سألت فلم يدلنى أحد على شىء من ذلك ! .

هل نسأل وزارة الإسكان لأن هؤلاء المصريين أقرب ما يكونون إلى الشقق الجاهزة : الزوج والزوجة والأطفال ومتاعب الأسرة كلها قد صدرت إلى الخارج وتم نقلها وتركيبها هناك ؟ .

سألت فعرفت من وزارة الزراعة أن شجرة «تين البنغال» قد اقتلعت وأن أحداً لايدرى عن هذه الأشجار شيئاً . .

ولذلك فليست العلاقة واضحة بين المهاجرين المصريين وهذه الشجرة ؟! فنحن

يجب أن نعرف كم عدد المهندسين والأطباء والمدرسين . . وعلى أى أساس ذهب هؤلاء وكيف نجحوا أو فشلوا ، وما هى احتياجات الدول الأجنبية إلى المصريين أو إلى الخبرة المصرية ! .

وما هى المشاكل التى تواجههم؟ وما هى الرياح التى تهب عليهم؟ ومن الذى ينافسهم ويعاديهم وعلى استعداد لأن يقتلعهم؟ . .

إن الأستاذ « تنكر » فى كتابه قد لاحظ أن التجارة هى التى تخلق العداء ، لأنها تخلق المنافسة بين المهاجر وبين أهل البلد . . ولذلك فالتجار هم أكثر الناس تعرضاً للمشاكل . .

وربما كان هذا هو السبب فى أن المصريين لايلقون مثل هذه المشاكل فى البلاد العربية أو فى البلاد الأمريكية أو الأوروبية ؛ لأن المصريين خبراء . . أى يقدمون خبراتهم فى الطب والهندسة والتدريس . . وهم أقرب إلى الموظفين ، منهم إلى التجار . ولذلك كانت أهم مشاكلهم هى : الانضباط فقط . .

أما التاجر فله أسلوب آخر فى حياته : من المنافسة والشطارة من أجل الكسب .

ولكن هؤلاء الخبراء المصريين ليسوا بلا منافسة . فالمصريون فى البلاد العربية يلقون نوعاً من المنافسة . وهذا طبيعى . ولذلك يتحتم علينا نحن المصريين أن نعرف : عدد المصريين ونوعية المنافسة حتى نواجه هذه المواقف الجديدة . وذلك بتجويد نوعيات الخبرة . فلم يعد يكفى أن نبعث بمهندس عادى ، ولا أى مدرس ولا أى طبيب ، وإنما يجب أن نحسن «النوعية» وليس معنى ذلك أن تتدخل الدولة تماماً وأن تمسك جميع المهاجرين فى قبضتها ، وتختار من يعجبها وترد من لا يعجبها . ربما كان هذا ضروريا لبعض الوقت . . ولكن واجب الدولة هو أن ترشد المصريين هنا وهناك وأن تنير لهم الطريق أمام العوائق من أجل النجاح فى البلاد الأخرى . .

وقد حاولت أن أجد الأرقام التى تدل على عدد المصريين فى الخارج فلم أجد . . أو على عدد العاملين وعدد المهاجرين المتجنسين بجنسيات أخرى ، أو عدد الذين عادوا إلى مصر . . أو أعرف حتى لماذا وكيف ومتى ذهبوا وعادوا ، فلم أجد أحداً يدلنى على شىء . .

ولذلك فسوف تظل قضية الهجرة المصرية لغزاً . وسوف يظل المهاجرون مغامرين . . وماداموا مغامرين فهم على مسئوليتهم ، والدولة لا شأن لها بهم . .

وهذا خطأ فليسوا مغامرين ، ولذلك فالدولة يجب أن تكون مسئولة عنهم . ويجب ألا تنقطع صلتنا بهم . . فهم مصريون أينما ذهبوا وكيفما فعلوا . . وهم سند لمصر ودعاة لها ، وامتداد واتساع وعمق لمصر فى أى مكان . .

وقد عانينا كثيراً جداً يوم كان المصرى إنساناً بغيضاً . وكان بغيضاً لأنه كان مخيفاً للبلاد العربية ، فلم يكن أحد يتوقع منه إلا أن يتآمر أو يخرب . .

وتغيرت الصورة المصرية ، أو حاولنا نحن أن نغيرها . . ولن تكون الصورة المصرية ، على النحو الذى نتمناه بسهولة أو بسرعة . . فليس لنا سلطان على الدولة الأخرى ، مهما كانت قريبة أو شقيقة . . وسوف يكون الزحام على الرزق سبباً فى الخلاف . وسوف يؤدى الخلاف إلى الشقاق . والشقاق إلى العراك . . إلى اقتلاع الأغصان الصغيرة من التربة الأجنبية! .

وحتى لا نكون نحن أنفسنا سبباً فى اقتلاع أغصاننا بإهمالنا ، يجب أن نعرف نوعية هذه الأغصان ، ونوعية التربة ، والآفات والحشرات والماء والهواء والضوء . . حتى لا تكون هجرة المصريين إلى الخارج ، طرداً لهم أو تخلصاً منه . .

وبذلك نكرههم على كراهية بلادهم ، مع أننا فى حاجة إلى حبهم وجهدهم . .

والأشجار عندما تلقى بأغصانها إلى الأرض ، فإنها لا ترميها بعيداً عنها . . وإنما تحتها وفى ظلها وفى رعايتها . .

وهى تفعل ذلك بالغريزة . . من أجل أن تبقى وأن تستمر . .

ونحن لا نقل عن الأشجار حرصاً على البقاء ولكن يجب أن نذهب إلى أبعد من مجرد هذه الملاحظة فننشئ وزارة أو إدارة أو هيئة للهجرة . . أو للعاملين فى الخارج . . إنها هيئة استثمار للقوى البشرية الممتازة فى البلاد الأخرى . .

إن الاسم لا يهم : ولكن المعنى الحقيقى والهدف النبيل هو الذى يجب أن يشغلنا اليوم ونحن نتزايد مليونا كل عام : وليس لدينا أى أمل واضح فى أن ننظم النسل أو نحدده . . .

وبمنتهى الوضوح : إن مناجمنا الحقيقية ليست البترول ولا قناة السويس ولا صحارينا . . وإنما هذه الطاقة البشرية التى نرعاها ونحسنها ونصدرها وننتظر عائدها المادى بألوف الملايين ! .

* * *

من أجل إنسانية الإنسان

لا أحتاج إلى مجهود عقلى كبير لكى أجدنى طفلا فى ريف المنصورة يخاف أن يمد رجلا أو يدا خارج البيت ، فالدنيا ضيقة خانقة لأبناء الطبقة الفقيرة . . هؤلاء الذين يحفظون القرآن لعله يحفظهم ، والذين يتطلعون إلى السماء لأن الأرض ليست لهم ، والذين لا أمل لهم إلا فى الجنة . . أى فيما بعد هذه الحياة ، لأن الآخرة لهم والدنيا لغيرهم .

ولم يكن لنا خيار فى ذلك .

فهذا هو قدرنا جيلا بعد جيل . . يولد الفقير فلا ينتظره شىء : لالقب ولا أرض ولا مستقبل ولا عربة ولا حصان . . أما الغنى فقد سبقته إلى الحياة : عربة وحصان ولون بشرة وطبقة ومستقبل .

ويلتقى الأغنياء والفقراء عند شىء واحد : أن كل شىء وراثى . الفقر موروث والثراء أيضا . العجز موروث والقوة كذلك . فيظل الفقير فقيرا والغنى غنيا إلى الأبد . .

وقد تعودنا ، ونحن أطفال ، أن نرى من بعيد أبناء الأغنياء على أنهم من طراز آخر . . وكان يدهشنا جدا : أن يكون الإنسان غنيا ومريضا . أو غنيا ونحيفا ، أو غنيا وبليدا . . وفي نفس الوقت كيف يكون الفقير ذكيا أو الأول فى الفصل أو فى الشهادة العامة ؟ .

هل كان الأغنياء كذلك ، أو كنا نحن نتوهم ذلك ؟ .

هل كان أبناء الفقراء نابهين ، أو كنا نتوهم ذلك فتعوضهم عن الفقر بالذكاء ، وعن الظلم الواقع عليهم بالتفوق فى الدراسة ؟ .

ولم نكن نذهب إلى أبعد من هذه المقارنات ، أو هذه التعويضات نعطيها لأنفسنا . ونسلبها من غيرنا ، ونمضى نتحدث عن ألف ليلة وليلة . . التى فيها

العفاريت تنقذ الناس من الغرق ، وعن مصباح علاء الدين وعن بساط الريح . . وكلها أحلام الجائعين والخائفين والعاجزين . .

والعقلاء يقولون : حظ ! .

والطيبون يقولون : قدر ! .

والساخطون يقولون : ظلم ! .

والحالمون يقولون : لابد أن يطلع نهار ويذهب ليل . . ويجيء أناس يثورون على الحظ والقدر والظلم . . ويمسكون ميزان المجتمع بالقوة ويحققون التعادل والاعتدال والعدل . . لابد . .

ولا ندرى على أى أساس نستخدم كلمة «لابد» . .

وكنا نؤكد لأنفسنا أنه لابد . .

وكنت واحدا من الغارقين فى الكتب فلا أرى فى الدنيا إلا الورق . . وإلا التقلب على الورق ، ولا أخرج منه إلا لكى أعود إليه . . مثل دودة القطن . . أو سوسة الخشب . . فالذى أنا فيه أصحو عليه . . والذى أعيش به أموت منه . . ورق فى ورق . . وقد رأيت ما الذى فعله الورق بأبى . . عاش أديبا ومات فقيرا . . عاش محبوبا بين الناس ، ومات مظلوما منهم . .

وإذا كان هذا هو مرض أبى الذى ورثته ، وكان هذا أيضا هو تشخيص هذا المرض فليس له علاج . . لأن الفقر لا علاج له ، كما أن الثراء لا شفاء منه . .

فهذا الفقر الثقافى ، أو هذه الثقافة الفقيرة هى قضاء وقدر . . أو الفقر والثقافة ، كالفقر والستر توأمان . .

ولولا أننى كنت تلميذا مجتهدا لتوقفت عند السنوات الأولى من التعليم . . ولكن هذا الاجتهاد كان التعويض الإلهى ، العون السماوى ، لكى أفلت من جاذبية الأرض والفقر والعجز . .

وكانت للقادرين أسماء غريبة . . وكان لكل اسم سحر عجيب رهيب . يكفى أن تنطقها فيقف الناس ، ويمدون أيديهم ويفسحون الطريق ويعطون الفرص ويدوسون الآخرين . . كيف؟ ما الذي يجده الناس فى مثل هذه الكلمات الباهرة : ساسون . . بوغوص . . بحرى . . يكن . . وكل أسماء أمراء الأسرة المالكة . .

ولم أعرف من هذه الأسماء إلا اسم أسرة يكن . . عدلى باشا يكن وعز الدين بك يكن ونعمت هانم يكن . .

وكانت لهذه الأسماء مرادفات أخرى غريبة : السيارات اللامعة المغسولة . . والأرض المرشوشة بالماء لتمشى فوقها السيارات ، ويقف على جوانبها الناس فى حذر . . خوفا من أن يتركوا لأقدامهم آثارا على الطرقات المفروشة بالرمل . .

حتى الجواميس والأبقار التى يملكونها تختلف عن بقية الأبقار . . وكنا نقارن بين بقرة الباشا وبقرة أى فلاح ونؤكد لأنفسنا أنها بنت ناس أو بنت ذوات . . أو أنها تعرف أنها هى الأخرى مختلفة فى اللون والطول والعرض والحركة ! .

وكانت لهم قصور كبيرة مهجورة معظم أيام السنة ، لأن أصحابها فى الخارج لأنهم من الخارج فأكثرهم أجانب .

ولم نكن نعرف ونحن صغار : ما هى العلاقة بين أن يكون الإنسان غنيا وأجنبيا فى نفس الوقت . . ولا بين أن يكون غنيا ومصريا . . أو أن يكون غنيا قويا ظالما ، لماذا لا يكون الظلم إلا من القوى ، ولا يكون الثراء إلا للظالم ؟ لماذا ؟ .

كان أبى يعمل مأمورا لتفتيش عدلى باشا يكن وإخوته . . وكانت كلمة «يكن» ملتصقة بألسنتنا نقولها ألف مرة فى اليوم الواحد . . نقولها حتى إذا لم يكن لها معنى . . نقولها والسلام مع عظيم الاحترام لها ، والاحترام من الناس . . وكان أبى من أكثر الناس إسرافا فى استخدامها . وكان ذلك من أهم حقوقه وواجباته أيضا وكان يكتفى بأن يقول : الباشا أمر . . أو الهانم أمرت أو يشير إلى صورة على الحائط ، أو يرفع أصبعه إلى السقف . . وكل هذه الإشارات لها معنى واحد : أن هذا أمر من فوق . . وليس على الذين تحت إلا الطاعة . والناس يطيعون خوفا وفزعا . . أو بلا خوف ولا فزع . . وإنما يفعلون ذلك بالغريزة . .

وأذكر أنه فى إحدى المرات جاءنى أبى يقول : إن نعمت هانم يكن تريد أن تراك . . أو أمرت أن تراك . . أو يظهر والله أعلم أنها أمرت أن تمر أنت أمامها لكى تراك . .

وقد أجريت تغييرات وتعديلات هائلة على وجهى وشعرى وملابسى ومعاملتى فى اليوم الذى سبق هذه «الرؤية» أو هذه «الرؤيا» . . فغيرت ملابسى وحذائى وحلقوا لى شعرى وأظافرى . وسبقتنى آيات قرآنية وتبعتنى أيضا . . وربنا يجعل فى وجهك القبول . . وما النصر إلا من عند الله . . وبشر الصابرين . .

ورأتنى الهانم وابتسمت فى وجهى . . وكانت هذه هى المكافأة التى أخذتها من سيدة طيبة كريمة لأننى نجحت فى الثانوية وكان ترتيبى الأول . . وهنأنى الناس جميعا بعد ذلك من أول شارع الأمير حسين فى الزمالك حيث كانت تسكن الهانم . . وكان ذلك موقفا كريما إنسانيا من الهانم . .

وكان فى نفس الوقت تسجيلا لشىء عجيب : أن تقدم أحد فى الدراسة من الطبقة الدنيا . .

فلا يزال الأغنياء يندهشون لنجاح الفقراء . . ولكن هذه الدهشة تذهب بسرعة ، لأن هؤلاء الناجحين أين يذهبون بعد ذلك . . إنهم يسهرون ويتعبون وينجحون ليكونوا فى خدمة الذين لم يسهروا ولم يتعبوا ولم ينجحوا . .

فالنتيجة واحدة : الذين اجتهدوا والذين لم يجتهدوا سوف يلتقون معا عند قدمى الأغنياء خداما موظفين فلاحين عمالا ! .

وكان هذا هو الإطار العام للحياة والأوضاع الاجتماعية وقوانين الوراثة فى مصر قبل قيام ثورة يوليو . .

وكان الباشوات والبكوات والخواجات كلهم طبقة واحدة متشابكة متساندة معادية لأغلبية الفلاحين والأفندية فى مصر .

وكان لابد من المعجزة لكى يخترق واحد حاجز الطبقة أو حاجز الوراثة . .

وقد نجح عشرات فى تخطى هذه الحواجز التقليدية ولكن لابد من شىء أكبر من المعجزة لكى يدوس الناس هذه العوائق التاريخية . .

والمعجزة الشعبية هى : الثورة . .

وكانت الثورة عملا عظيما . . بل إن نتائجها كانت أكبر منها ، وكانت أبعد مما تصور الشبان الذين فجروها . .

تساقطت الحواجز ، واتسعت الأرض ، وانفتحت الطرقات والأبواب ، وزالت فوارق اللون ، ومعالم الطبقة ، ولم يعد قانون الوراثة وراثيا . .

فكل مكان يقف فيه أى إنسان هو ميدان : يخرج من هذا الميدان ألف طريق لألف إنسان . . وكل الطرق تؤدى إلى ما نريد أو إلى ما كنا نحلم به . .

ولم يعد ضروريا أن يكون الغنى الغبى هو الحاكم . . ولا من الضرورى أن تكون

الوظائف للفاشلين ، ولا أن يكون الوزير حفيدا لوزير أو حفيدا لإقطاعى . . وإنما من الممكن أن يكون الوزير ابنا لواحد مجهول . . لواحد لا يعرفه أحد . . وليس من الضرورى أن يعرفه . . فقد كتبت لكل مواطن شهادة ميلاد جديدة ، كفاءته وقدرته على أن يعطى كما أخذ ، وأن يفتح الطريق كما انفتح له . .

وإذا كانت للأثرياء أسماء غريبة . . فللظالمين أسماء أغرب . .

فالرأسمالية والإقطاع والشيوعية كلها أسماء مختلفة لظلم الأغلبية .

فالرأسمالية والاقطاع : أن يملك القليل جدا من الناس الكثير جدا من الفلوس والأرض . .

والشيوعية : ألا يملك أحد شيئا . .

وهى جميعا تتحدى طبيعة الإنسان : فمن الطبيعى أن يملك الإنسان . فيقول : هذا عملى . . وهذا مالى . . وهذا بيتى . . وهذا ولدى . . وهذا دينى . . ولذلك فهذا حرام وذلك حلال . .

إن الحيوانات عندها غريزة أن تملك العش . . وأن تكون لها أنثاها وصغارها . . وأن تحارب حتى الموت من أجل ذلك . . والإنسان إن لم يكن حيوانا فقط ، فهو حيوان عاقل . . ولكن فى الدول الشيوعية يجردونه من حيوانيته . . فيجردونه من حق أن يملك أى شىء . مع أن هذا ليس قانونا عاما ، فأمراء الحزب الشيوعى أو كرادلة الحزب يملكون البيت الصيفى والبيت الشتوى والسيارة ولهم أماكن خاصة فى كل طريق . . ولهم الحق فى السفر وفى التعليم . . لأنهم باشوات وبكوات الطبقة الجديدة الحاكمة لكل شىء . .

وفى المجتمعات الرأسمالية يملك عدد قليل جدا من الناس أغلبية الثروات . . وكذلك الذين يملكون الأرض . . فقد كان بعض مئات من الأسر المالكة والخواجات المتحالفين معهم يملكون ثلاثة أرباع أرض مصر . . وبقية الملايين يملكون فتات الأرض وبقايا الطعام وما فاض عن موائد أصحاب الإقطاعيات الواسعة . . وكان ذلك هو القانون الذى أكسبه الزمن شكل القداسة فأصبح قانونا إلهيا . . وأصبح قضاء الله وقدره على كل الناس ! .

وكل هذه الأشكال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ظالمة فادحة مالم تحقق فى النهاية غاية واحدة : إنسانية الإنسان . .

فالنظام الذى يرى أن الإنسان أداة . . مطية . . نحو هدف آخر : نظام ظالم . .

لأن النظام الاجتماعى السليم هو الذى يحقق للإنسان أكبر قدر من الحرية . . حرية العمل والحركة والاعتقاد والكسب والأمن . .

فالناس جميعا سواء . .

وكل إنسان من حقه أن يعمل . وأن يكسب إذا عمل وأن يوجه ماله إلى الناحية التى يراها . وأن يترك لأولاده من بعده مايشاء . . ولا أحد يعوق أحدا . . فالطريق مفتوح للجميع . . فى العلم والعمل والمسئولية دون حاجز من طبقة أو لون أو عقيدة . .

إن تاريخ الهوان الإنسانى قديم قدم الإقطاع وقدم الرأسمالية وقدم الشيوعية أيضا . .

ولاخلاص للإنسان إلا بالاشتراكية : أى إتاحة كل الفرص أمام كل الناس وحماية كل الناس من كل الناس بالقانون الذي هو سقف وسور نحتمى تحته ووراءه . .

وبذلك لا يتحكم فرد واحد فى بقية الأفراد . .

ولا تتحكم طبقة واحدة فى كل الطبقات . .

ولا يتحكم مذهب سياسى أو فكرى فى بقية المذاهب . .

وإذا كان من حق كل فرد أن يعمل ما يشاء ويكسب ما يستطيع ، فإن الدولة يجب أن تحمى الآخرين فى نفس الوقت . . حتى لا يتحول الأغنياء إلى طبقة أخرى متحكمة . . ولا يتحول ملاك الأراضى إلى إقطاع جديد . .

وكان تدخل الدولة لحماية نفسها ، ولحماية عامة الناس أيضا . . فساهمت فى المؤسسات والشركات والمجتمعات . . ودخلت تحمى الملايين من عشرات الألوف من القادرين . . وتقدمت الدولة ، وسوف تفعل ذلك دائما ، بتدعيم الضروريات الحيوية لكل الناس . . حتى لا تكون أقوات الشعب اليومية فى أيدى أصحاب المتاجر والمصانع . . وفى نفس الوقت لا اعتراض للدولة على أن يكون لأى مواطن ماشاء من المتاجر والمصانع ، مادام فى النهاية يعمل للآخرين ويدفع حق الدولة عليه . .

شىء واحد أصبح ضروريا الآن : أن ندفع الإنتاج خطوة إلى الأمام . .

وذلك بأن نشجع العمل وأن نشجع الحافز الفردى وأن نعطى الأمان لصاحب المال المصرى كصاحب المال العربى . . حتى لا يتحول صاحب المال الأجنبى إلى خواجة أو إلى خواجات وباشوات ، ويصبح أولاد البلد فلاحين وأفندية مرة أخرى . .

وأن تخفف الدولة من أعبائها بالمشاركة والمنافسة فى الأعمال التى هى من صميم الأفراد . . مثلا : لا تقوم الدولة ببيع البيض والفراخ والأبقار والمواشى والأرانب . . وليس معنى ذلك أن هذه الصناعات الزراعية أو الحيوانية شىء تافه ، فهى هامة وحيوية ولكن هناك من الأعمال والصناعات الأخطر يجب أن تتجه إليها الدولة ، وتترك ذلك لبقية العاملين من المصريين وشركائهم من الأجانب . . وليس هذا إلا مثلا واحدا من عشرات الأمثلة . .

ولا يهم فى البداية أو فى النهاية شكل العمل أو حدوده أو حصيلته مادامت الغاية هى : أن يظل الإنسان إنسانا كريما على نفسه وعلى بلده . .

ولايكون الإنسان إنسانا إلا إذا احترمنا فيه : حريته وكرامته وخصوصيته ! .

* * *

إنهم لا يقدسون الموتى !

يومان فى السعودية : يوم اغتيال الملك فيصل ، ويوم عودة الملك خالد بعد أن شفاه اللّه . . فى اليوم الأول ذهبت لأقدم صادق العزاء إلى الأصدقاء من الأمراء ومن الرسميين . . وفى الطائرة أعددت نفسى لمواجهة هذا الموقف الأليم . ولابد أن الحزن كان واضحاً على وجهى . . فالملك كان رجلا عاقلا هادئا متواضعا طيبا . . وهو لاشك خسارة لأهله ولقومه وللعرب . . وفى الطائرة وجدت السعوديين يتكلمون ويأكلون ويضحكون وقلت : لابد أن الحزن أرهقهم وهم فى حاجة إلى شىء من الترفية . .

وفى الطائرة وجدت السعوديات قد نحين غطاء الوجه جانبا ، فظهرت وجوه مغسولة شاحبة وإن كانت العيون كبيرة ولمعانها شديداً . . ولكن عندما اقتربت الطائرة من مطار جدة . . تبدلت الصورة بسرعة فالرجال قد سحبوا الضحك من الوجوه . .والنساء قد سحبن الأغطية على الوجوه ، وكأنهن تحولن من أحياء إلى أشباح . . والمنظر يوحى بالحزن حقا . .

وفى مطار جدة صافحت الكثير من الأصدقاء وكان موضوعنا هو اغتيال الرجل الطيب الملك فيصل . . وفى السيارة كان الراديو يذيع القرآن الكريم . ومددت يدى أدفع لسائق التاكسى وناقشنى فى الأجرة . . فأدركت أن الحزن ليس عميقا كما كنت أتصور . . وفى الفندق دخلت فى الحركة العادية اليومية لأى زائر أو سائح . . ملأت الاستمارة وطلبت المفتاح ودخلت غرفتى . . ودخلت تحت الدش وطلبت الشاى . . ومددت يدى إلى التليفون وذهبت إلى الصديق عبد اللّه الفيصل . . إنه أكبر أبناء الملك وأحب أولاده إليه . . ووضعت أحزانى وأسفى كلها فى يدى وفى عينى أو تصورت ذلك . ويبدو أن الأمير عبد اللّه الفيصل . . قد تلقى هذا العزاء ألف مرة . فلم يعد هناك ما يستطيع أن يطيقه . فكل الذى قاله ردا على تعزية الناس قد كرره حتى مله . . أو حتى ملت يداه وعيناه وشفتاه .

وجاء الناس إلى الأمير عبد الله الفيصل وتحدثوا فى كل شىء . . ومضت ساعة لم يرددوا فيها اسم الملك فيصل وبدأت أجمع دهشتى لكى أصل إلى هذه النتيجة : إننى فى السعودية ولست فى مصر .

ومعنى ذلك أن الحزن فى السعودية ساعات وبالكثير جدا أيام . . أما عندنا فى مصر فالحزن أيام وسنوات . ثم قام الناس جميعا إلى تناول العشاء . . ودار الحديث عن الفرق بين لحم الضأن ولحم الدجاج . . ولم أنطق بكلمة واحدة . . لا لأننى لا أعرف هذا الفرق ، فأنا آكل ما أجد ثم إننى لا أحب اللحم ولا أشتهيه ولو غاب عن عينى سنوات فلن أطلبه ، ولكن الكلام بهذه الصورة قد صدمنى . . أو صدم مجموعة الأفكار التى أعددتها وحشدتها فى رأسى قبل أن أصل إلى السعودية . وابتلعت مع الطعام لسانى وسكت .

وفى الرياض قابلت عددا هائلا من الأصدقاء إنهم فى غاية الحزن ، ولكنهم فى نفس الوقت فى منتهى التسليم بقضاء اللّه ، مات الملك . وكل إنسان سوف يموت .

وفى الرياض كانت الصدمة الثانية : سألت عن قبر الملك فأشاروا إلى طوبة على سطح الأرض . وقالوا : هنا .

* سألت : سوف يدفن هنا ؟ .

قالوا : بل لقد دفن هنا ! .

أما «هنا» هذه فمعناها أنهم حفروا الأرض . . ثم حفروا جانبا من الأرض ووضعوا فى هذا الجانب جثمان الملك مستلقيا على جانبه ووضعوا وراءه الحجارة والتراب . . ثم وضعوا قطعة من الحجارة على سطح الأرض تمييزا مؤقتاً لقبر الملك . . وهم ـ أى السعوديون ـ يستنكرون أن يمتاز قبر عن قبر ولو بطوبة أو بقطعة حجر . .

فالرجل «هنا» تحت هذه الطوبة ! .

انتهى رجل عظيم حكيم . .

فإذا حاولت أن تناقش معهم ذلك قالوا لك : وأين الرسول عليه السلام ! .

إنه هو أيضا تحت الأرض . . إنه بشر .

* * *

أما اليوم الثانى فهو عندما عاد الملك خالد من لندن بعد أن أجريت له عملية جراحية فى عظام الحوض ، وهى عملية أليمة رهيبة وبعد سبعين يوما عاد الملك

ليجد الشعب قد أضاء له الشوارع والبيوت والمؤسسات . . ولم يفرح الشعب السعودى قبل ذلك ، وبهذه الصورة إلا يوم مبايعة الملك فيصل . . بل إن السعوديين هذه المرة قد تجاوزوا كل الحدود . . فأقاموا الزينات وذبحوا الأغنام ورقصوا فى الشوارع وفى أيديهم العصى والسيوف ثلاثة أيام . . بل إنهم كانوا ينتظرون نشرة الأخبار الأخيرة لعل الملك يأمر لهم بيوم إجازة . . أو بأسبوع أو بشهر . . فهم سعداء ويريدون أن يفرحوا وأن يتفرجوا على أنفسهم وهم سعداء . .

وقد خرج الناس إلى الشوارع وقد امتلأت السيارات بالسيدات والأطفال وجلس الناس على الأرصفة ومعهم أجهزة التليفزيون والطعام . . وحدث فى المدن السعودية مايحدث فى القاهرة أيام مباريات كرة القدم : زحمة فى الشوارع وانقطاع للتيار الكهربى . .

وفى الشوارع تفرجت على العمارات العالية جدا . . فهذه العمارة كانت الشقة فيها بمئات الجنيهات أصبحت الآن بمئات الألوف . . وهذه العمارة تقف على أرض ثمنها عشرات الملايين . . ومن الكلمات التى تردد على الألسنة هنا كثيرا «المليون والألف مليون» . . وكثيرون فى السعودية عندهم الشجاعة فى ترديد مثل هذه الكلمات دون حرج أو ادعاء . .

(وقد شعرت بالدوخة كثيرا فى السعودية . وقد شخصت مرضى منذ أيام على أنه التهاب المصاريف والمعدة وشدة الضوء على العينين وقلة النوم . . ولما عدت إلى القاهرة سألت الطبيب فقال : عندك تلبك فى الأرقام . . أى انحشرت الملايين فى أذنى فأحدثت خللا فى الأذن الوسطى . . ومن هنا كانت الدوخة!) .

ثم جاء الملك خالد فأعطى للناس إجازة يوما . . ثم ثانيا وثالثا . . ورفعت الأجور إلى ٥٠٪ ولمعلوماتنا جميعا فإن الجندى الذى يلحق بالعمل بعد تدريب شهر أو شهرين يتقاضى مرتبا شهريا قدره ٤٠٠ جنيه ـ أربعة وأمامها صفران ـ هذا الجندى يقف فى بداية السلم الوظيفى وترتيبه الوظيفى رقم ٣٣ . . وأترك لخيالك أن يذهب حيث يشاء عندما ينطلق من الجندى البسيط الذى يمسك عصا ويدق بها العربات الفخمة فى الشوارع إذا خالفت المرور أو توهم أنها فعلت ذلك . إلى المدير والوزير !! .

والفرق بيننا وبين السعوديين واضح جدا ، فهم لا يقدسون الموتى مثلنا ، ولذلك فأحزانهم عابرة وتسليمهم بقضاء الله وقدره حقيقة تغيظ المصريين والكثيرين من العرب الذين ملأوا بلادهم بأضرحة الأولياء . .

ومن فضل اللّه تعالى على الإسلام والمسلمين أن أحدا من الخلفاء الراشدين أو الصحابة لم يدفن فى القاهرة . . وإلا لقدسه المصريون وجعلوا زيارته أحد مناسك الحج ـ لأننا نقدس موتانا ـ أستغفر اللّه ! .

* * *

فى مكة تسأل : وأين ولد الرسول عليه السلام ؟ .

فيقول لك أى واحد : هنا .

* أين ؟ .

- فى مكة .

* أعرف . ولكن أين بيته الكريم ؟ .

- واللّه لا أعرف . . أظن أن بيته فى شارع . . .

* تقول «تظن؟» . . وهل الكلام عن رسول اللّه وبيت رسول اللّه مما تصح معه كلمة «تظن» . . أنت لا تعرف أين البيت الذى ولد فيه الرسول . . يانهار أسود . . ألست مسلما ؟ .

- أعوذ باللّه . . بل مسلم . . ولكن يا أخى لا أعرف أين ولد رسول اللّه . . إنه ولد فى مكان ما . . وما قيمة هذا المكان ؟ . .

ولا يقوى مصرى على الاستماع إلى مثل هذه المناقشة . . ولكنهم فى السعودية يناقشونك ويرون أن هذه المناقشة سخيفة جدا . . لأن البيت الذى ولد فيه الرسول ليست له قداسة ، فالقداسة للّه وحده لاشريك له . . أما الرسول فليس إلا بشرا . . كان عظيما وسوف يبقى عظيما . . أما بيته وأما قبره . . فلا يصح أن ينظر أحد إليهما على أنهما مكانان مقدسان ! .

والبيت الذى ولد فيه الرسول ﷺ تشغله مكتبة . . مكتبة عادية إذا ذهبت إليها اندهش الناس لاهتمامك بالبحث عن هذا المكان . . وفى إمكانك أن تندهش على راحتك فلن يجاريك أو يناقشك فى ذلك أحد ! .

وفى المدينة المنورة تزور «قبر الرسول» . . السعوديون يقولون : يارجل عيب . . حرام عليك . . لا تقل «قبر الرسول» قل «مسجد الرسول» . .

وهناك نجد الزوار من إيران ومصر وتركيا وباكستان والملايو وأفريقيا كلهم يمسكون الباب النحاسى لقبر الرسول . . ولكن حراس المسجد يضربون أيديهم بالعصا وهم يقولون : ياناس حرام . . حرام عليكم . . إنه نحاس مثل أى نحاس ! .

ويضيق المصريون لذلك ، ولا يضيق السعوديون لتحريم ذلك على الناس . .

وفى مسجد «قباء» أول مسجد أقامه الرسول . . نجد أن فى المسجد قطعتين من البلاط الأبيض . . فوقهما بركت ناقة رسول اللّه ، فأقيم المسجد . . وهم يقولون ذلك سرا أو تحرجا . . فهم لا يريدون أن ينشغل الناس بهذا الرمز المادى ، عن المعنى الذى أقيم من أجله المسجد . .

وقد قال مرة لى الأمير فواز أمير المدينة إنه روى للرئيس السادات : أن الأخ أنيس منصور قد جاء إلى غار حراء يتعبد فيه . . ونحن نحرم ذلك ، ونرى أن التعبد فى غار حراء كما كان يفعل الرسول عليه السلام حرام ؟ .

فقال له الرئيس السادات : ضعه فى السجن ! .

ولكن قلت للأمير فواز : إننى صعدت جبل النور . . وظللت أتسلق الصخور المدببة . . وكنت أضع شبشبا من الجلد فى قدمى . . وكنت أتزحلق وأتخبط . . ثم أتعرض للهواء البارد ينفذ من تحت الجلباب الأبيض فيوجع جنبى . . ولما بلغت غار حراء وجدته مسدوداً بالطوب الأحمر . . حتى لا يذهب إليه الحجاج وينشغلوا عن الدين بعبادة المكان . . أو بعبادة الأحجار ! .

ومنذ عدة سنوات طلبت من الشيخ إبراهيم العياشى أحد علماء المدينة المنورة أن نخرج فى سيارة وأن ندخل المدينة المنورة من نفس الطريق الذى دخل منه الرسول عليه السلام عندما جاء مهاجرا من مكة . . وخرجنا فى سيارة وراح يشير : هنا كان يسكن اليهود . . وهنا كانت قبيلة كذا . . وهنا وقفت بنات بنى النجار يستقبلن الرسول يقلن :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا للّه داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة   مرحباً يا خير داع

وكنت أنظر إلى يد الشيخ إبراهيم العياشى فلا أجد إلا بيوتا وإلا نخيلا . . وإلا لوريات تنقل زجاجات الكوكا . .

إنها نفس القضية : لا تقديس لمكان . . ولا تقديس لشخص . .

وإنما القداسة للهّ ! .

نورت المدينة ؟!

أحب المدن إلى أى إنسان فى رحلته الروحية : المدينة المنورة . . إنها هادئة طيبة . . والناس فى غاية الهدوء . . انظر إلى عيونهم وإلى بشرتهم الناعمة المشدودة . . وإلى أصواتهم وهم يتحدثون إليك . . ثم أعط أذنيك لصوت المؤذن . . إنهم أكثر من واحد يؤذنون فى وقت واحد . . والمدينة كلها تتجه إلى مسجد الرسول . . شىء جميل وعجيب . . وفى المسجد تهتز حقا ، فأنت فى حضرة رجل عظيم . . صاحب دعوة . . وصاحب فلسفة . . أعطاه اللّه العلم والحكمة والبلاغة والعظمة ، وتعذب بين أهله وقاتل وأحب ومرض ومات . . خرج من هذه الأرض الجافة الجدبة ، وكان نورا وخضرة وعطرا وخيرا لكل الناس . .

وأهل المدينة أكثر الناس اعتزازاً بمدينتهم ، ومعهم حق . . ففى مدينتهم أعظم خلق اللّه وأروعهم . . وقد هاجر إليهم فاراً من أهله الذين اضطهدوه وعذبوه واعتدوا عليه . .

وكل شخص يلقاك يقول لك : نورت ! .

يقصد أنك نورت المدينة ! .

وتقبل هذه المبالغة الفخمة أو تعتذر عنها . .

وفى إحدى المرات ، أى فى إحدى المجاملات قال لى صديق : واللّه نورت المدينة ! .

قلت : حرام عليك ياشيخ . . وهل يستطيع أى أحد أن يفعل ذلك . . ففى المدينة مسجد الرسول . . وفى المدينة قد أضيئت الشوارع فرحا بعودة الملك . . ثم إن القمر فى السماء ابن ١٦ . . فما هو الضوء الذى يمكن أن يضيفه أحد إلى شىء؟! . وأين هو المكان المظلم الذى أستطيع أن أضىء فيه ما يعادل عود كبريت؟! ولكنهم مجاملون إلى أقصى حد .

* * *

يوم كنا أحجارًا لا ينبت عليها العشب !

هناك بعض الأغانى تعجبنى . وأجد فيها تعبيرا عن حالتى النفسية . . وأحيانا أذهب إلى أبعد من ذلك فأتصور أنها تتحدث عنى . . فإذا وصلت فى أوهامى إلى هذه الدرجة فإننى أشعر بأننى شاب صغير مراهق . وإن كنت لا أذهب إلى أبعد من ذلك . . فعندما غنى عبد الحليم حافظ : راح . . كنت فى الشارع مفصولا من عملى كرئيس لتحرير مجلة «الجيل» ومدرس للفلسفة بكلية الآداب . . فعلا كل شىء راح . . مع أن الذى راح من عبد الحليم كان تمثيلا فى تمثيل . . أما الذى راح منى فحقيقة ! .

كيف راح كل شىء فجأة ؟ . . العمل راح . والأمان راح . والبيت راح وليس أمامى إلا شوارع القاهرة أرتادها فلا أرى شيئا . وإذا حاولت أن أرى ، فلكى أتلفت ورائى لعلى أجد ذلك المخبر الذى يمشى ورائى . . مع أننى لا أملك أى شىء ولا أستطيع أى شىء . . وكل الذى يشغلنى ليلا ونهارا هو كيف أتحايل على أمى فلا تعرف أننى مفصول من عملى . . ففى حياتنا أحداث أليمة . . وذكريات موجعة . . فقد فصل والدى من عمله كثيراً ولأسباب تتعلق بطيبة قلبه ، وسفالة الذين كان يعمل عندهم ومعهم من الباشوات ونظار الزراعة . . ولكن ذكريات الفصل أو ترك العمل . . وأن يصحو الإنسان من النوم ليجد أمه قد ربطت العفش والملابس ووضعت ساعة الحائط تحت أرجلنا لنسافر بها من بلد إلى بلد شىء رهيب لا أستطيع أن أنساه . . واللّه يعلم أننى حاولت ذلك كثيرا . .

كيف فصلت من عملى ؟ ! . .

كل شىء كان مفاجأة . .

بدأت بأن مددت يدى إلى قارئ الكف محمد جعفر . .

مددت يدى . فردّها وكأنها رأس حية رقطاء لدغته . . أو كأنه قرأ فى كفى خطاب استدعاء من المدعى الاشتراكى .

قال لى محمد جعفر : اسمع يا ابنى . . أنت مفصول هذا العام . لن ينتهى هذا العام إلا وأنت بإذن اللّه تعالى فى الشارع . . لا هذا المكتب ولا هذا المبنى .

أما هذا المكتب فقد كان فى غرفة أساتذة قسم الفلسفة بكلية الآداب . . وأما المبنى فهو مبنى أخبار اليوم .

وبالفعل فى يوم الكريسماس استدعانى مدير مكتب كمال رفعت الوزير الشيوعى وكان أيامها مشرفا على أخبار اليوم . وطلب لى على غير العادة فنجانا من الشاى . وتناقشنا فى موضوعات كثيرة . ولابد أن الناس خارج غرفة هذا المدير كانوا يحسدوننى على هذا الشرف العظيم ـ أى أن يستدعينى مدير مكتب الوزير وأن تطول إقامتى فى مكتبه . . وقد نبهنى بعض الزملاء إلى أننى جلست عنده أكثر من خمس دقائق . . ويقسم آخرون أنى أمضيت أكثر من سبع دقائق . وهذا رقم قياسى . فقد كان المألوف فى ذلك الوقت ألا يذهب أحد إلى مكتب المدير . . وإنما يجىء سكرتير المدير فيخبر رئيس السعاة الذى يطلب إلى أحد السعاة استدعاء أى رئيس تحرير إلى مكتب السيد السكرتير ليجلس ساعة وبعد ذلك يعتذر له عن انشغال السيد المدير . . ولكننى جلست أكثر من سبع دقائق . .

وكانت هذه الدقائق كافية لأن يذهب السيد السكرتير ومعه السيد رئيس السعاة إلى مكتبى ويفتشانه ثم يغلقانه بالشمع الأحمر . . وعندما تم لهما ذلك . اتصلا بالسيد المدير وأخبراه بذلك فى اللحظة التى كنت قد فرغت فيها من شرب الشاى لأسمع منه أن أخرج من أخبار اليوم إلى الشارع إلى البيت ولا أعود . . فهذه هى التعليمات . .

أما السبب فهو مقال كتبته بعنوان «حمار الشيخ عبد السلام» بتاريخ سابق على ذلك بأيام . . وعلى مكتب جمال عبد الناصر نفس المقال مع تأشيرة من على صبرى تقول : هذا هو المقال وفى انتظار أوامركم . .

ونفس المقال مع تأشيرة من المخابرات العامة تقول : وفى انتظار أوامركم . .

وكان جمال عبد الناصر فى طريقه إلى الجزائر . . وأنا فى طريقى إلى الشارع . . وظللت أتنقل من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت سنة كاملة ! .

لا أعرف لماذا خرجت « أُخْرجت » . . ودون أن يكون لى أدنى حق فى مرتبى . . ولا شىء فى أذنى إلا أغنية عبد الحليم حافظ : راح . . راح . .

وعندما غنى عبد الحليم حافظ : قارئة الفنجان . . اتصلت به ، الله يرحمه ، وقلت له : ياحليم . . إن هذه الأغنية هى أخرى تذكرنى بالذى مضى ! .

وقال لى : مفقود ياولدى مفقود ! .

وفجأة أصبح من الصعب أن أتعامل مع أى أحد . . ووجدت أن الحل الوحيد هو ألا يرانى أحد وألا أرى أحدا ، فالناس يخافون . إنهم أكثر خوفا منى . . لأن هناك عشرات الأنواع من التهم من الممكن أن تؤدى إلى فصل أى إنسان من عمله . . التآمر على قلب نظام الحكم . . والشيوعية والتجسس . . والتآمر على جمال عبد الناصر .

وكلها كالأمراض المعدية . . تنتقل بمجرد اللمس أو بمجرد التفكير فيها .

ولذلك قررت أن أبعد حتى لا أنقل العدوى إلى أى أحد . . وفى ذلك الوقت سمعت من المرحوم على أمين هذه العبارة : لاتمتحن أحدا الآن ، وإلا فقدت كل الناس ! .

ولم أنس هذا المعنى ، ففى هذا الوقت ما كان يصح أن أحاسب الناس على خوفهم منى وحرصهم على الابتعاد عنى . . فهم معذورون ثم إننى لم أكن على خلاف مع وزير ، وأرجو عطف رئيس الجمهورية . . وإنما على خلاف مع رئيس الدولة . ولا أعرفه ولا أعرف كيف أصل إليه . . فالزحام حوله شديد . . ثم إن هناك مئات من الناس قد أصابهم ما أصابنى ولأسباب مختلفة وكما هى العادة : لا أحد يعرف لماذا خرج ولا متى يعود ! .

وليس من العقل أن ألوم الناس . فلو كنت فى مكان كل الناس ، مافعلت غير الذى فعلوه .

وبسرعة غريبة انسدت الأبواب من تلقاء نفسها .

فأصدقائى فى الإذاعة رفضوا أن يتعاونوا معى ، فقد كنت أكتب القصة ويقرؤها المذيع . . قالوا لى : نأسف .

أى لا داعى لأن أكتب قصة ليقرأها واحد آخر . . على الرغم من أنه لاخوف منى .

طلبت أن أعمل دون أن يعرف أحد اسمى . رفضوا . .

هنا تقدم لى الصديق عبد التواب يوسف مؤلف قصص الأطفال . . وشاركته فى برنامج صغير ، دون أن يكون لى اسم ، وظللت كذلك شهورا . .

ولم يكن لى مكان آوى إليه كل ليلة . . سوى بيت مصطفى أمين . . حيث نلتقى بعلى أمين وعبد الحليم حافظ أو كمال الطويل وكمال الشناوى . وفى هذا الجو ينسى الإنسان ما الذى أصابه . . والذى أصاب مصطفى أمين وعلى أمين . . بعد ذلك . . ولم يكن صعبا أن يمضى أكثر الليل فى ضحك وفى الفرجة على الذين يلعبون الكومى . . ولكن المشكلة كلها كيف يمضى النهار . . فقد كان ثقيلا أليما . وكان أقبح ما فى النهار : أشعة الشمس . . لأنها تجعلنى أرى الناس وهم يحاولون ألا يرونى . .

وكثيرا ما يفعلون ذلك بغباء أو سخافة . . أو يكون تفاديهم لرؤيتى مهينا أكثر من الرؤية نفسها . .

وبصورة أتوماتيكية اعتذرت دور النشر عن عدم قبول أى كتاب من تأليفى أو من ترجمتى . وفى إحدى المرات ذهبت إلى ناشر صديق . فقلت له : عندى كتاب عن «أقصر طريق إلى سعادتك » .

فقال : سخرية من السعادة؟ . .

* قلت : إنه كتاب جاد

قال : جاف؟ . .

* قلت : جاد . . سهل العبارة وفيه شىء من المرح . .

قال : سياسى ؟ .

* قلت : دراسات نفسية وقصص عاطفية تاريخية .

قال : هل يصدق الناس أنك لا تسخر من جمال عبد الناصر ؟ .

* قلت : لا علاقة للكتاب بالسياسة .

قال : وكيف أقنع الناس بذلك . . ثم كيف يصدر لك كتاب الآن ، وأنت متآمر على الحاكم ؟ .

* قلت : إننى لم أتآمر . . وكل ماهناك أننى كتبت مقالا اعتبره الحاكم نوعا من التعريض والسخرية وانتهى هذا بوقوفى أمامك أعرض عليك كتابا من تأليفى ومن تجاربى . .

قال : أنت تعرف أن جمال عبد الناصر لا يرحم . . وأنت لايرضيك أن أمشى

معك فى نفس الطريق وأتسول . . أنا صاحب عيال . . وأنت ولله الحمد ، لا عندك أولاد ولا عندك زوجة . . خفيف . اذهب اللّه يحنن عليك . . أنت من سكة وأنا من سكة . .

وفكرت فى الهجرة من مصر نهائيا .

وذهبت إلى المرحوم على أمين . ومنعنى بعنف أن أفكر فى شىء من ذلك . وأنه يجب أن أصبر . وأن جمال عبد الناصر لن يعيش إلى الأبد . . وأن هذا الذى حدث لى هو شرف عظيم وأن هذا أقصى ما يبلغه أى كاتب . .

وشجعنى بعض الأصدقاء فى البلاد العربية على السفر إلى غير رجعة . . وكانت أمي مريضة ثم إننى بدأت أن أعتاد على هذا الذى أعمله ، أو الذى لا أعمله . . وأحسست أننى نزيل فى أوسع سجن فى الدنيا : الشوارع . . والمطاعم وبيت مصطفى أمين . . والنهار الثقيل والليل القصير . . والنوم المتقطع وأوجاع المصران . . وبكاء أمى ومنتجات قها . . وأغنية عبد الحليم . . ضاع . . تاه داخ . .

وعدت إلى عملى ، أكثر قرفا وأكثر خوفا . . ولكن أكثر شجاعة . . أو أكثر بلادة . . فما الذى حدث لى . . لا شىء غير الخوف الذى اعتدت عليه . وغير الضياع الذى ألفته . . لقد كنت قلقا قبل ذلك لأسباب عقلية ، فأصبحت قلقا لأسباب عقلية وعملية . . وفى نفس الوقت أدركت أقصى ما يمكن أن يصيبنى إذا كتبت كلاما رمزيا له ألف معنى . . ولم يكن نقدا مباشرا لايحاسب عليه القانون .

ومن شدة الخوف بدأت أتعثر فى الأخطاء . . أتوهم الأخطاء وأتعثر فيها . .

وأصبحت مشكلتى ككاتب ليس الذى أفكر فى كتابته ، وإنما الذى لا يصح أن أكتبه . . أو لا يصح أن أفكر فى كتابته أو عدم كتابته . . لقد تولد فى داخلى رقيب صحفى ورقيب على المصنفات الأدبية والفنية وسجان وسفاح . . فلا أكاد أمسك القلم حتى يقف هذا الصف من الجلادين والرقباء أمامى . . واحد يعطى القلم والثانى يمسك الحبر والثالث يمسك الورقة والرابع يفتح النور والخامس يوقظنى لعلى أكتب ويمضى فى هزى لعلى أصحو . . وفى كل مرة يجدنى جثة هامدة على الورق . . فيطفئ النور ويأخذ الحبر ويسحب القلم ويتلاشون جميعا من أمامى . . أو أتلاشى أمامهم جميعا . .

وفى لحظة التلاشى هذا يصبح النوم والأمن والأمان والإيمان شيئا عزيزا ! .

ومن الأشياء التى حيرتنى صغيرا هذا الجو الكئيب فى بيتنا . . لا يوجد ضحك ولا فرح وكنت أسمع أن والدى رحمه الله كان مرحا ولطيفا . كان شاعرا ينظم الشعر الرقيق ، ويحفظه ويرويه ويطلب إليه الناس ذلك وكان يدعونى عند صلاة الفجر إلى أن أجلس معه . . لأشرب الشاى بالنعناع وأصلى وراءه دون أن أدرى ما الذى أفعله . ولكن والدى كان يحبنى ولا يحب أن يكون وحده . . وقد حفظت الهمزية النبوية والبردة للبوصيرى وأنا طفل صغير جدا قبل أن أدخل كتاب القرية . . وفى نفس الوقت لا أفهم مما يقوله أبى شيئاً . . وحفظت القرآن الكريم فى سنتين . وأنا لا أفهم كلمة واحدة منه . . ولكن أبى ليس كذلك فى البيت . لماذا؟ هل لأن أمى شديدة الحساسية . . هل لأن أمى قد عارضت أسرتها كلها فتزوجت أبى الذى يكبرها بعشرين عاما . هل لأنه كان من الأفضل لها أن تبقى بين أهلها وتتزوج أحد أقاربها من أصحاب الأراضى بدلا من أن تتزوج واحدا من الأفندية يتنقل بها وبأولادها كل يوم فى بلد . لقد كانت أسرتنا الصغيرة المثل الإغريقى الذى يقول : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب ! .

فنحن نتحرك كل يوم فى بلد . . لماذا؟ لأن أبى يغير عمله من شهر إلى شهر . لماذا؟ لأنه عمل حر . . أى لأنه ليس موظفا فى الحكومة . فلا شىء يرفضه إلا نزوات السيد . . أى صاحب الإقطاع . . فقد عمل أبى مأمورا لتفاتيش عدلى باشا يكن وغيره . . وكان هذا العمل حرا . . أى لا يخضع للوائح أو قوانين وكان أبى لا يطيق أن يقيده عمل . . أو يجرحه أحد بكلمة . . وكان أبى لا يتصور أنه فى الإمكان أن يدوس الإنسان على كرامته من أجل شىء . . ولم يكن أبى مرنا . . ولا سياسيا . . وإنما هو رجل فنان ينظم القصيدة فى أى إنسان ويدفع الثمن . . ويكون الثمن أن يلم العفش ويلم أطفاله فى سيارة من بلد إلى بلد . .

هذا التنقل قد أورثنا القلق .

هذا القلق قد أورثنا الخوف .

هذا الخوف قد أورثنا اليأس . .

هذا اليأس قد جعل البيت كئيبا . والنهار ليلا . والليل خوفا . والطعام مرا .

وجعل أبى صغيرا عاجزا . وجعلنا عبئا ثقيلا على أمنا .

يكفى أننا لسنا ككل خلق اللّه : بيتا مستقرا ، وعلاقات طويلة وصداقات متينة . . إننا شجرة لا نكاد نزرعها حتى نقلعها ، ولا نكاد نقلعها حتى نزرعها . .

وتذبل الشجرة حتى الموت . . وكذلك كانت كل علاقاتنا أوراقا صفراء على شجرة ذابلة . .

هذه المعانى التى احتشدت كلها فى رأسى وفى عينى وجعلتنى عاجزا عن أن أقول لأمى : إننى مفصول من عملى . . تماما كما كان يحدث لأبى . . وإننى قد ورثت عن أبى أشياء كثيرة من بينها أن أجد نفسى كل يوم على باب . .

لقد ورثت عن أبى الزهد فى هذه الدنيا . . فلا شىء يغرينى ولا شىء يخيفنى ولا يهمنى كثيرا أو قليلا أن أكون مالكا لبيت أو أرض أو أى شىء . . لقد عاش أبى لا يملك ومات لا يملك . .

ولكنه لم يكن فى استطاعته أن يملك . . فالحجر الذى يتحرك لا يملك عشبا واحدا . . ولكى يكون عشباً ، لابد أن يستقر الحجر على الأرض وأن يبلله الماء . وأن تسقط عليه بعض البذور . . وتنبت البذور . . وتورق وتكبر ـ كل ذلك إذا استقر الحجر . .

ولكن أحجارنا لم تستقر . .

وفتحت عينى وأغمضتهما على مرض أبى وبكاء أمى . . وراء الباب تنتظر عودة أبى فلا يعود . . تبكى مرة أخرى لأنها لا تستطيع أن تعود إلى بيت أبيها . فقد تحدت الجميع وخرجت فلا تعود ! .

ولما عدت إلى عملى فى أخبار اليوم رئيسا لتحرير الجيل ، قررت أن أبحث عن طريقة لكى أترك مصر . . وواجهتنى مشكلة أن أمى على خلاف مع أهلها . . والخلاف أنها ورثت ثلاثة أفدنة أو ستة . . واللّه لا أعرف حتى الآن فلا يهمنى أن أملك . . عاشت أمى وماتت دون أن تحصل عليها . . ولابد أن تنفق على هذه القضية ضد إخوتها حتى الموت . . ومات أكثر من محام . . ومات القاضى ومات المستأجرون . . وماتت له أخوات . . وأمى مصرة على أن تكسب هذه القضية ويوم أن ماتت أمى حكمت لها المحكمة بنصيبها من الأرض . وفى الصفحة التى نشر فيها خبر الوفاة نشر قرار الرئيس السادات بأن أكون رئيسا لتحرير آخر ساعة وعضوا لمجلس إدارة أخبار اليوم ، وتلاقت برقيات التعزية والتهنئة معا . . التهنئة بمنصبى الجديد . . والتهنئة بقرار المحكمة وكانت نكتة لم يضحك لها أحد . .

* * *

وتغيرت الدنيا . . ولم يعد الخوف هو الهواء الذى يتنفسه كل الناس . . ولم يعد الأرق هو الطعام الذى يأكله كل صاحب قلم . .

إن أقلاما كثيرة تهاجم مصر وحاكم مصر ، ويعود أصحابها إلى بيوتهم يجدون كل شيء كما تركوه فى الصباح . . البيت والزوجة والأولاد ، والمرتب فى نهاية الشهر . . ولا داعى لأن يتلفت الواحد منهم وراءه ليجد أن مخبرا يتابعه . . يعد عليه خطواته وتحياته وسلاماته . .

أذكر أننى كنت على موعد . وبعد أن تركت سيارتى فى الجراج . . عدت لآخذها من جديد . . ولكنى أكره قيادة السيارات لأننى أسرع كثيرا وأصطدم بالأشياء وبأعمدة النور وبالناس . . فقررت أن أستوقف أحد التاكسيات . ووقف التاكسى ومددت يدى أفتح الباب . . ودخلت لأصطدم بواحد ركب من الناحية الأخرى وجلس واندهشت وسألته فوجدته يصرخ فى وجهى : ياسعادة البيه قطعت نفسى . . أنا صاحب عيال يا بيه ! .

إنه المخبر قد تعب من متابعتى!

لقد سمعت الرئيس السادات يقول :أعجبنى على بن أبى طالب عندما قال : لو كان الفقر رجلا لقتلته . أما أنا فأقول : لو كان الخوف رجلا لقتلته .

إنه أفدح من الجوع . . إن الإنسان يجوع باختياره فيصوم .

ولكن الخوف . . هذا المتسلل العقلى . . هذا الزلزال الوجدانى . . هذا السم يسرى فى الأيدى فلا تكتب ، وفى العقل فلا يفكر ، وفى القلب فلا يدق إلا مسامير فى نعش الحياة . إن الخوف ليس رجلا إنه ملايين الرجال . . فالخائف يتوهم أن الذين يطاردونه بالألوف ، والذين يحاكمونه بمئات الألوف والذين يريدون القضاء عليه بالملايين . . فلو كان الخوف رجلا واحدا لقاتلته حتى قتلته . . ولكن الخوف بعدد خلايانا ، بعدد كريات الدم البيضاء والحمراء . . ملايين من الحشرات اللاسعة السامة ! .

فالخوف هو النهار يأكل الليل . . هو الأرق يلتهم النوم . . هو الشك يمتص الإيمان . . هو الكريات البيضاء تمحو الكريات الحمراء . . هو الموت يزحف على الحياة وأى أمل فى النجاة ! .

* * *

بسبب هذا المقال . .
فصلني جمال عبد الناصر
وحرمني من التأليف والخروج !

حدث هذا فى القاهرة من ٧٠٠ سنة . . علم أهل القرية أن الشيخ عبد السلام قد أهين . فقرر أن يترك القاهرة .

وأن الخلاف بينه وبين السلطان على سيادة القانون .

القانون مع الشيخ . . والسيف مع السلطان .

القانون يحميه إيمان الشيخ عبد السلام ، والظلم مع السلطان يحميه السيف . . ويحميه ألوف المماليك الطغاة الظالمين . .

وخاف الناس وأشفقوا علي الشيخ ، وراحوا يمسكون بالشيخ عبد السلام . . ويشيرون إلى أولاده . . ويشير هو إلى السماء . . يشيرون إلى صمته ، ويشير هو إلى الأرض التى هى نهاية كل حى . .

يشيرون إلى السرير . . وهو يشير إلى حماره الذى وقف بالباب ينتظر التحرك إلى الشام . .

قالوا له : الصبر ياشيخ ! .

* قال : لاصبر على ظالم ! .

قالوا له : الحلم ياشيخ ! .

* قال : لا حلم مع جاهل ! .

قالوا له : السلطان يحب .

* قال : بل يحب ضعفى أمام القانون ! .

قالوا له : لا حياة للمسلمين بعدك ؟ .

● بسبب هذا المقال فصلنى الرئيس جمال عبد الناصر ١٦ شهراً من عملى . .

* قال : الإسلام له رب يحميه ! .

قالوا له : السلطان يقتلك .

* قال : ليس أروع من الموت فى سبيل اللّه ! .

قالوا له : إرضاء السلطان سهل . .

* قال : إرضاء السلطان إغضاب للّه .

قالوا له : يكفى تقبيل يديه ، وبعد ذلك كل شىء يهون .

* قال : بل كان شىء يهون إلا هذا ! .

قالوا له : ألا تقبل يدى ابنك ؟ .

قال : فعلت ذلك كثيرا . .

قالوا له : تصور أن يد السلطان هى يد ابنك فقبلها من أجل المسلمين . .

* قال : لو ان السلطان لايدرى ما أفعل ، لقبلت يده ألف مرة . . ولو كان لايدرى ، فأنا أدرى ، وأعرف أن هذا هوان . . اتركونى ! .

وركب حماره واتجه به إلى الشام . .

إنه فى هذه اللحظة كان يشبه الفتى الزنجى الكسيح فى الأوبرا الأمريكية «بورجى» عندما اتجه إلى نيويورك على ظهر مقعد له عجلات وكانت تجره معزة . .

إن بورجى هذا اتجه إلى نيويورك يبحث عن محبوبته التى خطفها أحد البلطجية . . ومن ورائه أهل المدينة يرثون لحاله ، لأنه لا يعرف أن أمامه خمسة آلاف ميل لكى يصل إلى محبوبته ! .

ومن وراء الشيخ عز الدين بن عبد السلام خرج سكان القاهرة . فلا حياة لهم بعد هذا القاضى العادل الذى يواجه ظلم السلطان والمماليك .

ويومها قال أحد رجال الحاشية للسلطان : إذا خرج هذا الرجل من مصر سقط عرشك ! .

وخرج السلطان ليرى ماذا فعل الشيخ عبد السلام . فوجد عددا كبيراً من الناس يمشون وراءه يبكون . . كلهم من الفقراء والأغنياء . .

وأرسل له السلطان رجال الحاشية ولكن الشيخ أصر على السفر إلى الشام .

وكان الشيخ عبد السلام يتحدث إلى الناس وهو راكب حماره .

وكان يقول : إننى آخذ معى حمارى هذا بالنيابة عن بقية الحمير التى تركتها ورائى فى مصر ! . .

* * *

وأخيرا جاء السلطان وطلب من الشيخ أن يعود .

* واعتدل الشيخ فى جلسته فوق الحمار وقال : ومطالبى ؟ .

قال له السلطان : أحققها لك . فأنت الشريعة ياشيخ عبد السلام . .

قال الشيخ : بل حارسها يا أيها الإنسان ! .

وكان الشيخ عبد السلام طرازا غريبا من رجال الدين . .

كان يؤمن بالمساواة بين الناس جميعا .

لافرق بين سلطان وبين أى إنسان . . لافرق بين المماليك والتجار . .

وكان ينادى المملوك بقوله : يا . . أى شىء يا أى حاجة . .

وكان ينادى العلماء بقوله : ياطالب . . يا إمام ! .

وعندما رجع الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضى قضاة مصر ، التف الناس حوله يشكون من ظلم المماليك ومن حماية السلطان لهم وقرر الشيخ عبد السلام أن ينفذ تعاليم الشريعة الإسلامية . ويطبق سيادة القانون على الجميع . .

فالشريعة الإسلامية تنص على : أن المملوك لايحق له البيع ولا الشراء ولا الزواج ولا الطلاق لأن المملوك بلا إرادة ولا عقل . . وليس حرا . . أى أنه لا شىء ! .

ولكى يتحول المملوك إلى «شىء» يجب أن يباع فى مزاد علنى ، والذى يشترى هذا المملوك له وحده الحق فى أن يطلق سراحه . . أى فى أن ينعم عليه بنعمة الإنسان الحر فإذا صار حرا أصبحت له حقوق جميع المواطنين الأحرار . .

ومعنى ذلك أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام يرى أن الأمراء المماليك يجب أن يباعوا كالبهائم فى السوق . . قبل أن تكون لهم هذه السلطة على المصريين الأحرار .

وهذا رأى الشريعة . .

فالشيخ عبد السلام قد أفتى وأعلن كلمة الشريعة ثم جلس فى بيته . .

وضجت القاهرة بالدهشة والخوف وانزعج السلطان .

وذهب المماليك إلى مولاهم السلطان يطلبون إليه أن يمسح هذا العار .

وثار السلطان ، عندما علم أن القاهرة كلها تنتظر هذا اليوم العظيم . . وأن الشيخ عبد السلام متمسك برأيه . . وإلا فالحمار بالباب والطريق مفتوح إلى الشام ! . وأصبح حمار الشيخ عبد السلام أشهر حمار فى القاهرة وأحب الحيوانات إلى الأمراء . فلا يكاد الواحد منهم يمر أمام بيت الشيخ عبد السلام حتى ينزل من فوق حصانه ويتفرج على الحمار وفى بعض الأحيان يقبله .

وكان الشيخ عبد السلام يسمح لهذه الأفواه البيضاء التى قبلت الحمار أن تقبل يده وحجته فى ذلك :

* أن حمارى هذا أفضل من المماليك . . ثم إن قبلات المماليك لا تنقض الوضوء .

وكان يقولها جادا . . فالشيخ عبد السلام لا يعرف المزاح .

وعندما طالب ببيع الأمراء ، لم يكن يدرك هذه النكتة التاريخية . . ولم يكن يتصور أن هذا شىء جديد فى التاريخ . . لم يكن يدرى أن هذه العبارة التى قالها فى ثانية ستصبح مسرحية لتوفيق الحكيم بعنوان «السلطان الحائر» بعد سبعة قرون . .

ولكن الشيخ عبد السلام كان بسيطا وكان جادا جافا .

وحاول أحد الأمراء أن يقتل الشيخ عبد السلام .

ثم ذهب إليه السلطان بنفسه . . وفى يده سيف . . وأمام عدد كبير من الخدم ، دق باب الشيخ برجله . . ثم بسيفه . . وكان ابن الشيخ هو الذى فتح الباب .

قال له السلطان : قل لوالدك أن يعدل عن رأيه وإلا قتلته ! .

وظهر الشيخ عبد السلام . . ونظر الشيخ إلى السلطان كما تنظر الأفعى إلى العصفورة الصغيرة فتسقط العصفورة من شدة الفزع . . وسقط السيف من يد السلطان . . وسقط السلطان أيضا . ولكن الشيخ عبد السلام أصر على بيع المماليك .

ولم يجد الأمراء مفرا من الشيخ أو من الشريعة . .

وأعلن الشيخ عبد السلام فى القاهرة أن : الأمراء للبيع . .

ولم يقبل البيع الرمزى . . أى مجرد إهانة هؤلاء المماليك وعرضهم كالماشية أمام المواطنين . وإنما البيع معناه البيع . وبأغلى الأسعار لأن هذه الأموال يجب أن تدخل خزانة المسلمين . .

واتفق كل مملوك مع أحد أصدقائه على أن يشتريه . .

وكان الشيخ عبد السلام يطلب ثمنا غاليا فى كل مملوك . .

وبنفس الروح الجادة التى لا تفهم الهزار فى الحق . . باع الشيخ عبد السلام حماره فى نفس السوق . . فلا فرق بين الحمير والأمير . . «كلها» أو «كلهم» حيوانات مادامت بلا عقل ولا عدل ولا حرية . .

* باع حماره لأنه قرر البقاء فى مصر ، بعد أن تحررت من العبيد الذين يحكمون الأحرار ! .

وطويت صفحة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ولكن الشيخ نفسه يطل برأسه وبروحه فى ساعات الأزمات فى التاريخ . .

ولا أدعى أننى أراه الآن وإن كنت أتمنى أن أراه . . وإذا ظهر فسوف يجد له ألوف التابعين . ولكن من المؤكد أن حماره سوف يجد أكثر من ثلاثين مليونا . .

* مدد ياشيخ عبد السلام مدد !! .

* * *

كلام مليان في الفضاء !

مع عالم الفضاء المصرى فاروق الباز تحس أنك تجلس مع أحد الحشاشين الذين لا تزال عندهم قدرة عجيبة على التفكير المنطقى وذكر الأرقام وموضع كل شىء على سطح القمر والمريخ .

فقديما كان الناس يرون أن القيامة سوف تقوم ولن تقعد إذا طار الحديد . وطار الحديد ودار حول الأرض وحول القمر ونزل فوق القمر وعاد من القمر ، ونزل على المريخ ولايزال يعمل ، ولم نتمكن من استعادته بعد . .

أما الاختراع الجديد فهو سفن مصنوعة من الطين الذى يتحمل درجات الحرارة التى تصل إلى ٥٠٠٠ مئوية فيتآكل ثم نعيده إلى الأرض ليمكن استخدامه مرة أخرى . فالتجربة الجديدة هى إطلاق «المكوك الفضائى» أو «المتنقل الفضائى» كما يسميه فاروق الباز وهذا «المتنقل الفضائى» سوف يضعونه على ظهر طائرة نفاثة ترتفع به إلى أعلى . . ثم ينطلق من فوقها ليدور حول الأرض يومين أو ثلاثة ثم يعيدونه إلى الأرض ليستخدموه مرة أخرى . .

وسوف يكون د . فاروق الباز هو أول عالم عربى يركب هذا المتنقل الفضائى سنة ١٩٨٢ وهو ليس في حاجة إلى أن يقوم بالتجارب العنيفة التى يجرونها على رواد الفضاء الآخرين من وضعه تحت ضغوط عالية وإلقائه فى الماء البارد والساخن . . وتركه عاريا تماما تحت أشعة الشمس وفى مواجهة أجهزة التكييف ليصبح قويا على مواجهة كل الظروف الطارئة فى سفن الفضاء ، لأن السفينة الجديدة ، سوف تكون مريحة كالطائرة تماما . . وكل ما سوف يفعله هو ربط حزام المقعد والامتناع عن التدخين ! .

أما المعلومات التى تتلقاها سفن الفضاء عن العالم الخارجى فهى دقيقة جدا ، ولكن تفسيرها لا يزال شيئا صعبا ، مثلا ذلك الصندوق الذى لايزيد حجمه على حجم علب الأحذية وثمنه خمسون مليونا من الدولارات ويضم ما يعادل جميع

معامل البحث العلمى فى مصر ، فهو يرسل المعلومات الكثيرة وطول الوقت . ولكن كل هذه المعلومات مشكلة : فليس لها أى تفسير علمى واضح وقد اختلف فيها العلماء تماما . بل إن بعض المعلومات هكذا : التراب يرتفع بلا سبب ويظل عالقا فى الهواء بلا سبب . . الجليد درجة حرارته مائة مئوية . . كيف يكون جليدا يغلى . . الشمس إذا طلعت انخفضت درجة حرارة الأحجار وذابت المعادن العالقة بها . . الرياح تهب بصورة متقطعة . . وفى كل مرة تهب الرياح تكون على شكل موجات : واحدة باردة جدا والموجة الثانية حارة جدا . . هناك ظلال كثيفة رغم عدم وجود أية سحب . . ورغم عدم وجود أية كائنات أخرى . . السماء لونها بنفسجى . . ثم يتغير اللون البنفسجى فجأة فيصبح أحمر دمويا رغم أن الشمس لا تزال فى موضعها من المريخ .

ومعنى ذلك : أننا لا نجد معنى واحدا لكل هذا الذى يحدث على المريخ . .

ومعنى ذلك : أن هناك قوانين أخرى لا نعرفها لأن ما لدينا من قوانين قد استخرجناها من مشاهدة ما يجرى على الأرض . . ولكن أرضنا تختلف عن المريخ . . ولذلك فعلومنا ونظرياتنا ليس لها أى معنى هناك . . ولابد أن النظريات أو القواعد التى تسير عليها الطبيعة الجامدة والطبيعة الحية فى المريخ تختلف أشد الاختلاف عنا . .

أو بعبارة أخرى نحن أمام كوكب يتكلم لغة أخرى لا نعرفها ولا نفهمها . . تماما كما تجلس أنت مع إنسان صينى . . لا أنت تعرف لغته ولا هو يعرف لغتك . . وإن كنت إنسانا مثله تماما ، والعلماء الأمريكان فى دوخة وفى حيرة لا أول لها ولا آخر . . أو . . لها أول فى المريخ ولها آخر على الأرض .

وأحدث ما استراح إليه العلماء هو : أننا أمام لغز . وأننا كنا مستريحين قبل أن نرسل هذه المعامل الفضائية إلى المريخ . . فلابد أن هناك نوعا عجيبا من الحياة يختلف عن الحياة على الأرض ، ونوعا من الكائنات لا يشبه الكائنات الأرضية وهذا طبيعى فكل بيئة تخرج كائنات أخرى تعيش على الأرض وفى الهواء . . فكذلك هناك أنواع من الحياة نجهلها تماما ، تعيش على كوكب المريخ . ولا نعرفها ولا ندرى كيف نعرفها . .

أو بعبارة أبسط نقول : إن جدول الضرب عندما يقول ٣X٣=٩ وفى المريخ يقول ٣X٣=٧ أو لا توجد معادلة اسمها ٣X٣= . . . وإنما توجد مثلا ٣=٧ ، ٣X٧=٣ . . شىء غريب عجيب ! .

سؤال للدكتور فاروق الباز والإجابة والمعلومات التالية كلها من عنده هو . . وعلى مسئوليتنا نحن الاثنين . . إذن فهناك ما يبرر الكلام عن الأطباق الطائرة التى تجىء من كواكب أخرى . . أو من حضارات أخرى . .

لماذا تجىء؟ لا نعرف .

ما هى؟ لا نعرف . .

هل هى أسلحة سرية يطلقها الأمريكان على الروس ، والروس على الأمريكان؟ لا نعرف . .

إن الدوسيه الضخم الفخم الذى سجل فيه رواد السفن أبولو ٩ وجيمنى ٧ وأبولو ١٦ وأبولو ١٧ وأبولو ــ سيوز ، إذا نشر فسوف يقول الناس : إن الأمريكان جماعة من الحشاشين وإن علماء الفضاء جماعة من المساطيل . . وإن هذه الرحلات من أولها لآخرها ليست إلا تخريفا لا علاقة له بالعلم . . وإن هناك مؤامرة مجنونة شاركت فيها الصحف الأمريكية ومحطات التليفزيون والمتابعة الأرضية . .

فقد رأى رواد الفضاء أشياء غريبة فى الفضاء الخارجى . وحار العلماء فى تفسيرها . .

فأحد الرواد اتصل بالمحطات الأرضية يطلب إليهم أن يرصدوا هذا الجسم الأسطوانى الذى يقترب من سفينته .

فطلبوا إليه أن يصفه بدقة فقال : أسطوانة ناعمة طويلة . . ملاصقة للسفينة لونها رمادى لامع . . ليس لها نوافذ . . أحيانا أجدها أمامى . . وأحيانا تحتى . . وأحيانا فوقى . . وكلما اقتربت أحدثت ارتباكا فى الأجهزة . .

وترد عليه محطات المتابعة الأرضية : إننا لا نستطيع أن نسجل ذلك . حاول أن تصورها . .

ولا يكاد يمسك الكاميرا لتصويرها حتى تكون قد اختفت . .

وتحاول المحطات الأرضية متابعتها أو رصد حركتها . ولكنها لا تستطيع . .

رائد فضاء آخر اتصل بمحطات المتابعة الأرضية يقول :

* ما هذا ؟ .

- فيردون عليه : مالك ! .

* كرة بيضاء باهرة ورائى . . ما هذا ؟ .

- لا نراها .

* حاولوا .

- لا نستطيع . . صفها لنا . .

- كرة . . كأنها شمس صغيرة . . تقترب من السفينة . . ولا أستطيع أن أراها بوضوح لأن الضوء المنبعث منها باهر لدرجة أننى عندما وضعت منظارى الأسود أحسست كأن ضوءها قد اقتلع عينى! . . إننى لم أعد قادرا على الرؤية . .

* ولكننا لا نراها . . حدد موقعها . .

- إنها فوق السفينة إلى الشرق بارتفاع ٣٨ درجة . . إنها الآن بارتفاع ٤٥ درجة . إنها تحت السفينة . . إنها أمامى . .

صفها أكثر . . لا تضطرب . . لا تخف . .

- إنها الآن ضوء هادئ مستدير . . ليس له إشعاع . . أميل إلى اللون الأصفر الأخضر . . إنها فى حجم السيارة الصغيرة . .

حاول أن تلتقط لها صورة بسرعة . .

وعندما حاول أن يلتقط لها صورة اختفت تماما ! .

رائد من رواد أبولو ١٧ اتصل بمحطات المتابعة الأرضية يقول : ورائى أجسام كثيرة لامعة . تشبه الأسماك فى حوض من الزجاج . . لا أعرف ما هذا . . هل فى السفينة أى خلل .

قالوا له : السفينة جيدة . . وكل أجهزتها تعمل بمنتهى الدقة . . حاول أن ترى أوضح . .

- إن السفينة تشبه الحوت . . وهذه الأجسام تشبه القراميط التى تتابع الحوت . . إن عددها يفوق العشرين أو الثلاثين . . وكلها تعلو وتهبط وتقترب . . إنها الآن تحيط بالسفينة من كل الاتجاهات . . ولكنى لا أستطيع أن أحدد شكلها . . فهى لامعة فقط . . ولونها أقرب إلى الرمادى اللامع . . وليست لها محركات . . أو لعلها تدور حول نفسها بسرعة هائلة . . لا أعرف بالضبط . . حاولوا رصدها . .

ليس لها أثر على شاشة الرادار هنا . . إننا لا نعرف كيف نرصدها . . اطلب من زميلك أن يراها أيضا . . ويقترب الزميل ليراها وليكرر نفس الكلام . .

ولكن شاشات الرادار فى محطات المتابعة الأرضية لا تسجل شيئا . .

أما الذى يحدث على سطح القمر فهو شيء عجيب . . فكل سفن الفضاء التى دارت حول القمر رأت شيئا واحدا ، على الجانب المظلم من القمر . .

فعلى هذا الجانب وجدوا برقا هائلا . وحددوا مكانه . ولكن محطات المتابعة لم تعرف لذلك سببا . فلا يمكن أن يكون برقا ، لأن البرق يجيء من الشحنات الكهربائية الموجودة فى السحب حول الأرض . . والقمر ليست له سحب لأنه لا يوجد ماء أو بخار ماء . .

ولكن ظاهرة البرق أو ظاهرة الضوء الباهر الهائل قد سجلها جميع رواد الفضاء وفى أماكن متقاربة على الجانب المظلم من القمر .

أما أجهزة رصد الزلازل على سطح القمر فلم تسجل أى اهتزاز من أى نوع . .

وفى إحدى المرات قال أحد رواد الفضاء : إن ظاهرة البرق هذه تشبه تماما «انفجاراً ضوئيا» ـ إذا صح هذا التعبير . . فقد أضاء الجانب الآخر من القمر كله مرة واحدة ولوقت قصير . . وفى إحدى المرات تكرر هذا الضوء الباهر وبصورة أقوى وأعنف حتى إن رائد الفضاء ظل عاجزا عن الرؤية لبعض الوقت . وقد شكا ذلك لمحطات المتابعة الأرضية فنصحوه أن يضع بعض القطرة فى عينيه لبعض الوقت . . ثم عاد فأعلن أنه لا يزال عاجزا عن الرؤية . . وطلب إليهم أن يتولوا هم قيادة السفينة واستدعاء زميله الذى يمشى على سطح القمر . .

وهنا فى القاهرة جلست مع د . فاروق الباز ورواد سفينة أبولو ـ سيوز فى فندق مريديان وسمعت من أحد الرواد أنه رأى شيئا عجيبا ، فقد كان يقوم برحلة تجريبية بإحدى الطائرات وعلى ارتفاعات شاهقة وقرر الهبوط فى أحد المطارات العسكرية . فاتصل ببرج المراقبة وقال إنه لا يستطيع أن يهبط بسهولة لأن إحدى الطائرات تلف حوله . وأنها نوع من الطائرات لم يره قبل ذلك . . وسأل : هل يقوم أحد هنا بتجارب على سلاح سرى .

* فقالوا : لا . .

قال : أرجو أن تتأكدوا من ذلك . . فهناك طائرة غريبة الشكل تطاردنى . .

وتسبقنى . . وتعلو طائرتى وتعترضها . . ولا أعرف كيف أتصل بهذه الطائرة . .

* فقالوا له : ولكننا لا نرى على شاشة الرادار شيئا من ذلك . .

قالوا : تأكدوا . . إننى أراها الآن . .

* قالوا : ليست لدينا أية معلومات .

قال : اسألوا .

* قالوا : سألنا . . لا توجد أية تجارب من أى نوع فى هذه المنطقة هل تستطيع أن تصفها لنا ؟ . .

قال : طيارة بلا محركات نفاثة . . وبلا أجنحة وبلا ذيل . . إنها أسطوانية . . وتستطيع أن تعلو وتهبط وتتوقف . . وتدور وتتشقلب بسرعة هائلة وبسهولة غريبة . . إننى أراها بوضوح شديد . . وأنا لا أستطيع أن أتحكم فى طائرتى . . فكل المؤشرات التى أمامى قد ارتبكت . . والمؤشرات كلها تتذبذب والطائرة أيضا . .

* قالوا : شىء غريب . . لا معلومات لدينا . .

وبعد دقائق نزل رائد الفضاء الأمريكى ليروى القصة بالتفصيل لعدد من الخبراء . . وهم عاجزون عن تصديقه . . ولكنهم فى نفس الوقت يستبعدون أن يكون هذا من خياله . . وخصوصا بعد أن لاحظوا أن المؤشرات لا تزال تتحرك يمينا وشمالا رغم أن الطائرة قد استقرت على الأرض وأن جميع التوصيلات الكهربية والإلكترونية قد فصلت تماما . . بل إنهم لاحظوا وجود بقعة غريبة على جسم الطائرة من الخارج ؟ ! .

* * *

قلت للدكتور فاروق الباز : أنا أصدرت كتابين هما : الذين هبطوا من السماء . . ثم . . الذين عادوا إلى السماء . . والكتابان متكاملان ويرويان قصة واحدة . ذهابا إلى السماء وإيابا منها . . عن كائنات غريبة عنا جاءت من كواكب أخرى إلى الأرض ، وتركت آثارها المؤكدة وعادت لأسباب لا نعرفها تماما كما جاءت لأسباب لا نعرفها . . وقال الناس : إننى مسرف فى الخيال . .

وكان رد الدكتور فاروق الباز : ليس هذا خيالاً . . وإنما العلماء حائرون أمام ظواهر كثيرة عجيبة ولكن لا خلاف بينهم على شىء واحد : أن هناك حياة من نوع غريب عنا فى أماكن أخرى من الكون وأن هذه الحياة لها أسلوب مختلف عنا .

ولذلك فلها قواعد ونظريات لا نعرفها . . ونحن نحاول بكل الوسائل المختلفة أن نعرفها . . ومن أجل معرفتها رصدت أمريكا ألوف الملايين . . ولاتزال فى أول طريق طويل عريض مجهول عرضه السماوات والأرض أى كل الكواكب التى تشبه الأرض! فهل استرحت إلى هذه الإجابة .

قلت : لم أسترح وإلا ما ألفت كتابين وأستعد لكتاب ثالث . . وقد عدت من أمريكا وأوروبا ومعى عشرات من الكتب العجيبة عن مغامرات العقل وهو يحاول أن يفك عقد هذه الألغاز . . وهى متعة أن تقرأها وأن تحاول فهمها ثم أن تكتبها إلى الناس وتفتح شهية العقل على آخرها . . فالحياة مملة . والملل له علاج واحد : الفكر الجديد والخيال المنطلق والأمل فى مزيد من المتعة التى تنعش الفكر ، وتجعل للدنيا طعما آخر . . وتنقلك إلى الغد أسرع مما تنقلك إليه الشمس وهى تتحرك بطيئة من الشروق إلى الغروب إلى الشروق . .

ولم ينقذنى من هذه النشوة العقلية عندما أجلس مع الدكتور فاروق الباز إلا ضحكته الطفولية المجلجلة التى تجعل وجهه يشرق وجسمه يهتز وعينيه تلمعان . . وكأنه يسخر من الذى نقول . . أو كأنه واحد من سكان الكواكب الأخرى قد هبط فجأة إلى مكتبى وراح يضحك على عبث الأطفال الذى نسميه سفن فضاء وعلى صغار اللاعبين الذين نسميهم علماء فضاء . . حتى لو كانوا : فاروق الباز! .

* * *

تعالوا نملك
قطعة من أرض مصر !

أكثر أرضنا : صحراء .

وأكثر شعبنا : أميون .

ولابد أن نصلح الأرض البور والعقول البور . لنعلم الأرض كيف تنطق بالتدريج ، وكيف تزهى بالزهر ، وكيف تفرح بالعطر ، وكيف تكون لها ظلال تحتها أغنام وأبقار ، ونعلم الهواء كيف يصبح فراشات ، ونعلم الفراشات كيف تنتقل من شجرة إلى شجرة ونعلم الأشجار كيف تحتضن النحل وكيف يكون للنحل عسل . . أى كيف تكون الصحراء جنة على الأرض . .

ثم كيف يتحول المواطنون من كائنات تروح وتجىء . . تأكل وتشرب وتتناسل إلى آدميين . . أفكارهم زهور وطيور . . لها ماض ولها مستقبل . . وتصبح أيديهم العاملة عاقلة أيضا . .

والأميون أيديهم جاهلة . . ومهما كانت أيديهم قادرة على الإنتاج فهى متعطلة أيضاً . .

ولا يمكن أن نزرع الصحراء البور بعقول بور لأن فاقد العلم لا يعطيه ، وفاقد الحياة لا يمنحها . . فالذين يعلمون الصحراء يجب أن يكونوا هم أيضا متعلمين . .

وذلك عبء عظيم لا يستطيع أن ينجزه جيل واحد . . وإنما أجيال . . ولهذا كانت الصحراء أمل الأجيال كلها . . ولسنا وحدنا الذين نزحف على الصحراء إنما شعوب أخرى كثيرة . . لأن أكثر الكرة الأرضية صحراء : رملية أو جليدية .

ثم إن مياه المحيطات مساحات هائلة معطلة . . فنحن لم نستغل المحيطات بعد . . ففى المحيطات حياة وعناصر الحياة ، كما تمكننا زراعة الصحراء تمكننا أيضا زراعة المحيطات . . ويوم تضيق الأرض بنا ، أو نضيق بها فسوف نذهب إلى الكواكب الأخرى بحثا عن طعام لجياع الأرض ودواء لمرضاها . .

ولن يتحقق ذلك إلا فى ألوف أو ملايين السنين . . ولا أدعى أننى من الذين يولعون بأن تكون لهم أرض . فأنا ريفى ولكنى لست فلاحا فقد ولدت فى الريف ، ولم أعش به ، وعندما عشت فى الريف كنت أجرى وراء أبى ، أو أرتمى على صدره من مكان إلى مكان . . من أرض لا نملكها إلى أرض أخرى لا نملكها ، أكبر وأوسع . .

فقد كان أبى مأمورا لتفاتيش عدلى باشا يكن وعز الدين يكن وغيرهما من أمراء زمان . . ولم تكن الأرض التى نعيش فيها إلا مثل منصات القفز . . نقف عليها لكى نقفز منها . . أو كانت مثل منصات إطلاق سفن الفضاء . . محطات نتنقل منها إلى أماكن أخرى . . وليس وراءنا إلا الندم على ما فات ، والخوف مما هو آت . . فلم تكن الأرض المزروعة إلا غابات موحشة . . أو غابات مليئة بالوحوش . . فلم تقع عينى على أرض ، وإنما وقعت أنا على كل أرض . . وفى كل مرة أرتفع عن الأرض ألعنها . . هى ومن عليها وما عليها .

ولذلك لم أحب الأرض ولم أفكر فى أن أملك أرضا وقد عوضنى اللّه عن ذلك بأن أملك الكتب . أى بأن أملك بيوتا من ورق ، أحتمى بها من العواصف . . وكانت العواصف كلها تهب من أرض مزروعة واسعة شاسعة ولكنها رغم ذلك تضيق بنا . . ففى كل مرة أراها أغمض عينى عنها . . لأن خضرتها قاسية ، واتساعها ضيق ، وثرواتها حرمان ، وخيراتها ألم ! .

ومنذ أكثر من عشرين عاما ذهبت مع عدد من الأصدقاء الفنانين إلى ضاحية «عزبة النخل» لنشترى أرضا ـ آسف ـ ليشتروا أرضا ، فقد رافقتهم فقط وكان المتر بثلاثة قروش . . واشترى كل واحد فدانا ، ولم أشتر شيئا ولم أجد معنى لذلك ورفضت الفكرة ، ولم أعرها أى اهتمام فالثأر بينى وبين الأرض قديم . . وإحساسى كان دائماً أننى مثل شجرة كلما وضعوها فى الأرض عادوا فاقتلعوها . فأنا أنظر إلى الأرض كأنها تخشيبة فى قسم بوليس أو محكمة . . أو كأنها «منطقة عزل صحى» . .

ومعنى العزل الصحى . . أنه يجب عزل أى إنسان لاعتبارات صحية . . أى خوفا عليه من المرض . وكان إحساسى دائما ، أننى مصدر المرض والدليل على ذلك ، أننا كنا نمشى ونترك الأرض وما عليها ومن عليها وراءنا ، آمنة مطمئنة ! .

واكتفيت بأن كتبت مقالاً أسخر من مجرد أن يكون للإنسان أرض يبنى عليها بيتاً . أو يضع فوقها جاموسة أو يعلق عليها لافتة ويقول : هذه أرضى أنا . . وتلك أرضك أنت . . وهذه أرضهم هم ! .

مع أن «الامتلاك» غريزة عند الإنسان والحيوان . .

وعلى الرغم من ذلك فليس كل الناس يملكون أرضا فهناك من يملك البيت ومن يملك السيارة . . ومن يملك حريته . .

ومن مظاهر الحرية أن يقول الإنسان : إن الذى أملكه يملكنى أيضا . وبقدر ما يملك الإنسان من الأشياء بقدر ما يكون أقل حرية ! .

فالذى عنده بيت خائف من السكان والذى عنده أرض خائف من المستأجرين . . والذى عنده زرع خائف من الآفات . .

والذى لا يملك لا يخاف من شىء أو من أحد . .

والذين لايملكون يقولون أيضا : إن الشحاذين هم أكثر الناس حرية . . فلا أحد يعيب عليهم سلوكهم . ولا أحد يعيب عليهم فكرهم .

والناس يقولون عن الشحاذين : يكفى أنهم شحاذون . . أى أنه لا لوم عليهم أن يفعلوا أى شىء . . فلا نؤاخذهم ، أى أننا لا نطبق عليهم قيود الذين يملكون .

وهذا يمكن أن يقال ، ويقول ، ويقال . ولكنه «تبرير» فقط ، فقد ندمت كثيرا على أننى لا أجد موطئ قدم فى أى مكان أستطيع أن أقول : إن هذا ملكى وعند هذه الأرض وحولها حدود حريتى . . وحدود حريات الآخرين .

ولذلك كانت الأرض والعرض بمعنى واحد . . فالذى يعتدى على أرضى التى أملكها . . كالذى يعتدى على ثوبى ، وعلى جسمى وعلى عقلى . . وعلى زوجتى وعلى ولدى . . وعلى كرامتى وشرفى ! .

والفلاحون أكثر الناس ارتباطا بالأرض وقديما عبدوا الأرض كما عبدوا السحاب والأنهار والشمس ، أى أن الإنسان قد عبد كل مصادر الحياة ! .

والوطن كله أرض لكل الناس . ولذلك فالوطنية هى حب أرض الوطن ، والدفاع عنه والموت فى سبيله ، والذين يحبون بلادهم ليسوا فقط الذين يملكونها بل إن أكثر الذين يدافعون عن بلادهم لا يملكونها . . فهم أنبل وأشرف وأعظم . لأنهم يدافعون عن الأرض التى لا يملكونها . وإنما هم يدافعون عن التاريخ . . عن الشرف . . عن الكرامة . . عن الحرية . . عن السيادة . . ضد الظلم والإرهاب والقهر والاغتصاب .

فإذا كان الإنسان وطنيا ، ثم هو فى نفس الوقت يملك قطعة من أرضه . . أو جانبا من تاريخها ، فهو أكثر الناس ارتباطا بالوطن لأنه يملك قطعة من الوطن ولأنه هو أيضا قطعة من الوطن .

والنداء إلى تحرير الصحراء من البور ، أو تعمير الصحراء بالاخضرار ، هو دعوة أيضا لتوطين المواطنين . . أى جعلهم أكثر وطنية وأشد تفانيا فى حب مصر والدفاع عنها ، والموت من أجلها . .

والفيلسوف العربى ابن خلدون هو أول من التفت إلى الفرق بين سكان الصحارى وسكان المدن ، أو أخلاقيات البدو وأخلاقيات الحضر ـ أى أبناء المدن . . أو الفرق بين البدوى والفلاح والمدنى ـ أى ساكن المدينة ، وابن خلدون يقول : إن بناء المدن مرحلة متحضرة على إقامة الخيام ، ولذلك فالذين يبنون المدن ويعمرون الأرض أكثر علما من أبناء البادية الذين يقيمون الخيام على الرمل فى مهب الرياح ، ويتنقلون وراء المطر أو ينتظرون المطر حتى إذا سقط اخضرت الأرض فإذا اخضرت أقاموا حتى تأكل حيواناتهم .

والفلاحون إذا أقاموا بيوتا ، فهى بيوت أقرب إلى شكل الخيام : هزيلة متهدمة ليس لها أساس علمى ولذلك فالدولة هى التى يجب أن تقيم المدن ، وهى التى يجب أن تزرع الأرض . لأن الدولة أقدر مالا وأكثر علما . . أو هى التى تقدم المال والخطة لمن يريد أن يبنى بيتا .

وابن خلدون هو أول من قال : إن الدولة إذا أرادت أن تغير أخلاقيات الناس ومعنوياتهم أسكنتهم الأرض المزروعة وأقامت لهم بيوتا .

إن الدولة بذلك تستجيب إلى طبائع الناس ، وتجعلهم جنودا على أرضهم .

أى أن الدولة تستحث غريزة الامتلاك عند الناس . . فكل إنسان يريد أن يملك . . وأن يستقر . . وأن يأمن . . وأن تكون له جذور كالشجرة . أو تكون له قواعد كالبيت وفى ذلك تعميق وتأصيل لمعانى الوطن والوطنية والكرامة والشرف والمحبة بين الناس . . وإنما الكراهية تكون عندما يملك أقل الناس . . ولا يملك أكثر الناس . . والكراهية هى أم الحقد والحقد أبو الصدام . الذى هو أبو الحرب بين الطبقات . .

حتى الدولة الشيوعية التى رأت أن الامتلاك شىء . وحررت الناس جميعا من أن يكون لهم شىء يملكونه ، عادت فأعطت لكل واحد بيتا وسيارة . . وأعطت لكل واحد مساحة من الأرض يزرعها ، أى أن هذه الدولة التى نظرت للإنسان على أنه حيوان يرعى فى الأرض ، عادت فصححت هذا الوضع اللا إنسانى . . وردت له بعض إنسانيته أو جانبا من غريزته . .

* * *

ولن نستطيع أن نزرع كل الصحارى فى وقت قصير ـ لا نحن ولا غيرنا من الذين يعيشون على هوامش الصحارى الرملية أو الجليدية وإنما ذلك يحتاج إلى وقت طويل أى إلى أجيال كثيرة قادمة ولكن من المؤكد أن هذا سوف يحدث . .

ولن نقوم بتعمير الأرض فى مصر مثلا بنفس السرعة التى يتزايد بها عدد السكان فسوف نكون أكثر عددا وتكون أرضنا أضيق مساحة وليس من لحكمة أن نقف فى الطابور واحدا وراء واحد حتى يجىء دورنا فى احتلال الأرض الصحراء وتعميرها أو تعليمها كيف تكون خضراء .

ولو وقف الشباب منتظرا دوره فإن دوره لن يجىء ولذلك يجب أن يفعل الشباب أى الأجيال القادمة شيئا إيجابيا . وليس أمامهم إلا العمل فى مصر أو فى غيرها والأرض العربية والأجنبية واسعة . والإنسان يجب أن يعمل فى أى أرض وأن يكون نافعا فى أى موقع . . والطبيعى جدا بالنسبة للمصريين أن يهاجروا أو يغتربوا : يجمعون المال ليشتروا أرضهم ـ قطعة من أرضهم بعد ذلك . . أى ليشتروا صحاريهم . . فكأنهم ذهبوا أبعد ليعودوا أقرب إلى الأرض . .

وإذا كان النيل قد وهبنا مصر ، فإنه قد أعطانا المثل لكى نعمر الصحراء . . وذلك بأن نشق فيها الأنهار والطرقات وأن نعمر البيوت وأن نتجاور ونتقارب ونتكاتف دفاعا عنا . . أى دفاعا عن مصر اليوم وغدا . .

* * *

فيا أيها المصريون تعلموا وعلموا أرضكم الصفراء أن تكون خضراء . . وحتى تزداد أرضنا اخضرارا وازدهارا وطيورا . يجب أن نعلم الفلاحين الأميين .

وإلا كان الفلاح الجاهل مثل رمال الصحراء تسقط على الأرض المزروعة فتجعلها أقل خصوبة وأقل ثمارا . . وبلك يكون الفلاح الجاهل آفة زراعية . .

فلنعمل على زرع الأرض البور وتعميرها وتنوير العقول البور وتثقيفها لأنه إذا كانت الصحراء خرابا ، فإن الجهل تخريب ! .

ونحن لا نغزو الصحراء لتهزمنا ، وإنما لننتصر عليها . . وننتصر أيضا على أنفسنا . . أى على الصحارى التى فوق أكتافنا نحن الأغلبية الساحقة من المصريين ! .

* * *

اعترافات واحد من الذين يتعاطون الدواء بغير داء !

أنا واحد من هؤلاء الذين تسببوا فى أن تدفع الدولة ملايين الجنيهات لشراء مواد الدواء . أعترف بذلك . وإن كان غيرى من الملايين ينكرون ذلك ! .

فأنا أتردد على الصيدليات وأنظر في الفترينة وأشير إلى الطبيب : عاوز من ده . وتمتد يد الطبيب دون أن يسألنى طبعاً عن أسباب اختيارى لهذا الدواء بالذات . وأشير إلى دواء آخر وأقول : وثلاث علب من هذا . . وأريد علبتين من هذا . . وهذا يكفى اليوم وسوف أعود غدا ، إن شاء الله لكى أكمل احتياجاتى من الأدوية ! .

وأنا كأى واحد مصرى أتعجل الشفاء . ولذلك فبدلا من أن آخذ قرصا واحدا ثلاث مرات يوميا . فإننى آخذ ثلاثة أقراص أربع مرات يوميا . وأشفى بعد يوم أو بعد يومين . وتظل الزجاجات التى اشتريتها ممتلئة بالأقراص . ولكنى أضعها إلى جوار عشرات من العلب والزجاجات والحقن التى اشتريتها قبل ذلك ولم أعد فى حاجة إليها ولا أعرف ما الذى أفعله بهذه الأدوية كلها .

وإذا سافرت إلى الخارج فإننى أجد الإغراء أعظم وأروع . . فالصيدليات جميلة والعقاقير ملونة . . وفى الصيدليات توجد زجاجات العطور وتوجد بعض عقاقير التخسيس والتنشيط والطبيبات المرحات . . كل شيء يغرى أى إنسان بأن يشترى أى دواء .

ولأن شراء الدواء وتعاطيه أصبح مرضا عندى ، فإننى أشترى أى شيء بأى ثمن . أما فى أمريكا فإن الصيدليات هى فى نفس الوقت سوبر ماركت . . فأنت تدخل لتشترى بعض الأدوية مارا بالحلويات والمكتبات والكافتيريات وأجهزة التليفزيون والراديوهات والعقول الإلكترونية . . فالإغراء لاشك أقوى وأعنف وأنا أعترف أننى لم أستطع أن أقاوم ولذلك فى كل مرة سافرت إلى أمريكا عدت بشنطتين : الكبيرة جدا للكتب والصغيرة للأدوية . .

ولا أعرف إلا عندما أعود إلى القاهرة أن هذه الأدوية قد اشتريتها قبل ذلك ،

وأنها موجودة فى مصر وبأسعار أرخص . وتتكدس أدوية برة وأدوية جوه فى صناديق كثيرة وكبيرة ازدحمت بها غرفة مكتبى فى البيت ، وأدراج مكتبى فى مجلة «أكتوبر» ولم تقنعنى هذه الأدوية الكثيرة بأن أكف عن شراء الأدوية . لماذا ؟ .

لأننى مثل ملايين المصريين قد أصبحنا مدمنين لشراء الأدوية ومدمنين لتعاطيها ، ولأننا دون رخصة قانونية ، قد جعلنا من أنفسنا أطباء نشخص لأنفسنا الداء ونشترى الدواء .

وكل هذا الذى أقول : يسجل علينا عدة أخطاء فادحة الثمن . .

فنحن أولا نشترى الدواء بلا مناسبة . . ونتعاطاه بلا معرفة حقيقية إن كان ينفعنا أو لا ينفعنا . ونتعاطاه بكميات كبيرة استعجالا للشفاء ، وجهلا مؤكدا بخطورة هذه المواد الكيماوية على المعدة والقلب والأمعاء . . وفى نفس الوقت استخفافا بدور الأطباء . وربما كان معنا بعض الحق فى تصورنا لدور الطبيب فى الشفاء ـ وهذا رأيى الشخصى ، وأنا لا أعبر عن ملايين المصريين الذين يؤمنون بالأطباء ويلعنونهم من وراء ظهورهم . ولكننى أنا شخصيا لا أومن بقدرة الطبيب الخارقة على عمل شىء لماذا ؟ .

مثلا : أنا أشكو من المصران الغليظ . وأنا فى ذلك مثل ثلاثة أرباع الشعب المصرى . ومن أعراض المصران الغليظ أنه يوجع البطن ـ وأغلبية الناس يقولون : يوجع القلب . وهم يقصدون وجع البطن - وهو يصيب الإنسان بضيق فى التنفس . ويصيبه بدوخة . فإذا جلست إلى مكتبى فإننى لا أستطيع أن أضغط ببطنى على المكتب وإذا نمت لا أستطيع أن أتقلب على الجانب الأيمن أو الأيسر . . وأشعر فى نفس الوقت بأوجاع فى أماكن مختلفة من البطن .

وعندنا أمراض كثيرة لها نفس الأعراض . فإذا جاء الطبيب ووقف أمام المريض ، أو جلس وروى له المريض هذه الأعراض وكان الطبيب يرى هذا المريض لأول مرة ، فإنه لا يعرف ما هو داء هذا المريض وإذا كان الطبيب قد رأى هذا المريض قبل ذلك ، ثم لاحظ أن المريض عصبى . . وأنه أصبح ضعيفا بعض الوقت ، ثم طلب إليه أن يفتح فمه ويقول : آه .

ووجد لسانه أصفر مبيضا وعليه طفح . . ثم امتدت يد الطبيب إلى عين المريض وفتحها ووجد البياض ميالا إلى الصفرة ، ثم رأى أظافر المريض لم تعد وردية اللون . . ثم ضرب بالشاكوش . على ركبة المريض فوجدها تقفز إلى الأمام . .

فمن المؤكد أن الطبيب سوف يشخص أعراضا أخرى للمريض . . ومعنى ذلك أنه سوف يعطيه عقاقير أخرى وهذه العقاقير إذا أضيفت للعقاقير السابقة ، وأحس المريض ، وهذا ما يحدث غالبا ، أن الطبيب لا يعرف شيئا ، فمن المؤكد أن المريض سوف يزداد مرضا وتعبا .

وإن كان هذا لا يمنع أن الدفع واجب : أن يدفع زيارة الطبيب وثمن العقاقير أيضا . .

وأنا أومن ــ وهذا رأيى الشخصى ــ أن الطبيب غالبا لا يعرف ما الذي يناسب المريض . لماذا ؟ .

لأن الطبيب ليس عنده وقت لكى يرى ويسمع ويفهم . .

ولأن الطبيب لم يذق كل هذه الأدوية التى يصفها للمريض ، لأنه شخصيا لم يصب بكل هذه الأمراض وليس ضروريا . . أن يصاب بها . . وإنما الطبيب لديه معلومات عن فوائد الأدوية ، قرأها ودرسها وسمعها من المرضى .

والمرضى مختلفون فى أوجاعهم ، اختلافهم فى اتساع عيونهم وحجم أنوفهم ودرجة سخطهم على الداء والدواء ، والمرضى والأطباء ! .

إذن . . فسوف يصف الطبيب دواء لداء آخر . .

وسوف يتعاطى المريض ما يحلو له هو من الدواء ويصاب بأمراض وأوجاع مستمرة . وسوف يكون هو طبيبا لنفسه ، وأن يدفع ثمن هذه العادة السيئة . ويستمر المريض مريضا ، ويمضى فى تكديس الدواء فى بيته . .

ومن اعترافاتى هذه ألاحظ أننا لكى نشترى قرص أسبرين واحدا أو قرص فحم واحدا أو قرص ملين واحدا ، لابد من شراء علبة كاملة أو زجاجة كاملة . وهذه غلطة . يجب أن نتداركها . .

فالعبوات الدوائية ، يجب أن تكون أصغر ، أى يجب أن تباع العقاقير قرصا قرصا ، وحبة حبة . . بدلا من عشرات وعشرينات الأقراص ، نشتريها ونكدسها . ثم يدفعنا الخوف من أن تكون هذه الأدوية قد فسدت بسبب تكدسها ، أن نشتريها مرة أخرى . .

أرجو ألا ننسى أننا جميعا جهلاء بتركيب الدواء ، ولا نعرف أى هذه الأدوية يفسد بالتكدس وأيها لا يفسد ! .

ومن اعترافاتى هذه تنكشف غلطة خطيرة . وهى أن جميع الأدوية نشتريها بغير روشتة . فمن حق أى طفل أن يذهب إلى أية صيدلية ويشير إلى أى دواء . . فإذا هو قد نزل من فوق واستقر فى يده : سواء كان الدواء ساما أو مبيدا حشريا أو مضادا حيويا . مادام الزبون معه فلوس فالزبون على حق . . حتى الموت ! .

وليس فى العالم كله شىء مثل هذا : لابد من روشتة الطبيب . . صحيح أن هذا مصدر دخل كبير للأطباء ، يضاف إلى الدخل الهائل الذى ينهال على الأطباء ولا تعرفه الضرائب ، ولكن من المؤكد أن التقيد بالروشتات يوفر الكثير للدولة التى تنفق عشرات الملايين من الجنيهات على إنتاج الدواء . . أو على دعم إنتاج الدواء . .

فالمطلوب ليس أن نقلل من الإنتاج ، ولكن أن نقلل من الاستهلاك . وبذلك نقلل من دعم الدولة لسفاهة المرضى الذين يبتلعون الدواء عن جهل وعن سوء ظن بالأطباء . ربما سوء ظنهم بالأطباء ، هو الشىء الوحيد الذى له مايبرره . ولكن جهل المرضى يحتاج إلى توعية وإلى تنبيه مستمر . .

فمن الممكن أن يصاب أى إنسان بقرحة المعدة وقرحة الاثنى عشر بسبب قرص أسبرين ابتلعه على الريق . . أو عشرات ابتلعها فى وقت واحد فى حالة يأس ! .

* * *

أذكر أننى ذهبت إلى إحدى الصيدليات فى أمريكا أشترى بعض زجاجات القطرة ــ أنا لا أشترى زجاجة واحدة من أى شىء . والسبب أنت تعرفه الآن ـ ورفض الصيدلى أن يبيع لى القطرة دون روشتة طبيب . ولم تقنعه اعترافاتى بأننى أحد المرافقين للرئيس السادات . وإنما ضحك الصيدلى الباكستانى ورحب بهذه الزيارة ، ولكنه أشار وراء ظهره إلى القانون الأمريكى المعلق على الحائط . .

وعدت إلى الصيدلية ومعى د . محمد عطية أحد الأطباء المرافقين للرئيس السادات . وقدم د . عطية جواز سفره . وحاول أن يكتب روشتة ــ ولكن الصيدلى اعتذر . لأنه من الضرورى أن يكون الطبيب الذى يكتب الروشتة مقيما فى أمريكا ونقابيا . ولكن حدثت المعجزة . فقد قال الصيدلى : إن لى ابن عم فى القاهرة يدرس الطب . .

فإذا بالدكتور محمد عطية يقول له : عندى طالب باكستانى واحد اسمه كذا . .

وكأننا فى «ألف ليلة وليلة» لأن هذا الاسم الكريم قد فتح لنا أبواب الصيدلية ليقول لنا الصيدلى الباكستانى : شبيك لبيك عبدك بين يديك ! .

وأخذت عشر زجاجات قطرة . . وخرجت .

مع أن هذه القطرة ليست سامة ، ولامبيدا حشريا ولا مبيدا إنسانيا . . ولكنه القانون الذى يحمى المواطنين ، من سفاهة المواطنين ! .

* * *

ثم إن بين المصريين من حمل هذه الأدوية المصرية الرخيصة وملأ بها حقائبه لبيعها فى البلاد العربية . . وهذا شىء عجيب ! .

إنه يبيع الأدوية الرخيصة ، فى البلاد القادرة على أن تشتريها غالية ! .

وبذلك يساهم دون أن يدرى فى أن يزداد الفقراء فقرا ، وأن يزداد الأغنياء غنى .

تماما : وهذا تشبيه مع الفارق الكبير جدا : كأن يقوم واحد مصرى بتهريب الرغيف إلى بلد آخر ليبيعه بعشرة قروش . . مع أن الرغيف المصرى ثمنه الحقيقى ٢٢ مليما . . فالدولة تدفع ١٧ مليما فى كل رغيف لكى يستطيع أن يشتريه المواطن المصرى .

والأدوية كذلك . . وحدث أيضا فى أزمة البن ـ فقد هربه تجار الشنطة وحجاج الشنطة إلى بلاد عربية كثيرة . وحدث ذلك بالنسبة للثوم . فثمن كيلو الثوم فى مصر لا يتجاوز عشرة قروش ، لكنه يباع فى بلاد عربية أخرى بستة جنيهات . والبن يباع عندنا ٣٦٠ قرشا ويباع فى بلاد عربية أخرى بثمانية جنيهات ! .

وكل ذلك يضاعف ما تنفقه الدولة من أجل التيسير على المواطنين المصريين الذين يبتلعون الخبز والبصل والثوم والبن والعقاقير ! .

* * *

إذن . . الشىء الوحيد الذى يميز الإنسان عن الحيوان ، هو استخدام الإنسان للدواء والإسراف فى تناوله . .

ولايزال الطبيب البيطرى أسعد الأطباء : لأنه يشخص الداء والدواء دون أن يجد نفسه فى حاجة إلى أن يسأل المريض عن الشىء الذى يتعبه . .

ومن هنا كانت تعاسة الإنسان أيضا : فعلى الرغم من الذى نقوله للطبيب عن أوجاعنا فإن الطبيب يصف لنا دواء لمرض لا نشكو منه عادة .

والنتيجة واحدة : أن الدواء فى الصيدلية ، وأن الشفاء على اللّه . .

وليس هناك أمل كبير فى إصلاح هذه العلاقة بين المريض والطبيب ، ولكن الذى يمكن إصلاحه ، رحمة بالدولة وبأنفسنا ، هو أن نوجه الناس إلى خطورة تعاطى هذه الأدوية . . بنفس الحماسة المضحكة التى نقوم بها عندما نعلن عن السجائر ، وعن مضار التدخين . .

فكذلك يجب أن نعلن عن فوائد الأدوية ، وعن ضرر الإسراف فى تعاطيها . . ضررها بالنسبة للمريض أولا ، وميزانية الدولة ثانيا . .

وأنه يضع مصلحته الشخصية فوق كل اعتبارات قومية . وهذا المرض الأخير قد قام بعلاجه عدد لا يحصى من الأنبياء والزعماء . وأكثر هؤلاء الأنبياء والخلفاء الراشدين قد لقوا مصرعهم وبقى الداء مستشريا حتى يومنا هذا ! .

واللّه أعلم . .

فليست هذه إلا اعترافات واحد من بين الملايين الذين يكلفون الدولة الملايين ، عن جهل بما يفعلون وعن إصرار بأن الذى يعملونه صحيح ، وهذا تأكيد لعمق هذا الجهل عندهم ــ ونحن أغلبية ، ولله الحمد ، فى مصر وفى البلاد العربية ! .

ملحوظة : هناك أوجه شبه كثيرة بين المترددين على المقابر وأضرحة أولياء اللّه وبين الذين يترددون على الصيدليات والعيادات ــ إنها مسألة نفسية ! .

أقول قولى هذا ، ورزقى على اللّه ! .

* * *

من أجل نلف الشعب!

لم نكن نتوقع أن تكون مدينة ليبرفيل الصغيرة جميلة . . بيوتها حديثة وشوارعها حرير . وفيلات رؤساء الدول قد أقيمت فى أسابيع على الجبال ، والناس فى صحة وعافية ، وقاعة المؤتمر قد بناها اليوغسلاف وقام على حراستها المغاربة . وكان الجو معتدلا باردا صباحا باردا ليلا على الرغم من أن المدينة تقع على خط الاستواء . ولكن السحب الكثيفة هى التى حجبت الشمس عن الناس الذين يرتدون الملابس الطويلة وفى أيديهم أرغفة الخبز الفرنسية الطويلة . . أما أسواقهم فيبيعون فيها السمك . . ومحلاتهم مفتوحة مليئة بالسلع ومتاجرهم يديرها أو يملكها لبنانيون . .

ولا توقعنا أن يكون المؤتمر ناجحا ، لأنه ضم عددا كبيرا من رؤساء الدول ، لأول مرة ، ولأنهم أصروا جميعا على أن تكون أفريقيا للأفارقة : لا يدخلها أجنبى أمريكى أو سوفيتى . . وإذا كانت هناك خلافات بين الجيران ، وهى بالفعل كثيرة وملتهبة ، فيجب أن تحلها أفريقيا بنفسها . وإن الرجل الأبيض الذى هو أقلية فى أفريقيا ، أو الذى هو يريد أن يعود إليها مرتزقا أو غازيا أو متآمرا ، يجب التصدى له والاحتراس منه . .

وكان الشيوعيون فى هذا المؤتمر قلة ضئيلة : أنجولا وأثيوبيا . .

ولكن الاتجاه العام القوى هو مواجهة العدوان والغزو فى كل صوره ومواطنه . . وقد أعلن أحد الزعماء أن أفريقيا قد عادت لنفسها ـ يقصد أن هذا المؤتمر كان لصالح أفريقيا وضد تمزيقها .

وبدأ الأفارقة يتحدثون أيضا عن أن خورتشيف إذا كان قد أسقطه موقفه من كوبا عندما هددته أمريكا . فنفس الشىء من الممكن أن يحدث لبرجنيف وهو مريض ومصاب بالسرطان فى فكه السفلى . وغير قادر على الكلام بوضوح ، وقد لاحظ عليه الرئيس الفرنسى ديستان ذلك ولاحظ أنه لا يأكل ولا يشرب إلا قليلا . ويقال

أن قـادة السـوفـيت يعلمـون بمرض برجنيف ، وليس إعطاؤه كل هذه السلطات إلا كـالورود توضع على نعش رجل مـات أو سـوف يموت . . ومن المحـتـمل أن تؤدى مغامراته فى أثيوبيا والصومال وأريتريا وجيبوتى إلى سقوطه . . فلم يبق له من هذا كله إلا أثيوبيا وقائدها الدموى منجستو . .

وفى المؤتمر كـان الناس يتطلعـون إلى الرجل الذى يجلس وراءه ، لأنه هو الذى سوف يقتله وقبل أن يقتله سوف يكسر زجاجة من الدم ، كما فعل منجستو عندما اغتال الزعماء السياسيين وكبار ضباط الجيش . . لأنه لا يعتمد الآن إلا على الجندى وصف الضابط . . أما الضباط من جميع الرتب فقد تخلص منهم ! .

وهاجم الرئيس نميرى الاستعمار الاشتراكى ـ أى السوفيتى فى أثيوبيا وليبيا ـ بعنف شديد . .

وبلور الرئيس السادات ـ بالعقل ـ السياسة التى يجب أن تمشى عليها الدول الأفريقية من أجل وحدتها وسلامتها : وذلك بالاتحاد وحل مشاكلها فيما بينها وتحريم المرتزقة ومنع تدخل الدول العظمى . .

ويبـدو أن هناك خطة أخـرى حـتى لا ينجح هذا المؤتمر أو حـتى لا تنجح كل خطوات مصر من أجل السلام .

ولذلك تحـركت جمـاعـة «التكفيـر والهـجرة» لخطف الدكـتور الذهبى . وهو أول حادث من نوعه فى مصر .

وقد كان له أثره العالمى وأدى إلى انشغال عام فى مصر . . وإلى أن يكون هذا الانشغال على شكل كراهية وقرف من اعتداء الصبية والشبان على رجل من رجال الدين . لأن له رأيا مخالفا . ولأنه يرى أن الذى تعتنقه هذه الجماعة لا هو من الدين ولا من العلم ولا من الإيمان . .

وعلى الرغم من النجاح العالمى للمؤتمر الأفريقى ، فإن هذه الفرقعة الدموية قد شغلت الناس وأزعجتهم . وفى نفس الوقت أثارتهم على رجال الأمن وعلى الصحافة وعلى هذه الجماعات الضالة المضلة .

***

وفى المجتمعات كلها من الطبيعى أن نجد أناسا رافضين . فى أمريكا وفى أوروبا وفى اليابان وفى روسيا أيضا . وتختلف درجات الرفض عند هذه الجماعات .

ففى بريطانيا أثناء العدوان الثلاثى وبعده ظهرت جماعة الساخطين أو الغاضبين ، وكان من بينهم أدباء . . ولكن هناك جماعات أخرى لا تعجبها الأوضاع فى بريطانيا . وليس لديها حل لذلك . ولكن هؤلاء الغاضبين يمتصون غضبهم ولا يعتدون على أحد .

وفى نفس الوقت ظهرت فى أمريكا جماعة الصاخبين وهم أيضا ثائرون على المجتمع الأمريكى الذى تتحكم فيه الآلة والمؤسسات والنقابات . وليست للفرد فيه قيمة . ولذلك فهم ينسحبون من المجتمع ، ويصنعون لأنفسهم مجتمعات أخرى . ومن مظاهر الرفض عندهم : أنهم لا ينفذون كل النصائح والأوامر التى كانوا يسمعونها من آبائهم ومدرسيهم ومن رجال الدين . ولذلك أطالوا شعورهم وأظافرهم وابتعدوا عن الاستحمام وتزوجوا فى سن صغيرة وأقاموا فى خيام خارج المدن .

ثم ظهرت جماعات الصخرة القذرة . . والجيل الضائع . . والجيل الأبيض ـ أى الذى ليس فى رأسه شىء ولا فى قلبه شىء . . وإنما هو أبيض العقل والقلب . لأنه يرفض تعاليم كل الناس . .

وظهرت جماعات «المسدس الجنسى» أى الذين يقولون إننا أبناء أناس لم نعد نعرفهم . . أطلقونا وتركونا ، ولذلك يجب أن نتركهم ونعيش بعيدا عنهم . .

وظهرت فى أمريكا بعد حرب فيتنام جماعة الذين يمشون نياما ـ أى الذين ليسوا على قيد الحياة . وإنما هم فى حالة من الغيبوبة فهم لا يدرون إن كانوا أحياء أو أمواتا . . ثم إنهم يتعاطون المخدرات وحبوب الهلوسة . لأن واقع الحياة فى أمريكا لا يعجبهم والناس جميعا آلات وحيوانات تنجب الأطفال ووحوش تكسب . . فأمريكا ليست إلا زريبة كبيرة نظيفة من الظاهر ، وقذرة ومنحلة وكافرة بكل القيم من الداخل . .

وهذه الجماعات الصغيرة فى مصر . . إنهم أيضا صبية صغار . . استغلهم واحد أكثر خبرة منهم . ولعب على وتر أن المجتمع منحل . وأنهم وحدهم القادرون على إصلاحه . أى أن هناك عددا من المشاكل الأخلاقية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، وأنها جميعا بغير حل . وأن الإنسان أمام هذه المشاكل يجب أن يفعل شيئا .

والناس عادة إما أن ينسحبوا من مواجهة المشاكل لكثرتها وصعوبتها . . وإما أن يتهجموا عليها وعلى الناس أيضا .

ومن مظاهر الانسحاب أن يذهب الشباب بعيدا عن المجتمع . فتكون لهم حياة خاصة . أو أن يستغرقهم شيء : كالهوس الدينى أو التعصب الفكرى أو إدمان المخدرات أو الإسراف فى الجنس فهى جميعا إغراق واستغراق وهرب . . أو أن هؤلاء الشبان لا يجدون مفرا من الاعتداء على المجتمع . . أى على الناس الذين لهم شكل الأب والأم : كالأب والأم والمدرس ورجال الأمن والساسة ورجال الدين . .

ويرون فى هذا العدوان نوعا من الإصلاح الذى ينشدونه . ويكون العدوان عنيفا . ثم إن هذه الجماعات تحاول أن تبرر لنفسها هذا السلوك المنحرف .

فهم ينظرون إلى المجتمع على أنه هو الذى يعتدى عليهم . أو هو العنيف معهم . ولذلك فالجرائم التى يرتكبونها ، ليست جرائم فى رأيهم ، وإنما هى نوع من الدفاع عن النفس . ومواجهة العدوان بالعدوان . والعنف بالعنف . .

ثم لديهم نوع من المثالية الزائفة . لأنهم يرون أن هناك صورة أفضل لهذا المجتمع ، هذه الصورة فى رءوسهم هم . وإنهم وحدهم القادرون على تحقيقها . ولما كانوا هم أقل عددا من أى مجتمع ، فلذلك ليس أمامهم إلا فرض هذه «الصورة المثالية» بالقوة . . بالقنابل . . بالمسدسات . . بالدم ! .

ولذلك نجد أن لدى جماعة التكفير هذه أميرا . . هذا الأمير هو سيدهم : أى هو القوة الحقة التى تعطيهم شرعية الجريمة . . ثم لأنه قوى فقد استباح لنفسه أن يفعل ما يشاء . أى أن يضع القانون وأن يعتدى عليه . . ولذلك فقد استباح زوجاتهم . وبذلك يتوافر للأمير : العنف والجنس . .

وفى كل جرائم هذه الجماعات فى أوروبا وأمريكا وجدنا العنف . . القتل . . ووجدنا الاستغراق فى الجنس . . أو تحقيق المتعة عن طريق إسالة الدماء ، أو عن طريق خطف النساء واغتصابهن .

وهذا ما حدث فى جماعة التكفير أيضا .

* * *

ولكن لماذا يلتقى هؤلاء الأفراد معا ؟ ما الذى يمسكهم ؟ ما الذى يجمعهم ؟ ما الذى يسيرهم هكذا ؟ من المؤكد أن هناك تشابها فى تكوينهم النفسى والاجتماعى . .

لأن الإنسان الإرهابى يختار هذا الأسلوب لعدة أسباب .

أولها : أنه يريد أن يؤكد ذاته . أى يريد أن يقول : أنا هنا . وأنا قادر على فعل شىء .

مع أن أحدا لم يسأله إن كان قادرا أو غير قادر . ولكنه يعانى من مشكلة أنه عاجز عن فعل شىء ، أنه بلا وزن أنه بلا فائدة . أنه بلا دور .

ولذلك فالانضمام إلى هذه الجماعة يعطيه فرصة أن يقول : أنا فعلت . . أنا آمنت . . أنا كفرت . . أنا تآمرت . . أنا قتلت . .

وثانيها : أن معظم هؤلاء الصبية والشبان لهم مشاكل نفسية واجتماعية . ولأنهم صغار فهم غير قادرين على حلها . إما لأنها كثيرة ، وإما لأنهم يتعجلون ذلك . ومن وسائل الهرب من هذه المشاكل ومتاعبها أن يلقى الإنسان بنفسه على عدد آخر من الناس . وأن يذوب فيهم . فإذا ذاب فقد استراح من حريته ومن إرادته ومن مسئوليته . . وترك ذلك كله لإنسان آخر . . أو لجماعة أخرى . .

إذن ، فهو محتاج إلى الاستغراق فى جماعة بقصد إغراق متاعبه ، أى الاستغراق فى جماعة أو فى مذهب من أجل إغراق كل أوجاعه ومشاكله . .

وبذلك يكون الاندماج أو الانطواء تحت لواء أو تحت إمارة أحد من الناس نوعا من الهرب . .

والتعصب هو نوع من الهرب . .

لأن هناك فارقا بين المتدين وبين المتعصب ، فالمتدين هو الذى يؤمن بشىء أو بشخص ما ، ولكن المتعصب هو الذى لا يؤمن فقط وإنما هو الذى «يدمن» شيئا ما أو «يدمن» طاعة شخص . . والإدمان يجرد الإنسان من حريته فى أن يقول : لا . .

وهو أصلا ، لا يريد أن يقول : لا أو نعم . . ولذلك فقد أدمن فكرة أو مذهبا ، أى فقد إرادته ، بمحض إرادته . .

وثالثها : أن الإرهابى يجد متعة فى أن يكون قريبا من ضحيته . ولذلك يتنافس الإرهابيون فيما بينهم من الذى يخطف فلانا أو من الذى يقتله . لماذا ؟ .

لأنه يريد أن يرى الشخص الكبير وقد أصبح ضعيفا هزيلا . . يراه وهو يركع عند قدميه . . يراه وهو يبكى وهو يتعذب . . ثم وهو يقتله بعد ذلك . ويكون القتل استكمالا لمتعة تعذيب الآخرين والتشفى منهم . .

والآخرون : هم كل الناس وقد تجمعوا فى شخص واحد ! .

والذى يستعرض أعضاء هذه الجماعات الصغيرة المنعزلة فى العالم كله والذين ارتكبوا مثل هذه الجرائم ، يجد أن ظروفهم النفسية شاذة . وظروفهم الاجتماعية منحرفة ، أو أن حياتهم العملية فاشلة . . إذن فهم جميعا أناس يريدون أن يثأروا من كل الناس ، ولما كان من الصعب عليهم قتل كل الناس ، فإنهم يختارون من يرون فيه عددا من الصفات المطلوبة : كأن يكون أبا أو مدرسا أورجل دين أو وزيرا أو غنيا . . فهم يفضلون أى إنسان يمثل : القوة أو السلطة ! .

ورابعا : وهؤلاء الشبان انتحاريون أرادوا أو لم يريدوا . فهم قد أدمنوا فكرة أو رأيا أو أسلوبا ، ولذلك لم تعد لديهم إرادة . فهم لا يستطيعون أن يمتنعوا عن هذا الشىء الذى أدمنوه . . ولذلك كانت هذه الجرأة أو هذه الشجاعة . . وهى فى الحقيقة ليست إلا نوعا من البلادة النفسية والعقلية . .

ثم إنهم يدخلون السجون حتى الموت وهم يسمون ذلك واجباً وتضحية . .

فكأنهم أناس أمسكوا مسدساتهم ثم أطلقوها على صورهم فى المرآة ، بينما هم يريدون أن يطلقوها على كل الناس ! .

ومنطق هؤلاء الصبية المضللين بسيط جدا . وبقدر ما هو بسيط هو خاطئ أيضا .

فكل واحد يقول :

أنا أقول إن الناس جميعا كفرة .

والناس يقولون : إننى أنا الكافر وحدى . .

ولما كان الناس أقوى منى فقد أدخلونى السجن .

ولما كنت أضعف من كل الناس فلم أستطع أن أضعهم فى السجن . .

وهو ترتيب منطقى ، لولا أن أساس هذا المنطق خاطئ . والأساس : هو أن الناس جميعاً كفرة . وأنه هو وحده المؤمن . من قال ذلك ؟ لا أحد إلا هو . . وإلا جماعته ! .

مع أن المنطق هو أن نقول معا :

بعض الناس كفرة . . أو بعض الناس لا يطبقون الشريعة الإسلامية . .

ولكن لابد أن نسأل : وما هى الشريعة الإسلامية التى يستطيع طفل عمره ١٤ سنة أن يعرفها ؟ ما الذى فهمه من القرآن ومن الأحاديث ومن شرح القرآن

والأحاديث والمذاهب . . إن الدين علم واسع عميق متشعب ، يحتاج إلى أعمار لكى يعرف الإنسان أين الصواب وأين الخطأ ؟ . . ولكن هؤلاء الصغار ، لأنهم صغار ، كان التأثير عليهم سهلاً فدفعهم فى حالة من الإدمان والسير أثناء النوم ، إلى ارتكاب هذه الجرائم ، دون أن يدروا أنهم قد ارتكبوها ضد أنفسهم أيضا .

وإذا كانت هذه الجماعات المنزوية المنطوية مجرمة فمن المسئول عن هذا الانحراف ؟ من الذى تركهم أو تخلى عنهم ، حتى سقطوا ضحايا أشراراً متمرسين ؟ .

هل هى غلطة رجال الأمن الذين عرفوهم ولم يتابعوهم ؟ هل تكوين مثل هذا النوع من التفكير عمل له علاقة بالأمن فقط؟ هل هو الأمن «المتراخى عموما» هل الأمن فقد هيبته عند الناس ، هل أجهزة الأمن مثل أجهزة أى طبيب كبير ، ومهما كان الطبيب عظيما وفى يده أجهزة غير معقمة ، فما يقوم به من عمليات جراحية هى عمليات قتل ؟ .

هل أجهزة الأمن أدوات غير معقمة فى أصابع أطباء مهرة . .

إن الناس عموما لديهم هذا الاستعداد لإدانة رجال الأمن . . والأمن والتراخى والرخاوة وضياع هيبة رجل الأمن على اختلاف درجاته . . وهناك أدلة كثيرة على ذلك عند الناس .

هل هى مشكلة البيت؟ أى الأسرة وظروفها المادية والأخلاقية . . هل هى مشكلة عائلية ، أدت إلى مشكلة اجتماعية سياسية إجرامية ؟ ! .

هل هى التربية الدينية ، أو افتقاد التربية الدينية فى البيت والمدرسة وأجهزة الإعلام . . هل هم رجال الدين الاستفزازيون فى المساجد الذين يشعلون النار فى كل الناس ، ويرفضون كل ما يجرى فى مصر . . فإذا سمعهم هؤلاء الشبان زاد سخطهم وغيظهم .

ولكنهم عندما فكروا فى خطف وقتل أحد اغتالوا أحد رجال الدين ، فهل اغتالوه لأنه رجل دين؟ أعتقد أنهم اغتالوه لأنه وزير . لأنه صورة من صور السلطة ، ولأن له رأيا مخالفا . وأن هذا الرأى المخالف كان له أثره عليهم عندما كان وزيرا . .

هل هى الصحافة خصوصا ، وأجهزة الإعلام عموما؟ هل هى الصحافة التى تقوم بتعميق التمزق عند الناس . . وتوسيع الازدواج بين ما يتمناه الناس وما يحلمون به ، وبين ما يجدونه بين أيديهم . . هل هى الصحافة التى تلقى الوحل

على الأمس ، والماء على اليوم ، والورد على الغد . . فيحتار الشباب ما الذى يصدقونه وما الذى يكذبونه . . هل هى الصحافة التى تنشر صورًا لمجتمع مصرى لا يعرفه هؤلاء الشباب ولا يعرفون موقعه . . ثم تجىء الصحافة وتتهم كل الناس بالفساد والانحلال وخراب الذمم والرشوة . .

هل هو التمزق السياسى والفراغ الهائل بعد النكسة الفظيعة ، وكان هؤلاء الصبية فى العاشرة من أعمارهم . . أى أطفالا صغارا . . وفتحوا عيونهم على هلوسة صحفية وضوضاء عقلية . . وتحولت رءوسهم إلى برج بابل يتكلم فيه كل الناس بألف لغة ولايدرى أحد ماذا يقوله الآخرون . .

هل هى مشاكل الشباب أنفسهم شديدو الحساسية يسهل التأثير عليهم ، عندهم فراغ عقائدى أو مذهبى ، لم يتلقفهم أحد . لم يحتويهم مذهب أو إطار سياسى . . لم يهتم بهم أحد . . ثم وجدوا أخيرا من يعطيهم : الاسم الكودى والصفة والخطة والمذهب والأمل العنيف فى أن يكون شيئا وأن يخيف وأن يكون حديث العالم الذى أنكره واحتقره . . وبذلك يجىء دوره فى أن يخيف هذا العالم . .

المهم : هو أن ندرس هذه الظاهرة وأن نعرف أبعادها وأعماقها وحجمها . وكيف تكوت . . ومن الذى يظلها ومن الذى يطعمها ويسقيها ويدربها . . ثم يجعل منها جميعا مسدسات تنطلق على مصر . .

ويجب ألا نبالغ فى تقديرنا : فنهون من أمرها أو نهول فى فداحتها . . لأن التشخيص نصف العلاج . .

ولابد أن يكون العقاب رادعا ، فقد اعتاد الناس على الضرب بالرجل بدلا من الضرب بالعصا والضرب بالعصا بدلا من الضرب بالرصاص . وبذلك لم تعد الجريمة تخيف لأن العقاب لا يخيف ، ولذلك سقطت هيبة رجال الأمن ، وهيبة الدولة كلها . .

وإذا كان المقصود أيضا إفساد كل ما سوف يقال عندما تحتفل مصر بمرور أكثر من ربع قرن على ثورتنا ، فإن هذه الجريمة لن تفسد علينا ذلك اليوم . . فقد تحقق لمصر الكثير منذ ذلك اليوم . . تحققت سيادة القانون وحرية المواطنين وأمنهم .

وكان من نتيجة ذلك أن أساء هؤلاء الصغار فهم الحرية . . وأساءوا معنى الأمن والأمان . وآمنوا و «أدمنوا» أيضا : أن القانون ليست له أنياب وأظافر . . ومعهم حق

فى هذا الفـهم . . لأننا لم نر أنيـاب القـانون منذ وقت طويل . . وأن رجـال الأمن يستضعفون بعض الناس فيكشرون لهم عن أنيابهم . ولكن إذا لـم تكن للقانون ـ هذه المرة ـ أنيـاب حـادة ومـخـالـب خـارقـة ، فلن تنتـهى هذه الجـرائم ، وأولى هذه الجرائم : ألا يكون لرجال الأمن القدرة على أن يحققوا لنا ولهم الأمن والأمان ! .

وأكبـر جريمة يمكن أن نرتكبـهـا جـمـيعـا أن «نلعن» الجـريمة . وأن نقف عند هذا الحد . .

فشتيـمة الأمراض ليست عـلاجا لهـا . . وإنما يستـحق الشتيـمة والـلعن والطرد وعظيم الاحتقار من يكتفى بتكفير جماعة التكفير . . وإنما يجب أن نجد حلا ، وأن يكون الحل هو : الاقـتـراب والـفـهـم والاحـتـواء وتقـدير وزن وعـمق هذه النزعـات الرافضة . . وبعد ذلك نتقدم «معا» بالعلاج . .

أى نتقدم «جميعا» كتابا وعلماء دين وعلماء نفس ورجال أمن . .

وسوف تكون جريمتنا فـادحة إذا نظرنا إلى كل شىء باستـخـفـاف . لأننا قـد اعتقلنا عددا منهم . . هذه غلطة فظيعة لأن معناها أننا نسينا حقيقة هامة وهى أن نصف سكان مصر دون العشرين ، وأنهم يحتاجون إلى أن نضعهم تحت أعيننا وبين أحضاننا وفى قلوبنا . . لأنهم مصر ، مستقبل مصر . ومن أجل مستقبل مصر ، سالت دماؤنا ، وجف طعامنا ، ونضب شرابنا ، وهان أمرنا على كل الناس . . وهان أمرنا على أنفسنا أكثر . . ثم تحقق لنا النصر على أنفسنا وعلى عدونا ، وارتدت لنا أرضنا وقناتنا وكرامتنا . . من أجل هذا الشباب . . الذى هو مصر غد وبعد غد ! .

* * *

كانت عندى تجربة
تكفير التكفير ليس علاجًا !

عندى تجربة ولكنها لم تكتمل . . فقد كنت أسكن فى إمبابة . وكانت لى مشاكل كثيرة ، كأى طالب متوسط الحال جاء من المنصورة ، متفوقا فى الفلسفة وأول التوجيهية فى ذلك العام . . ومن أولى مشاكلى أننى لا أجد مكانا معينا أذاكر فيه دروسى . . ولا أجد أحدا أعرفه . أجلس معه ونفكر معا فى هذه الهموم الثقيلة على نفوسنا ، وفى صعوبة المواصلات ـ أى فى صعوبة أن ندفع ثمن تذكرة الترام فى ذلك الوقت من ٢٥ عاما .

ووجدتنى أتجه إلى جمعية الإخوان المسلمين ، ووجدتهم يختاروننى أمينا للمكتبة ولم يكن هناك خلاف على شىء : فنحن جميعا مسلمون نصلى ونصوم ، أحيانا نذهب فى الشجاعة والقدرة على مواجهة الناس إلى الخطب فى المساجد وإلى نظم القصائد فى الهجرة النبوية وفى مولد الرسول ﷺ . .

وفى ذلك الوقت ، ولا أعرف لماذا ، جاءنى واحد من الإخوان المسلمين يعمل فى محل شيكوريل ، وتوسم الخير فى عقلى ودعانى إلى زيارة صديق له فى شارع محمد على . وهناك تركنى وحدى فى بيت واحد يهودى اسمه ليفى . . البيت صغير نظيف . ورأيت على المائدة سلة كبيرة من الفاكهة أدهشتنى : حباتها كبيرة لامعة ، لم أنسها طوال حياتى ، وكانت هذه أول مرة أرى فيها الفاكهة مصنوعة من الجبس ، وجاءنى موسيو ليفى وقال ما معناه إنه سمع عنى كثيرا ، وأنه يجب أن نكون أصدقاء وأن نقرأ معا بعض الكتب ، وقدم لى مجموعة كبيرة من كتب صغيرة عنوانها : «دراسات ثيو صوفية» أى دراسات فى الحكمة الإلهية . . ثم قدم لى مجموعة من كتب أكبر حجما عنوانها دراسات «فيو أنثروبية» أى دراسات فى المحبة الإنسانية . .

وفى ذلك الوقت كنت أتردد على الدير الدومنيكى فى العباسية ، أدرس الفلسفة المسيحية والصوفية المسيحية . وفى ذلك الدير عرفت باحثا مجتهدا اسمه الأب

قنواتى ، وهو أحد الذين اشتركوا فى تأسيس جمعية «إخوان الصفاء» . وخلان الوفاء» وكان من بينهم أستاذ لى . فى الفلسفة الإسلامية هو المرحوم الأستاذ محمود الخضيرى . . ولا أزال صديقا للأب قنواتى ، ومن أشد الناس إعجاباً به وحبا له . .

وقرأت هذه الكتب وغيرها وظللت أتردد على جمعية الإخوان المسلمين ، ولم أذهب فى التفكير إلى أبعد من القراءة وتجميع المعرفة . والتأمل أحيانا ، ولا أدعى أنه كان فى إمكانى فى ذلك الوقت وفى تلك السن ، أن أنظر إلى الدنيا من بعيد . . أتفرج عليها وأتأملها ، وأختار لى طريقا أو أسلوبا فى الحياة ، فذلك شىء صعب ، ولا يتحقق لأى إنسان وسط هذا الزحام من المشاكل والمتاعب والهموم وحزنى على أبى الذى كان مريضا وعلى أمى أيضا . وعجزى عن أن أضبط أعصابى ، فقد خلقنى الله إنسانا شديد الحساسية وعميق الضعف أمام عذاب والديه . وكل ما أتذكره الآن ــ أننى لم أكن ساخطا على أحد . ولا حاقدا على الذين لهم نصيب فى هذه الدنيا أكثر من نصيبى . وسبب ذلك أن مطالبى محدودة . وهى أن أكون تلميذا متفوقا . وإن كنت لم أعرف فى ذلك الوقت : ما الذى بعد ذلك ، أى ما هى القيمة العملية لهذا التفوق ؟ ولا ما الذى يمكن أن يحدث لو مات أبى فجأة ولم أكن موظفا ، ولا حتى ما هى الوظيفة التى أصلح لها . وإن كنت قد توهمت ، أن الإنسان يجب أن يعيش قارئا . ولم يخطر على بالى كيف يمكن ذلك . . أى لم أفكر أين أقرأ وأين آكل وأشرب وبأى شىء أشترى هذه الكتب؟ . وكيف أستغنى بالقراءة عن الناس ؟ .

ولذلك لم أندهش عندما قررت جماعة الإخوان المسلمين فصلى من عضوية الجمعية . أما السبب فهو أننى قد أرهقت ميزانيتها . . لأننى أمضى الليل كله مع زملائى نقرأ فى ضوء المصابيح الكهربية ــ وهذا عبء مادى ليس له مقابل . . أى أننا لا نفعل شيئا من أجل الجمعية يساوى هذه التضحية . فنحن لا نتولى الدعوة أو نشر الفكر . وإنما نستفيد من المكان ومن النور ومن الماء . . وأحيانا يجدوننا قد تساقطنا من الإعياء فنمنا على المقاعد ! .

ولم يعد الرجل اليهودى يسأل عنى ، فقد أخذت الكتب وقرأتها كأن هذا هو المطلوب . ولم أعدأتصل به ولا هو . . فالهدف المطلوب من القراءة لم يتحقق ! .

ولكن زملاء وأصدقاء كثيرين مضوا فى الطريق حتى نهايته . . فكانوا إخوانا متعصبين ، وكانوا ماسونيين وكانوا شيوعيين . .

أى أنهم لم يكتفوا بالاطلاع والمعرفة ، وإنما ذهبوا إلى الاقتناع . . واتجهوا إلى التطبيق . وتآمروا واتفقوا على الصمت وانتظار الفرصة المناسبة لعمل شىء . .

ولكن فى إحدى المحاضرات فى جمعية الشبان المسيحيين جاءنى من يقول لى : أنت تعرف لغات كثيرة فما رأيك لو درست لغة الاسبرانتو ؟ .

ولم أمانع . وأعطانى كتابا ، ووجدت أنها لغة سهلة وأنها قريبة من اللاتينية أو أنها تأخذ من كل لغة عددا من الكلمات . ثم إنهم اهتدوا إلى قواعد سهلة جداً فى تعريف الأفعال والأسماء ـ ولكن عيبها أنها لغة بلا تاريخ . . أى أن أحدا لم يكتب بها ، وأنها فى نفس الوقت لن يكون لها مستقبل . . ولكنها مثل بقية الدعوات الخيالية : تدعو لتوحيد اللسان ، أو توحيد الأديان ، أو توحيد الأوطان . .

واستهوتنى هذه القضية بعض الوقت . والتقيت بأناس كثيرين ، ولكن لم تكن الاسبرانتو ـ ومعناها الأمل ـ مجرد أن يلتقى أناس ليتعلموا لغة . ويكونوا طليعة لتوحيد كل اللغات ، وإنما كانت هناك أهداف دينية وسياسية . .

ووجدت أن إضاعة الوقت ، نوع من الترف لا أقدر عليه . .

فقد كنت تلميذا نموذجيا . . منقطعا للدراسة . وكنت ابنا نموذجيا متفرغا للحزن والبكاء على والديه ، وبين التفرغ للأسى وللدراسة قضيت حياة نظرية انطوائية محدودة هادئة . .

وأحسست أن كل هذه المحاولات لاجتذابى أو تجنيدى : تشبه سلة الفواكه على مائدة ذلك اليهودى : ثمار ضخمة لامعة ولكنها من الجبس . . بلا حياة ولا طعم . . وأن الذين يجدون فيها حياة ، ويجدون لها طعما ، هم أناس وثنيون يعبدون الأصنام الدينية والفكرية ويعربدون فى آمال وهمية . .

ولذلك فتجربتى كعضو فى جمعيات كثيرة غامضة . لم تكتمل . . ولكن أناسا كثيرين قد اكتملت عندهم هذه التجربة ، فانتقلوا من النظرية إلى التطبيق العنيف .

والمدينة الفاضلة هى التى يسمونها فى اللغة اليونانية «يوطوبيا» أى «مكان ما» .

وقد حاول فلاسفة كبار أن يصوروا أحلامهم فى هذه المدن الفاضلة . وحاول آخرون أن يحققوها بالحكمة أو بالعنف .

ولا وجه للشبه بين الذى حاوله الفلاسفة العظماء والمصلحون الكبار ، ورجال السياسة والاقتصاد . وما نقرأ عنه هذه الأيام ، وإن كانت هناك جماعات صغيرة

مماثلة فى أوروبا وأمريكا قد أقامت لنفسها الخيام فى الحقول ، وسكنت الكهوف ، وتعلقت من الأشجار . لنفس السبب وهو : أن المجتمع الكبير جدا لا يعجبهم . ولأنهم صغار جدا ، فقد انعزلوا وانطووا ، ماداموا عاجزين عن طرد المجتمع كله وإلقائه فى البحر ! .

والذى يهمنى كصاحب تجربة هو : ما الذى يدفع الشاب أو الصبى إلى أن ينضم لمثل هذه الجماعة؟ ما الذى وجده فيها ، أو ما الذى وجدوه فيه ؟ .

هذه هى القضية . وإن لم يكن موعد دراستها والتأمل فيها قد حان بعد ، فلا تزال القضية ساخنة . ولا تزال الأعصاب مشدودة ، ولا تزال لها جذور وبقايا وفلول . وسوف يكون الحكم سريعا ، لأن هذه الجماعات قد اختارت العنف . والاعتداء وإراقة الدماء وإقلاق الناس . ولا بد أن يستخدم المجتمع أقوى أساليبه . وحقه الشرعى فى الدفاع عن نفسه . . وسوف يلقى الموت من حكم على الآخرين بالموت . . وسوف يدخل السجن من ألقى بالناس فى سجون الخوف والشك وهذا عدل . أو هو العدل ! .

وتبقى المشكلة كما هى : تحتاج إلى فهم وإلى دراسة .

وقد كتبت فى هذا المعنى . . وقلت إن تكفير التكفير ليس علاجاً . . أى إذا نحن استنكرنا هذه الجماعة ، وأغرقناها شتما وسبا فليس هذا دواء . . تماماً كما نقول : يسقط الزكام . . اللعنة على البلهارسيا . . فليس هذا هو الدواء ! .

وحذرت من قبل أيضا من أن العلاج ليس هو فقط إلقاء القبض على هؤلاء الصبية ـ لأن المشكلة ليست مشكلة أمن وخروج على الأمن فى الدرجة الأولى . إننا قد نصفق لرجال الأمن . . ونشكرهم على ما أدوا من واجب . ولكن ليس هذا هو العلاج : وإنما ماحدث هو أننا عرفنا الميكروب وحدوده ونوعيته ، وعزل الناس المرضى عن بقية الناس ولكى يجىء بعد ذلك العلاج .

وهذه الجماعات لا تختلف فى طبيعتها عن كل الجمعيات الساخنة أو الغاضبة فى كل المجتمعات الإنسانية ، اليوم وأمس وغدا . . لا تختلف إلا فى الاسم وفى أسلوب العمل . .

فهى أولا : سرية ، أى أن أفرادها يلتقون سرا وتكون لهم أسماء تنكرية . وتكون لهم لغة خاصة ، وأماكن خاصة . حماية لأنفسهم من الآخرين الأكبر قوة والأكثر عددا .

وهى ثانيا : تآمرية ، أى أنهم يجتمعون سرا لكى يستعدوا للهجوم على الآخرين ولكى تكون هذه الجمعيات قوية يجب أن تتماسك . ويجب أن تعرف بالضبط طريقها ، وكيف يمكن أن تعتدى على الآخرين وأن تختفى عن العيون لتستعد من جديد .

ولكن أساس قيام هذه الجمعيات أن عددا من الناس ساخطون . وهذا السخط لأسباب كثيرة .

فلا يوجد أحد فى الدنيا إلا وهو ساخط على شىء .

فالذى يقف ينتظر الأتوبيس ساعة ولا يجىء يلعن المواصلات ويلعن الحرب التى أكلت أموالنا . والواقفون فى محطة الأتوبيس ليسوا فى حاجة إلى مذهب دينى أو فلسفى لكى يلعنوا الأتوبيسات . .

ولا أنا ولا أنت فى حاجة إلى نظرية اقتصادية أو دينية لكى ألقى بالتليفون على الأرض ، إذا لم أجد به حرارة . .

ولا أنا ولا أنت ولا هو ولا هى فى حاجة إلى نوع من النظرية لكى أقول : آه . . إذا وخزتنى بدبوس .

فهناك سخط بين الناس لأسباب مختلفة .

ولكن هناك أيضا أناسا يتربصون بالمجتمع . . وهؤلاء الناس على قدر من البراعة فى جذب الآخرين وتجنيدهم والتسلط عليهم . وفى ذلك تلتقى كل الرغبات والآمال من أجل عمل شىء ضد الأغلبية .

لا يتسع المقام لذكر أسماء الجمعيات السرية الإرهابية فى كل الدنيا التى تلتقى سرا وتنفق سرا وتحاول الانتقام أو النسف أو التخريب . . فهناك جمعيات الماسونية . . وجمعية شهود يهوه . . والبهائية . . وجمعية «حراس المدينة» اليهودية . . وغير ذلك كثير جدا وهى جميعا لا تختلف فى شىء .

ومن السهل على هذه الجمعيات الساخطة على أى مجتمع ، أن تقع ضحية ، أو باختيارها ، لقوى أجنبية لها مصلحة أيضا ضد هذا المجتمع . . ضد مصر . أو ضد أى بلد عربى آخر . . وتسقط هذه الجماعة ، كما أسقطت أفرادها . فى قبضة دولة أخرى تساندها بالتجربة وبالمذهب وبالذهب أيضا . وتلتقى كل المصالح الجماعية والفردية والدولية على محاربة مصر ، أو أية دولة عربية أخرى .

* * *

فما هو الموقف بالضبط ـ أى ما هو موقفنا من كل الذى حدث فى مصر ؟ .

لا علم لنا ، ككل ملايين القراء إلا ما تنشره الصحف وتردده الإذاعة ويعرضه التليفزيون . فما هى حصيلة هذا كله ! .

إننا أمام خليط غريب من الناس : مجموعة من الصبية أو من الشبان . . أو أمام مجموعة من الأميين أو طلبة الجامعات وطالبات الجامعات المنتظمين فى الدراسة أو الهاربين من الدراسة أو الفاشلين . . أو أمام عدد من الموظفين وعدد من المتعطلين . .

ثم إن الصحف قد شوشت الصورة أمام القراء فهم لا يعرفون : أى نوع من الناس هؤلاء جميعا ! .

وفى نفس الوقت خلعت عليهم كل أجهزة الإعلام ألقاب : الزعيم ونائب الزعيم والرسول والفيلسوف .

والاضطراب الذى يدير رأس القارئ سببه : أن الصحف تصفهم بضآلة العدد ثم تنشر أنهم بالألوف . . وتصفهم بالأمية ثم تنشر صورا لطلبة جامعات . . وتصفهم بالفلاسفة ثم تقول إنهم أنصاف متعلمين . . وأغرب من ذلك أنها تتهمهم جميعا بالكفر وفى نفس الوقت تقول إنهم لا يؤمنون إلا بالقرآن والسنة ؟ ! .

وقد حذرت من المبالغة فى التهويل والتهوين : لأن هذا خطأ فى التشخيص وإذا كان التشخيص خطأ فالعلاج كذلك .

وهذه غلطة فظيعة تقع فيها كل الصحف بحسن نية ، وهى غلطة لأننا نبالغ جدا فى خطورة هؤلاء الناس ، وفى نفس الوقت نبالغ فى تفاهتهم . .

وعندما نبالغ فى خطورتهم فإننا نصنع شيئا يخيفنا أكثر . فنحن إذن الذين نصنع الخوف ثم نشكو منه . .

ونحن عندما نبالغ فى تفاهة هؤلاء الناس ، ننسى أننا نسخر من أنفسنا أيضا إذ كيف يكون هؤلاء الناس تافهين وقادرين على ارتكاب هذه الجرائم وقادرين على تجنيد هذه الألوف سرا ودون علم من كل أجهزة الأمن؟ . .

ثم كيف تكون مخاوفنا الفظيعة تافهة المصدر إلى هذه الدرجة ؟ .

أليس معنى ذلك أننا فى النهاية أكثر تفاهة منهم ـ مع أننا لا نقصد ذلك ؟ .

ومعنى ذلك أننا لا نعرف ما الذى نقصد ؟ فيا حيرة القارئ الذى يعتمد على الصحف كمصدر للمعلومات ـ كمصدر وحيد للعلم والمعرفة والأمن والأمان ؟! .

وما حدث قد حدث . .

والدماء التى جفت لن تسيل . .

والذى مات لن نعيد له الحياة .

يجب أن نتأنى فى نشر كل الأنباء . .

وأن نجند أقلامنا وحناجرنا ومشارطنا وعدساتنا لشرح هذا الذى حدث . .

يجب أن نفهم ما الذى دفعهم إلى ما عملوا . . يجب أن ننقذ ملايين الشباب والصبية الأصحاء حتى لا يستهويهم هذا الشذوذ أو هذا الانحراف . .

إن وقت الجد قد حان . .

إن تجربتى لم تكتمل فى بداية حياتى كطالب جامعى لأننى لم أكن ساخطا على أحد أو على شىء . . وأهم من ذلك أننى لم أكن أريد شيئا أكبر مما ينبغى أو أكثر مما أستحق . . وإننى لم أعط رأسى لأحد . . ولامددت ذراعى لسلاح . . ولا أعطيت غيرى فرصة أن يجندنى فأشترك فى التآمر على الآخرين لأسباب شاذة . . إن ملايين الشباب كانوا مثلى ، ولا يزالون .

ولكن الأقلية الخطرة ليست كذلك ، وواجبنا أن نعرف لماذا وكيف ومتى وحتى لا نعود إلى الدم والنار ، صحيح أنهم لم يقتلوا إلا واحدا . . ولكن واحدا ليس قليلا . . لأن هذا الواحد لم يكن إلا البداية ! .

* * *

سوق السلام .. سوق السلاح !

عندما ظهر الطيار الأمريكى الذى ألقى أول قنبلة ذرية فى التاريخ على شاشة التليفزيون . سئل عن شعوره وهو يدمر مدينة بها مائة ألف إنسان قال : كان شيئا رهيبا . ويومها كتبت فى مذكراتى : يا إلهى ما هذا الذى ارتكبت ! .

وردد العالم كله من ورائه : إن هذه جريمة . وإن ضمير الإنسان لن يقوى على ارتكاب مثلها مرة أخرى ! .

وهذا ما حدث فلم يعد الإنسان قادرا على ارتكاب جريمة إلقاء قنبلة ذرية «صغيرة» كهذه على مدينة كبيرة ، وإنما اتجهت الإنسانية إلى صناعة قنابل أكبر لتحقيق دمار أعظم ! .

ثم من الذى يدعو للسلام فى العالم ، وإلقاء السلاح وحقن الدماء؟ إنها نفس الدول التى لديها أكبر سوق للسلاح : أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا .

وهى نفس الدول التى تعطى للعالم كله عقيدة جديدة هى : أنه لا سلام بغير سلاح وأنه لا نهاية للحروب إلا بمزيد من الحروب لأنه لا وسيلة لإلقاء السلاح إلا باستخدام السلاح ! .

وأن الحرب والاستعداد للحرب وضرورة القتال ليست شيئا خارجا عن إرادة الإنسانية . . إنها شىء فى طبيعة الإنسان . فالحرب هنا فى داخلنا . . وليست هناك خارجنا .

ولذلك كانت صعوبة القضاء على الحروب . .

لأنها فى طبيعة البشر . .

ولم تتغير طبيعة البشر منذ قتل قابيل هابيل . . ولم تعرف الإنسانية حربا واحدة واضحة الهدف إلا مرة واحدة : حرب طروادة فقد كان الرجال يحاربون من أجل إنقاذ امرأة ! .

أما بقية الحروب الأخرى فلا أحد يعرف لها هدفا واضحا أو شعارا مؤكدا . . وإنما عبارات الأصدقاء هى نفسها عبارات الأعداء . . وكل من المتحاربين يرى أنه على حق . . إنهم يستخدمون نفس الكلمات . . ويحرمون ما يحلله غيرهم : ويحللون ما يحرمه عدوهم . .

والدول التى عندها سلاح ليس عندها فلوس لهذا السبب . .

والدول التى عندها فلوس ليس عندها سلاح ، ولذلك تشتريه حتى لو لم يكن هناك هدف واضح لذلك . . وإنما السلاح هو استكمال للوجاهة الدولية . .

وقديما كان يقال : المدافع قبل الزبد . .

أى يجب أن تشترى المدافع قبل أن تشترى الرغيف والزبد . .

فالشعوب تجوع ولا تهزم . .

فإذا انتصرت عادت فأكلت الزبد مكافأة على أنها حملت السلاح ولكن المصيبة أن الذين يأكلون هم الذين لم يحاربوا ـ أو هذه إحدى مآسى الحروب . .

ومنذ الحرب العالمية الثانية نجد أن الدول التى تأكل الزبد هى الدول التى ليست لديها جيوش : ألمانيا واليابان . . فقد نهضت هاتان الدولتان أقوى من الدول التى انتصرت عليهما فى الحرب العالمية الثانية .

والجيوش تحتاج إلى مال ، نزيف مالى لا ينتهى ، لأن الأسلحة مثل موضات السيدات تتغير عاما بعد عام . . وكلما ظهر سلاح يجب أن يظهر سلاح آخر مضاد له . . وهكذا . .

وبذلك تظل الدولة تخطف الرغيف من أسنان أبنائها لتشترى المدافع ، وتخطف الزبد لتشترى الدبابات . والسلاح يستدرج السلاح .

فإذا بدأت دولة فى شراء أسلحة فإنها لن تتوقف حتى لا تتحول الأسلحة فى يدها إلى حديد خردة . . لابد من تجديدها وتعديلها . . و«تعصيرها» و «تحديثها» ـ أى جعلها عصرية حديثة . . والتاريخ يقول لنا : إن الحيوانات التى انقرضت هى الحيوانات المدرعة . . التى كان جلدها درعا كالحديد تحتمى وراءه وفى نفس الوقت تختنق به تماما . كجنود العصور الوسطى الذين يرتدون البدل الحديدية . . إنها تحميهم ولكنها تخنقهم أيضا ولو وقع جندى على الأرض فإنه لا يقوى على النهوض . .

وكذلك انقرضت حيوانات الديناصور والماموث . . لماذا ؟ لأنها حيوانات

مدرعة . . حيوانات مسلحة ضد أنياب ومخالب الحيوانات الأخرى ولكن هذه الحيوانات الضخمة ، لأنها ضخمة ، كانت أقل حرية . . لأنها عاجزة عن الحركة ، لذلك كانت دروعها سجنا أو قبرا لها . . فهى تواجه العالم بقوة ولكنها تواجه نفسها بضعف وعجز . .

وأذكر أننى كنت أقتنى سلحفاة صغيرة جداً واختفت وظللت أبحث عنها فى كل مكان فى البيت . . وأخيرا وجدتها ميتة فى واحد من أحذيتى . . فقد تسللت السلحفاء إلى حذائى الذى كان واقعا على جانبه . . ولما دخلته اعتدل الحذاء وانقلبت هى على ظهرها ولم تستطع أن تعتدل فماتت . .

وكذلك ماتت الحيوانات المدرعة . . وكذلك تموت الدول المدرعة التى اختارت أن تتحول إلى ترسانة للسلاح تنتظر الموت . . موتها وموت غيرها . . ماتت هذه الشعوب جوعا وخوفا . . وهى تعلن ـ صادقة أنها تريد السلام ـ ولكنه سلام يقوم على السلاح أى على الاستعداد للحرب . .

ويبدو أنه مكتوب على الشعوب أن تعيش محرومة من الاستفادة من كل دخلها أو خيراتها . .

وكما أن الفراعنة استنفدوا أموال الشعب المصرى وقدراته فى بناء الأهرامات فإن كل شعب لابد أن تكون له أهرامات من نوع خاص فأمريكا وروسيا لهما أهرامات ، هى صناعة سفن الفضاء الى أنفقوا عليها ألوف الملايين . . وبدلا من أن ينفقوا هذه الألوف على الشعوب التى تحتاج إلى الطعام وإلى العلاج ، فإنهم قد بددوا هذه الأموال : صواريخ فى الهواء .

وليست الجيوش والإعداد والاستعداد لها إلا : أهرامات جديدة تضيع عليها الألوف . .

وبذلك تجد الشعوب نفسها محرومة من كل الضروريات لأنها لابد أن تشترى السلاح دفاعا عن الذى تملكه من الأرض وعن الأمن والأمان والرخاء الذى تحلم به . .

كأنه مكتوب على البشرية أن تعيش فى خوف وأن تعيش فى جوع . . لأنها قررت أن تشترى المدافع بالزبد ، والطائرات بالرغيف والدبابات بالأمان ، والمستقبل البعيد بالحاضر القريب ! .

* * *

وأكبر دولتين تبيعان السلاح فى العالم هما : أمريكا وروسيا . .

وتتواجه الأسلحة السوفيتية والأسلحة الأمريكية فى كل مكان . . وإن كانت روسيا وأمريكا لا تتواجهان . أو تحرصان على ذلك . . حتى لا تتوقف تجارة السلاح . .

وقد أعلنت بريطانيا وفرنسا على استعدادهما لبيع السلاح للصومال . .

وبعد أن طردت السودان الخبراء السوفيت اتجهت إلى الدول الغربية لشراء السلاح . . وأعلنت أمريكا أنها سوف تساعدها فى ذلك .

والسودان تقع على حدود ليبيا فى الشمال وأثيوبيا فى الشرق . . وكلتا الدولتين : ترسانة للسلاح السوفيتى المتطور . . وكلتاهما تهددان أمن السودان . . وقد نسقت ليبيا مع أثيوبيا العدوان على السودان . .

وتشاد : تحتل ليبيا أرضها وتشجع التمرد على الحكومة القائمة ، وتمد العصابات بالسلاح . وتشاد تعتمد حتى الآن على السلاح الفرنسى . . ولكن هذا السلاح الفرنسى لا يجىء بالقدر الكافى . ووعدت أمريكا بالمساعدة الفورية . .

* * *

وأكثر الزبائن إقبالا على سوق السلاح : دول الخليج . . لديهم المال الكثير . ولابد من استكمال السيادة بشراء السلاح واشتروا السلاح بكميات هائلة وبعمولات صارخة . وكثير من دول الخليج قد تكدس لديها السلاح ، ولم تستخدمه بعد . . وبعضها تسلمت السلاح ولكنها غير قادرة على استيعابه .

ولكن هذا لم يوقف شحن السلاح المتطور إلى هذه المنطقة من العالم .

وكما أن الخوف الشديد يؤدى إلى الجرأة فإن تكدس السلاح يؤدى إلى التحرش أو افتعال الكراهية حتى يتحقق القتال . وقد حدث وسوف يتكرر كثيرا ! .

وبعض الدول الأوروبية آثرت أن تخرج من سوق السلاح مثل اليابان وألمانيا .

أما ألمانيا فإنها مشغولة بصناعة أسلحة لها . . أو صناعة مفاعلات نووية وبيعها فى أمريكا اللاتينية . . أو أنها تنفذ عقوداً لإيطاليا ، ولكنها لا تتعامل بالسلاح مباشرة .

ومن المؤكد أن بريطانيا وفرنسا سوف تنزلان إلى بيع السلاح على أوسع نطاق . .

إنها تجارة رابحة ، وضرورتها تتزايد وتتصاعد . . ولا يحق للدولتين العظميين أمريكا وروسيا أن تلوما أحداً ، ولأن اللوم كله يقع عليهما . . ولا تجرؤ إحداهما على أن تمسك غصن الزيتون ، دون أن تخفى قطرات الدم التى تنزف منه فى كل مكان . .

وإسرائيل تبيع كل أنواع الأسلحة فى أى مكان : طائرات وإلكترونيات .

حتى الأرجنتين قد فتحت سوقا لنوع خاص من السلاح : طائرات الهليكوبتر الحربية . .

والدول التى لا تبيع السلاح تبيع الخبرات العسكرية . . أى تبعث بالمدربين والمهنيين والإداريين . .

فإلى جانب الأسلحة ظهرت «الخبرة» كسلعة جديدة فى «سوق السلاح» الذى يضع النار والماء معا ، الذى يقوم بتربية الحمائم والصقور فى أقفاص متجاورة .

إن الذى يدعو إلى نشر السلام يقضى عليه بالحقد ، والذى يبذر الكراهية يناشد العالم أن يبددها بالمحبة : إنه جنون نعم . . ولكن من هو العاقل ؟ .

هل هو الذى يبيع؟ هل هو الذى يشترى؟ إن أساطير الإغريق قد حدثتنا عن أن جميع الآلهة قد ماتوا . . إلا إلها واحدا مع الأسف ـ هو إله الحرب ! .

* * *

شياطين في كل جنة

حتى الجنة من الممكن أن تكون فيها قطعة من جهنم ـ هكذا قالت التوراة والقرآن الكريم .

ففى الجنة كان آدم وحواء . . وكان شيطان . . ولذلك ولد العصيان . . التوراة تقول لنا : الشيطان أوحى إلى الثعبان . . والثعبان أغرى حواء . . وحواء أغرت آدم أن يأكل من الشجرة المحرمة . . فكانت الخطيئة الأولى أنزلت آدم من السماء إلى الأرض .

والقرآن الكريم يقول إن الشيطان أغرى آدم أن يأكل من الشجرة التى حرمها الله . وكانت هذه الخطيئة التى ملأت الأرض بملايين الناس . . فلم يكن معقولا ولا محترما أن يكون آدم وحواء زوجين فى الجنة . . يحدث بينهما ما يحدث بين الأزواج فى حضرة الله والملائكة . . ولذلك كان من الضرورى أن يهبطا إلى الأرض . . وأن يحدث بينهما على الأرض ما يحدث بين بقية الحيوانات الأخرى . .

حتى الجنة كان فيها شيطان . . والشيطان هو أحد أبناء جهنم . . فالجنة بها ـ إذن ـ قطعة من النار . . .

هذه الجنة ـ بجميع المقاييس الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هى ألمانيا الغربية فى الثلاثين عاما الماضية . . فما الذى جرى فيها ؟ ! .

إن أوروبا التى اتحدت على تحطيم ألمانيا شعبا وأرضا ومصانع واتفقت على إذلال الألمان وعقابهم على جرائم هتلر وإبادة عشرات الملايين فى سنوات قليلة . لم تستطع أن تجعل ألمانيا خرابا . . ولا استطاعت أن تقضى على العبقرية الألمانية فى البناء والحرص على الإبداع فى كل شىء . . ولذلك ، ورغم كل محاولات الهوان والإذلال والانتقام ، نهضت ألمانيا حتى أصبحت أقوى وأغنى دولة فى أوروبا . . ومن المؤكد أنها هى واليابان . . أغنى دولتين فى العالم . .

وامتلأت الأسواق والمحلات بكل ما يتمناه مئات الملايين فى كل مكان فى العالم : وفرة فى السلع . وأهم من ذلك : أمن وأمان . . وأعظم من ذلك : آمال لاحدود لها فى حياة أروع وأعظم . .

ولكن هذه الجنة ـ ككل جنة ـ ظهر فيها العفاريت . وهؤلاء العفاريت على شكل أناس يرفضون الرخاء ويرفضون المصانع والشركات والمؤسسات ويتمردون على «الانضباط الجرمانى» الشهير . .

ولم تكن لهؤلاء المتمردين أية مطالب مادية . . فليسوا جياعا يطلبون الرغيف . فقد أبطلت ألمانيا تناول الرغيف من ثلاثين عاما . إنها تأكل أنواعا عظيمة من الكعك والفستق واللوز والشمبانيا والكافيار . .

وإنما هم فقط يريدون أن يحطموا الزجاج الشفاف فى أى موقع . . إنهم يريدون أن يكسروا الفرامل . . إنهم يريدون أن يلقوا الوحل على الوجه المشرق للمجتمع السعيد . .

وبدأت مظاهرات الطلبة سنة ١٩٦٠ . . وكانت مظاهرات الطلبة نوعا من الغضب . ولم يكن ذلك الغضب منظما . فهو غضب بلا برنامج ولذلك فهو سخط بلا مطالب .

* * *

ولم يكن لديهم إلا مطلب واحد هو : أن يعرف ملايين الألمان أنهم غير راضين . وأنهم ساخطون وأن الجنة قد ضاقت بهم . أو هم الذين ضاقوا بها . وأن هذا هو الخلاف الوحيد بينهم وبين أبيهم آدم وأمهم حواء . . فآدم وحواء قد استدرجا إلى الخطيئة . أما هذا الجيل الألمانى الجديد ، فهو الذى أراد الخطيئة ورفض التكفير أو التوبة عنها . .

وعلى الرغم من أن ألمانيا قد شربت المر ألوانا وأشكالا وأحجاما من روسيا وأمريكا بسبب النازية ففيها الآن حزب نازى . . أو أحزاب نازية . . ودور النشر الألمانية تقدم للناس اعتذارات لهتلر وشركات السينما تقدم أفلاما تروى أمجاد هتلر وعظمة الشعب الألمانى . . وإنه لم يكن من العدل أن يقع الشعب الألمانى فى المصيدة التى نصبتها شركات السينما اليهودية الأمريكية : فيرى الألمان أنفسهم وحوشا ، ويرون هتلر مصاصا للدماء . . فهتلر لم يكن سوى قائد كبير انهزم . والويل للمغلوب ـ عبارة قالها الألمان قبل ذلك أيضا ! .

ففى ألمانيا اتجاهات نازية . تطالب بالتخلص من الاحتلال الأمريكى ، وتواجه الإرهاب السوفيتي . . ووقف الشعب الألمانى من جديد على قدمية . فألمانيا قد عاقبها الحلفاء كثيراً وطويلا ، عاقبوا هذا الجيل على أخطاء أجيال سابقة ! .

وشياطين الجنة الألمانية قد أصبحوا عصابات فى سنة ١٩٧٠ تخطف وتسرق وتلقى القنابل وتطلق الرصاص أيضا .

وآخر جرائم هذه العصابات أن تهجمت عصابة على مدير بنك ألمانى فى بيته . وأطلقوا عليه الرصاص ، واهتزت ألمانيا كلها . لا لأن الرجل كان مديرا لأكبر البنوك الألمانية . إنما لأن الرجل قاوم هؤلاء الإرهابيين ورفض أن يستسلم لهم . فلقى مصرعه . .

لأنه هو أيضا قد رفض الإرهاب وحكم الإرهاب . وكان بذلك مثلا يجب أن يحتذيه كل الناس . . أن يرفضوا هؤلاء الرافضين .

ولسبب آخر اهتمت ألمانيا كلها : فقد كان من بين الذين هاجموا هذا الرجل فتاة . هذه الفتاة ابنة لأحد أصدقاء هذا الرجل . وكانت تحمل فى يدها باقة من الورد ! .

* * *

وهذه الفتاة ابنة رجل مليونير . ولما سئلت عن سبب ارتكابها لهذه الجريمة قالت : لقد مللت أكل الكافيار والديوك الرومية والشمبانيا ! .

إنها قد رفضت الجنة الألمانية ! .

ومن الغريب أن عددا كبيرا من الفتيات قد انضممن إلى هذه العصابات الألمانية . . ومن بينهن ابنة أحد القساوسة . .

وأشهر عصابة عرفتها ألمانيا كانت عصابة بادر ـ مينهوف . . أى الفتى بادر والفتاة مينهوف . أما هذا الفتى فلا يزال فى السجن . وأما الفتاة فقد وجدوها ميتة فى زنزانتها . . وقد حوكم جميع أفراد هذه العصابة . .

وظهرت عصابة أخرى من الذين كانوا يدافعون عن هذه العصابة من المحامين الشيوعيين . . هذه العصابة هى التى اغتالت المدعى العام فى أبريل الماضى . وقبل ذلك قتلت أحد القضاة . .

وقبل هذا خطفت أحد الساسة الألمان . . وهاجمت السفارة الألمانية فى استوكهلم . . وخطفت بعض رجال منظمة البترول العالمية . .

وهؤلاء جميعا من الشبان . .

وليسوا من المجرمين أو الذين اعتادوا الإجرام . ثم إنهم من المتعلمين . وأكثرهم من أبناء الطبقة الوسطى القادرة . أما الباقون فهم من أبناء الأغنياء . .

* * *

ولا وجه للمقارنة بين الذى حدث فى ألمانيا ـ جنة أوروبا ـ وبين ما حدث فى أمريكا أغنى وأقوى دولة فى العالم . فأمريكا بها أيضا ملايين الفقراء . وبها عشرون مليون زنجى . وبها ملايين من أبناء الشعوب الأخرى ـ الشعب الأمريكى نفسه خليط من كل الأجناس ، ولايوجد أمريكى أصيل إلا الهنود الحمر ! .

ولكن حادثة واحدة وقعت فى أمريكا لها دلالة . وهى حادثة الآنسة باتى هيرست ابنة أحد أصحاب الصحف . هذه الفتاة خطفتها من بين أحضان عشيقها ، عصابة اسمها «عصابة التكافل» أو «التعايش» وهذه العصابة ليست لها أية أهداف إجرامية . وإنما هم جماعة يطالبون الأغنياء بأن يكون عندهم قليل من الدم . فيعطوا الفقراء فائضا من طعامهم وشرابهم . وبسرعة أقنعوا ابنة المليونير هيرست أن تكون معهم . وأرسلت إلى والدها تطلب إليه أن يعطى الفقراء والمساكين ، واشترطت العصابة لكى تطلق سراح هذه الفتاة أن يتصدق أبوها على الفقراء . . وراح الرجل يطعم الفقراء بما يعادل مليونى دولار . . فطلبت العصابة مزيدا من الطعام للفقراء فأنفق الرجل أربعة ملايين دولار أخرى . .

وبعد ذلك أعلنت العصابة أنها لن تطلق سراح الابنة ، لأنها لم تعد رهينة ولا محتجزة وإنما هى عضو عامل . وهذا صوتها . . وأرسلت الفتاة تسجيلا صوتيا للإذاعات الأمريكية تؤكد هذا المعنى .

ولم تكتف الفتاة بأن تنضم إلى العصابة إنما بأن تكون عضوا عاملا ، وشاركت فى السطو على أحد البنوك . واختارت العصابة بنكا به كاميرات تليفزيونية . . لكى تلتقط هذه الكاميرات صورة باتى هيرست وهى تطلق الرصاص . . وفى ذلك إعلان عن أنها عضو عامل . . ولم يكن الدافع للسطو على البنك : أن يحصلوا على المال . وإنما أن يحصل العالم كله على «صورة تليفزيونية» للفتاة باتى هيرست ابنة المليونير التى انضمت إلى جيش شعبى ضد أصحاب الملايين .

وتساقط أفراد هذه العصابة . . وسقطت ابنة المليونير أيضا ! .

أ. فى ألمانيا فقد رأت الهيئات العالمية : أن الذى حدث شىء جديد على الحياة الألمانية . ولذلك : يجب تشديد القوانين الرادعة . حتى يكون هؤلاء الشبان عبرة لغيرهم من الناس، وحتى لا يفسدوا هذا النعيم الذى يتمتع به ستون مليونا من الألمان . .

أما وزير العدل الألمانى فقد أعلن : أنه من الضرورى عزل هؤلاء الساخطين أخلاقيا وسياسياً ! .

أما وزير الداخلية فقد كان أصدق وأعمق فى فهمه للموقف ، ولذلك فقد طلب إلى الهيئات العلمية النفسية والاجتماعية والصحية أن تعاونه على فهم هذا الذى حدث . وأن تقدم له تفسيرا علميا وتشخيصا نفسيا اجتماعيا حتى يواجه «هذه الظاهرة الغريبة عن الصبغة الألمانية فى الانضباط التقليدى» .

* * *

. . فحتى الجنة التى كانت فى السماء والجنة التى هى فى الأرض لابد أن تظهر فيها قطعة من جهنم : شيطان أو قرصان . . أو رصاص أو مدافع . هذا طبيعى .

ولذلك يجب أن ننظر إلى مثل هذه العصابات وإلى الصور المختلفة للغضب أو السخط أو التمرد بالعقل . . أن نواجهها . . أن نتروى فى فهمها . . وألا ننفعل . . وأن تكون لنا أعصاب الجراحين فلا يبكون وهم يرون الدم ، ولا يتوجعون لأوجاع المريض . . ولا يلعنون المرض ولا يهتفون بسقوط الألم . .

فليس علاجا أن نلعن المرض ، وليس شفاء أن نهتف بسقوطه . . ولكن نصف العلاج ، أن نفهم الداء ـ إن كان داء . .

* * *

والنصف الآخر أن نقبل عليه بعقل وهدوء ونحاول أن نفهم ، لكى يفهم الآخرون . وحتى لا يقع ما وقع مرة أخرى وبصورة أعنف . .

إن هذه كلمة مخلصة . هادئة ـ فقد جاءت بعد النظر إلى ما يحدث فى مجتمعات أخرى أفضل وأقوى وأغنى . فما بالنا إذا حدث ذلك فى مجتمعات أكثر فقرا وأشد تمزقا وأعمق حيرة مثل مجتمعنا .

* * *

النار على الحدود لعبة كل العصور

رأيت فيلما قديما عن مشكلة تريستا بين إيطاليا ويوغوسلافيا . وكانت الدول الكبرى قد قسمت المدينة بين الدولتين ووضعت على الأرض علامات بيضاء ، كعلامات المرور . . ولكن الناس يقومون بحياتهم العادية دون أن يشعروا بهذه الحدود المرسومة على الأرض . .

ولكن الذى لفت عيوننا إلى هذه الحدود : مجموعة من الأطفال الصغار . اختلفوا . تشاجروا . جاء رجال الأمن ، وأعادوا كل مجموعة إلى مكانها من المدينة . . كنا نرى الأطفال وهم يقفزون من فوق العلامات البيضاء . . كأنها علامات شائكة أو كأنها جدران عالية . . مع أنها بقع على سطح الأرض . .

ومعنى ذلك أن الحدود والفواصل قد انتقلت مع سطح الأرض إلى ما تحت الجلد . .

فأصبحت حدودا نفسية أو أصبحت علامات شائكة . . تفصل بين الأطفال وهم يلعبون ، أو بين آبائهم عندما يتشاجرون . . أو عندما تسيل عليها الدماء . .

ومشكلة الحدود بين الشعوب ومشكلة الحدود بين الأشخاص قديمة . فعمرها هو عمر الحرية والملكية الخاصة . عندما تقول : هذا لى . . وهذا لك . . أى هذه حدودى ، وتلك حدودك . . وعندما تنتهى حدودى تبدأ حدودك . . والقانون هو تنظيم لهذه الحدود . والقانون هو الحق الذى تسانده القوة .

ومنذ كانت هناك قوة كان هناك اعتداء على حدود الآخرين . . أو على حق الآخرين . . وإذا ما وقع العدوان نوقشت قضية «الحدود» بين الناس . . أو بين الدول أو بين الشعوب .

وكانت الصورة الساذجة للحدود والأمن فى العصور القديمة عندما تحاط المدينة أو الدولة بسور عظيم . . ووراء هذا السور . وفوقه توجد القوى التى تحمى الشعب . . وكانت القوات المعادية تقف أمام الأسوار وتحاول أن تحطمها . . وذلك بأن ترميها

بالحجارة أو تلقى عليها مشاعل الغاز . . أو تضع عليها السلالم وتحاول الهبوط إلى الناحية الأخرى . .

ووراء هذه الأسوار كان الأغنياء ـ أى الأقوياء أيضا ـ يحيطون قصورهم أو قلاعهم بالمياه . . وكانوا يمدون على الحياة جسورا . فإذا جاء الليل ، أو حدث عدوان ، أو حتى لا يقع عدوان ، فإنهم يرفعون هذه الجسور . . وبذلك يصبح القصر أو القلعة جزيرة وسط بحر من الماء ، أى من الأمان ! .

كان ذلك فيما مضى . .

وأصبحت هناك حدود لونية . . السود والبيض والصفر . . وحدود لغوية . .

ثم مع قيام الدول المستقلة الحديثة ، والمتمردة على التبعية وعلى الكتل السياسية والاقتصادية تغيرت الحدود وتعدلت وتبدلت . . والتوت واعتدلت . وتاهت فى الغابات وفى الصحارى وفى المياه . .

وكان لابد من إعادة رسم الحدود . وإعادة تثبيتها أو الاتفاق أو المساومة على ذلك . . ؟ .

وذلك تاريخ طويل جداً . . هذا التاريخ الطويل للحدود التى تلتوى ويبتلع بعضها لبعض ، سوف يعاد من جديد فى أفريقيا . .

فاللعبة الجديدة فى أفريقيا هى الحدود . . التى تتحول إلى أنواع من الأفاعى أو أصابع الديناميت . . وعلى الحدود تقف الدول الكبرى ، أو الدولتان العظميان تلعبان بالنار . . أى بأسعار النار ، إنهما تبيعان أحدث أنواع النيران للشعوب النامية . . ومن وراء روسيا وأمريكا تقف بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تبيع النار . . وفى نفس الوقت تقوم كل هذه الدول بدور رجال المطافئ !! .

وكانت الأسوار حدوداً آمنة . .

وكانت الموانع المائية حدوداً آمنة . . ولكن بعد أن ابتدع الإنسان المدافع سقطت الأسوار . . وبعدأن اخترع الطائرات والقنابل سقطت القلاع والتحصينات أيضا .

ولما ظهرت الصواريخ لم تعد هناك حدود آمنة . . إن حرب أكتوبر قد أسقطت الحدود الآمنة . . فلم تكن قناة السويس مانعا مستحيلا . ولا السواتر الرملية ولا خط بارليف .

فقد اجتازتها جميعا الصواريخ والطائرات والدبابات . . وظهرت حدود عائمة :

هذه الحدود العائمة هى حاملات الطائرات الأمريكية والروسية . إنها قطع من أمريكا وروسيا ، أو هى حدود الدولتين تسبحان بالنار فوق الماء . وبالقرب من الشواطئ . .

وبذلك لم تعد هناك حدود أيا كانت فى مأمن من ضربها والعدوان عليها لأى سبب ! .

وإذا نظرنا إلى مشاكلنا مع إسرائيل ، أو حتى مشاكل الدول العربية بعضها مع بعض لوجدنا أن الحدود عائمة مائعة . .

إن إسرائيل وحدها لم تنشر خريطة رسمية بعد ، فمازال فى داخلها مجانين يطالبون بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات . .

وإسرائيل ودول المواجهة ، لم تتفق على حدود أو اتفقنا . ولم تحصل على الحدود بعد . . وبين الدول العربية ذاتها مشاكل حدود . . بين دول الخليج وكذلك بين دول المغرب . . وبين السودان وجيرانها . . وبين أثيوبيا والصومال وبين دول أفريقيا الاستوائية . .

ولم يكن سهلا فى التاريخ أن تكون هناك أكثر من فيتنام وأكثر من كوريا وأكثر من ألمانيا وأكثر من هند وباكستان وبنجلاديش . . وأكثر من أيرلندا وأكثرمن يمن . . ! .

إن هذه اللعبة القديمة قدم الطغيان والظلم ، سوف تتجدد بكل أشكالها القديمة ، وبأحدث الأسلحة وأغلى الأسعار . فى قارتنا أفريقيا . . وفى الشرق الأوسط حول قناة السويس حول آبار البترول ! .

* * *

لو أن أحد ركاب طائرة وتفرج على معاركنا مع اليهود لوجد هذه الصورة التي لم تتغير في حروب ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، و٧٣ وأية حرب قادمة ـ والعياذ بالله ـ عدداً قليلاً جداً من المشاة اليهود وعدداً كثيراً من الدبابات والمصفحات . . وعدداً كثيراً جداً من المشاة المصريين وعدداً أقل من الدبابات والمصفحات . .

ومعنى ذلك : أننا نحمى أسلحتنا لأنها قليلة ، وهم يحمون رجالهم لأن أسلحتهم كثيرة . ورغم كثرة الأسلحة الإسرائيلية فإن ضحاياهم فى حرب أكتوبر تساوى ضحاياهم فى حرب ٥٦ و ٦٧ . . أو بعبارة أخرى : إن نسبة ضحايا اليهود فى حرب ٧٣ تعادل نسبة ضحايا الأمريكان فى الحرب العالمية الثانية . . فاليهود

قد خسروا ثلاثة آلاف جندى وعشرة آلاف جريح من شعب عدده ثلاثة ملايين إلا قليل (الأمريكان ٢٢٠ مليون) . .

ولم تنته مشاكل إسرائيل السياسية والاجتماعية والعسكرية والدينية بسبب مصائب حرب أكتوبر . ولكن اليهود حاولوا إصلاح الخلل النفسى والعسكرى بسرعة . وحاولوا تعويض النقص وحاولوا تغيير الكثير من عقيدتهم العسكرية ليواجهوا الجيش المصرى فى أية حرب قادمة .

وفى نفس الوقت فإن الجيش المصرى يرفع كفايته القتالية . ويواصل تدريبه المستمر وينوع ماركات الأسلحة ويستكمل النقص فى قطع الغيار السوفيتية . وذلك بابتداع أشكال جديدة ، والاستعانة بالدول الغربية . . وتصنيع السلاح أيضا . .

ولابد من الاستعداد للقتال لكى نصبح قادرين على تحقيق السلام . . أو لكى نصبح قادرين على أن نوالى البحث أو التفاوض من أجل السلام . وفى نفس الوقت نمشى فى إصلاح خلل الخدمات ونوالى البناء والتعليم والتعمير والعلاج وفرض العدل بالقوة وتأمين الحرية ــ وكلها معارك . وإن لم تكن فيها دماء . . فهى معارك عصيبة عنيفة ! .

وبعد حرب أكتوبر مباشرة كلفت إسرائيل قاضى القضاة سيمون أجرانات بتشكيل لجنة لبحث حقيقة ماجرى فى حرب أكتوبر . واستدعت اللجنة كل القيادات . وحققت معهم . وانتهت اللجنة إلى تشخيص وإلى علاج . وجاء التشخيص والتوصية بالعلاج فى أكثر من ألف صفحة . نشرت إسرائيل ملخصا له فى سنة ١٩٧٤ . ولم يوزع تقرير لجنة أجرانات كاملا إلا على أربعين شخصا من القيادات السياسية والعسكرية والدينية . أما ملخص هذا التقرير فقد تم توزيعه على جميع ضباط الجيش الإسرائيلى حتى رتبة النقيب .

وأهم المشاكل التى عرض لها التقرير أربع :

الأولى : أخطاء المخابرات .

الثانية : أخطاء عدم الانضباط .

الثالثة : أخطاء التعبئة العامة .

الرابعة : أخطاء تسلسل القيادة .

المشكلة الأولى:

إن المخابرات الإسرائيلية لم تفلح فى معرفة أن المصريين يستعدون للقتال حقا .

وربما كان الخبر الوحيد الذى يدل على ذلك هو الذى تلقته رئيسة الوزراء جولدا مائير وهى تبكى ، وكان قبل بدء القتال بتسع ساعات . وأول أخطاء المخابرات الإسرائيلية أخطاء مدرسية . أى أن المخابرات كانت جامدة تمشى على قواعد ثابتة . من بينها أن المصريين تمزقوا وانهاروا واستسلموا للهزيمة . وأنهم لن يحاربوا . هذه غلطة فظيعة . ومن الأخطاء أن «قنوات المعلومات» كانت محدودة .

وأوصت اللجنة بتعديل فلسفة المخابرات الإسرائيلية . وقد فصلت المخابرات كل قياداتها . ثم عدلت عن «تجميد» قنوات المعلومات ونوعت مصادر المعلومات بحيث يصبح كل إسرائيلى قادرا على أن يدق جرس الخطر ـ أى يجب أن يكون كل مواطن عاملا فى المخابرات لصالح إسرائيل . فلا يصح أن تستهين المخابرات بأية معلومات من أى مصدر . .

وقد لجأت إسرائيل إلى شراء محطات إنذار مبكر محمولة جوا بطائرات هوكى . وذلك لجمع المعلومات أولا بأول وبصورة شاملة وسريعة .

المشكلة الثانية:

الانضباط العسكرى ، فقد هاجمت اللجنة بشدة هذه العلاقات الملتهبة بين القيادات . وبين العسكريين والمدنيين . وبين المحترفين والمتطوعين . وقد رصدت اللجنة وبالتفصيل عددا من الأخطاء الفنية الخطيرة بسبب هذه الحساسية بين القادة . وبسبب عدم الانضباط العسكرى . وبسبب التراخى عند المدنيين .

ولذلك أوصت لجنة «أجرانات» بضرورة الضبط والحسم والحزم أيضا . . وإن كانت اللجنة ترى أن الانضباط بهذه الصورة المثالية صعب فى مجتمع ينادى بالمساواة المطلقة بين الجميع . . أو فى مجتمع يشوبه التعصب بسبب تعدد الأحزاب السياسية والدينية . وبسبب التمييز العنصرى . .

ولذلك ترى اللجنة أن مشكلة الانضباط هذه سوف تبقى مشكلة المشاكل إلى وقت طويل ! .

المشكلة الثالثة :

فقد لاحظت اللجنة أن إعلان التعبئة العامة فى حرب أكتوبر ٧٣ قد استغرق وقتا أطول من المقرر . مما أحدث ارتباكا وأعطى للمصريين والسوريين فرصة الضربة الأولى والمباغتة وإحداث خسائر فادحة فى القوات اليهودية .

وقد لاحظت أن عددا كبيرا من قوات الاحتياط قد شكوا من نقص المعدات التى سلمت لهم فى الساعات الأولى . . وشكوا أيضا من بطء توزيع هذه المعدات وتناثرها وعدم ترابطها . . كما شكوا من أن الصيانة لم تكن على المستوى المطلوب . . مما جعل الانتشار صعبا فى الساعات الأولى . .

ولكن أجريت تجارب عديدة على التعبئة العامة . وسجلت إسرائيل أنها تستطيع التعبئة العامة فى ٣٦ ساعة . .

المشكلة الرابعة :

وهى مشكلة المشاكل فى جيوش كثيرة ، ولكنها تصبح مميتة فى جيش صغير كالجيش الإسرائيلى . . وهى مشكلة القيادة . . فمن الملاحظ فى كل الجيوش أن الضباط العظام ابتداء من رتبة عقيد فما فوقها ينفذون الأوامر الصادرة إليهم لاعتبارات شخصية . . فالضباط العظام يعرفون بعضهم البعض . . وقريبون من بعضهم البعض . . وربما كان هذا القرب فى الدرجات هو الذى يجعلهم عادة لا ينفذون الأوامر التى تصدر إليهم فور صدورها ، أو على النحو المطلوب . حدث ذلك فى حروب كثيرة . وحدث هذا أيضا فى حرب ٧٣ . .

وقد ضربت لجنة أجرانات مثلا بالقائد أريل شارون الذى صدرت إليه أوامر من رئيسه اللواء شموئيل جونين . كان من الواجب أن يطيع الأوامر . وإن كانت اللجنة ترى أن جونين هذا لا يصلح أن يكون قائدا لسيناء . . وأما من ناحية المبدأ : فالطاعة واجبة ! .

ولكن بين الضباط العظام توجد حساسية دائما وفى كل الجيوش . فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعضهم قد تحول إلى نجم صحفى أو تليفزيونى . وجدنا جنون النجوم قد انتقل إلى ضباط آخرين . . ودخلت إسرائيل فى معركة الجنرالات أو معركة من هو بطل حرب أكتوبر ٧٣ بعد أن سقط بطل حرب يونيو ٦٧ : موشى ديان . . إلى الأبد ! .

إن دماء حرب أكتوبر قد جفت . . ولكن أوجاعها لم تسكن بعد . . وهذه المحاولات المتصلة من أجل السلام ، يجب أن تظل أكثر أمنا واستمرارا فى ظل السلاح . . أى فى ظل التخويف بالحرب . . أو الحرب ! .

أجهزة لا تمنع الحرب ! :

وعلى جانبى الممرين متلا (١٨ ميلا) والجدى (١٥ ميلا) توجد محطات الإنذار المبكر بين مصر وإسرائيل .

وهذا النوع من المحطات قد استخدمه الأمريكان فى جنوب شرقى آسيا . هذه المحطات لا تمنع الحرب . وإنما فقط تنبه إلى احتمال وقوعها . . أو تنبه إلى أن هجوما مفاجئا يوشك أن يقع .

وربما كان أحد الاعتبارات التى تخيف الطرفين حتى لا تشتعل الحرب : وجود عدد كبير من المدنيين الأمريكان وقوات الطوارئ الدولية . . إن هذه الأرواح أخطر من العبث بها أو إبادتها ! .

وإذا كانت الشقة بين القوات السورية والقوات اليهودية ضيقة ، فإنها ليست كذلك فى سيناء . . فالمسافة واسعة . . ولذلك انتشرت أجهزة كثيرة للاستشعار عن بعد ، وهذه الأجهزة تقع تحت الرمال بعشرين سنتيمترا ، وهى قادرة على رصد أية هزة لسيارة تبعد ألف متر ، أو تنقل صوت أقدام أى إنسان إذا كان يبعد عنها ٧٠٠ متر . . فإذا سجلت هذا الصوت نقلته إلى محطات الإنذار المبكر فقامت أجهزة أخرى بمسح المكان وتصويره بمنتهى الوضوح ، ليلا أو نهارا ، وبعد واحد على ألف من الثانية من حدوث هذا الصوت .

وفى الأيام الأولى لمحطات الإنذار المبكر حدث كثير من الرعب لكل الخبراء ولقوات الطوارئ ، وكان السبب : الإبل الضالة والأغنام فى الصحراء ! .

أما محطة الإنذار نفسها فعبارة عن غرفتين لا تلفتان النظر ، وكل واحدة من الأسمنت المسلح تزن ٢٥ طنا وإحداهما عنابر للنوم والأكل والشرب ، وهما جميعا على اتصال بجميع أجهزة الاستشعار والإنذار والتصوير التليفزيونى والعدسات التى تستطيع أن تحصى عدد البنادق الملقاة على الأرض أو التى يحملها جنود على مساحة ١٨ ميلا . .

ويعمل فى كل محطة ٢٥ موظفا من وزارة الخارجية الأمريكية و ١٤٢ خبيرا مدنيا (من بينهم عشر سيدات) وكل واحد يتقاضى ١٧ ألف دولار سنويا وبعقد لمدة ١٨ شهرا . وهو لا ينفق من هذا المبلغ مليما واحدا لأنه يأكل ويشرب مجانا ! .

والمحطة الواحدة تكلفت ٣٠ مليونا من الدولارات بينما إدارتها وصيانتها تتكلف ١٥ مليون دولار سنويا .

فإذا حدث شىء ما ، ورصدته الأجهزة فإنها تنقله إلى مندوب وزارة الخارجية الذى ينقله فورا إلى مكتب الأمم المتحدة فى الإسماعيلية ، وإلى وزارة الدفاع المصرية فى القاهرة ووزارة الدفاع الإسرائيلية فى تل أبيب ، مع تحليل كامل لهذا كله .

ولكن الأجهزة لا تمنع وقوع الحرب . وإنما فقط تنبه إلى احتمال شىء من ذلك . . حتى لا يفاجأ الطرفان ، ولكن فى استطاعة كل من الطرفين رصد حركات الطرف الآخر وتصويره جوا . . وهناك أجهزة أخرى كثيرة للإنذار المبكر محمولة جوا عندنا وعندهم . .

ورغم كل هذه الاحتياطات ـ أى هذه المخاوف المحسوبة ـ فإن اللعب بالنار على الحدود وعبرها ، هو لعبة كل يوم .

فلا يزال السلاح الحديث جدا يتكدس ، ولا تزال المليارات من الدولارات تتدافع على خزائن الدول الكبرى والدولتين العظميين وسماسرة سوق السلاح ، ذلك باسم السلام القائم على العدل فى الشرق والغرب ؟ ! .

* * *

حتى لا نعود إلى ٥ يونيو وما بعده !

لا أنت ولا أنا ولدنا أمس .

ولا مطبات الشوارع وأسلاك التليفون ومواسير المياه ومطار القاهرة وسلالم الترام وسقف القطار . .

فكل ذلك مثل نكسة يونيو وانتصارات أكتوبر قد ولدت قبل ذلك بسنوات . .

وكانت ولادتها عسرة . .

وغضبك أيضاً على ما أصابنا ليس إلا مولوداً له شهادة ميلاد قديمة .

فكل هذا العناء النفسى والضيق الاقتصادى واليأس قد سبقنا أو عاش معنا وسوف يعيش بعدنا . هذه هى حال الدنيا وهذه هى شريعة الحرب . ولقد تعذبت كل الشعوب بعد حروبها وشربت المر . وابتلعت الهوان . وصبرت حتى وقفت تبنى من جديد .

ولكن البناء صعب . والهدم سهل . فأنت لست فى حاجة إلا أن تكون حيواناً لكى تهدم . وأنت فى حاجة إلى أن تكون إنساناً لكى تبنى .

والتعب والحزن والمرارة واليأس كلها تجعل الإنسان حيواناً بليداً . لا يعرف إلا الهدم والبكاء عليه ويدير ظهره للمستقبل ! .

وكثير من الناس فى حالة من الغضب . . وفى حالة من السخط ، ومعهم حق إذا ضاقوا بالدنيا .

ولكن تعالوا نحسبها معاً ! ولابد أن نكون معا . فلم ينفرد أحد بأى شىء ولن ينفرد .

إنما نحن جميعا شركاء القدر ، رفقاء المصير . .

فقد احتاجت مصر ، ولاتزال ، إلى السلاح . لأننا فى حالة حرب . وسوف نظل طويلا .

وموارد مصر محدودة . وبهذه الموارد المحدودة اشترينا ذخيرة غير محدودة . وكان

من الضرورى أن نمسك أيدينا وبطوننا ولكننا لم نفعل ذلك . . وكان لابد أن ننفق الكثير على السلاح وعلى الطعام وعلى البناء أيضاً . وتكاثرت الفلوس فى البلاد التى حولنا ، إلا فى أيدينا . .

وانسدت قناة السويس وكل قنوات الرزق عندنا ، وليس كذلك فى بلاد حولنا .

واتجهنا إلى تجار السلاح ، فلا حرب بغير سلاح . . واشترينا من التاجر الروسى . وفوجئنا بأن التاجر الروسى يبيع بشروطه ، فهو يعطينا السلاح ويحتفظ بسر استخدامه ، أو يعطينا صندوق البارود ، ويضع المفتاح فى جيبه ـ وهى نكتة شعبية قديمة أبكتنا كثيرا .

واتجهنا بملايين الدولارات إلى تجار سلاح آخرين . . وفى جميع الأحوال نخطف الرغيف من أفواه الناس . والمقاعد من تحتهم . ولا حيلة لنا فى ذلك .

وكل ما نعمله اليوم هو أن نلجأ إلى السياسة والدبلوماسية تخففاً من تكاليف الحرب .

أى أنه لابد أن نبحث عن السلام فى ظل الحرب والاستعداد لها والخوف من وقوعها فى أية لحظة .

ولا شىء يسعدنا أكثر من أن نشترى الرغيف بدلا من المدفع ، والأتوبيس بدلا من الدبابة . ونبنى المستشفى والمدرسة والمطار ونرصف الطريق بدلا من الصواريخ والغواصات . وأن نتجه إلى المستقبل بعد أن أغرقنا الماضى فى ويلاته وعذابه وهوانه .

كلنا نتمنى ذلك . .

ولكن ما أبعدالمسافة بين الذى نتمناه وبين الذى نقدر عليه . . ما أبعد المسافة بين أحلامنا وبين الواقع العسكرى والسياسى والاقتصادى فى المنطقة وفى العالم .

فكل متاعبنا لها تاريخ قديم . . ونحن ورثة الألم والضيق .

ولو كان الفقر رجلا لقتلته ـ قالها على بن أبى طالب ولكنه لم يستطع ولن يستطيع أحد أن يقتل الفقر . لأن الفقر ليس رجلا واحدا ، وإنما هو ملايين الرجال الفقراء ، ولو قتلنا ملايين الفقراء ، لكانت هذه الجريمة فقرا فى السياسة وإفلاسا فى الحكمة والحكم ! .

* * *

وكما يقاتل كل العسكريين ، فيجب أن يتحمل كل المدنيين ، وأن نفرض العمل على أنفسنا . كما فرضنا القتال على العسكريين ، وفرضنا عليهم الموت أيضا .

هنا فقط نكون جيشا واحدا ، من أجل تخليص مصر من ويلات الظلم والفقر ورواسب الماضى . توجها إلى المستقبل . .

ونحن نجد العذر للشباب الذين لا يجدون كل ما يريدون . . فنحن أيضا لم نجد كل مانريد . ومن الصعب أن يجد أحد كل ما يريد ، ومن الصعب أن يتحقق لجيل واحد كل ما يريد . . وإنما سوف يتحقق ذلك للأجيال القادمة .

أى لابد أن يضحى الأب من أجل راحة ابنه . . ثم يشقى هذا الابن من أجل أجيال تالية ، وإلى غير نهاية . .

إن الذى حققناه فى أكتوبر لمصر وللأمة العربية شىء كثير . ولكن الحرب لم تخمد . والشقاء لن يتوقف . والعذاب لن ينتهى . فهذا قدر ، وهذه طبيعة أحداث التاريخ . .

وكما أن ٥ يونيو لم يعلن وفاتنا إلى الأبد ، فإن ٦ أكتوبر ليس قضاء على كل شقاء مصر وتعاستها . . فليس هذا إلا يوما من عام . وإلا قفزة فى طريق طويل شاق . .

ولكن يجب ألا نفقد الأمل ، ويجب ألا نكف عن العمل ، فقد كان ٦ أكتوبر دليلا على الذى يصنعه الأمل والإصرار على الحياة والكرامة معاً . أو على الحياة الكريمة أو الكرامة الحية . .

وليست معارك السلام أقل من معارك الحرب . . فإن قتال العدو كان شاقاً . ولايزال . ولكن قتال النفس ، أى عيوبنا وفسادنا . أقسى وأعنف وأطول . .

وكما أنه ليس صحيحا ما قلناه يوم ٥ يونيو وما بعده من أن مصر قد انتهت وأننا أيضا . فكذلك ليس صحيحا أن يقال الآن نفس الشىء . . فنحن اليوم نستعجل الرخاء . . وليس سهلا ما نتمناه دون عمل . .

إن ٦ أكتوبر هو أروع نتيجة لعمل شاق وتخطيط عنيف وإصرار من حديد . وأمل فى النصر وإيمان باللّه .

إن معركتنا مع مصر نفسها ، يجب أن يكون لها نفس التعبئة العامة ، وأن تكون جادة ، وأن نتساوى فيها فينال كل واحد نصيبه من التعب والراحة ، والتضحية . . وإلا فسوف نضاعف ويلات الناس . . ونعود إلى ما كنا عليه بعد النكسة من أنه لا أمل عند أحد أو فى أحد أو فى شىء .

يجب ألا ننسى أن ٦ أكتوبر قد صنعه مواطنون مثلنا ، ولكن أكثر جدية وتضحية ! .

* * *

أخطاء تشخيص وعلاج جماعة التكفير

جماعة التكفير حكموا بإعدامى . . وشرفونى بأن وضعونى فى أول القائمة . هذا لايهم . لأنها حلقة من سلسلة جهلهم وأخطائهم فى فهم أشياء كثيرة فى هذه الدنيا . .

فهل سبب ذلك ياترى أننى كنت من الإخوان المسلمين ، أؤم الناس وأخطب فيهم . كل سنوات الدراسة الجامعية؟ هل لأننى حججت إلى بيت اللّه ثلاث مرات ؟ هل لأننى اعتمرت عشرين مرة؟ هل لأننى صليت فى داخل الكعبة إحدى عشرة مرة؟ هل لأننى رأيت الرسول ﷺ فى منامى مرتين ، وهذا يحسدنى عليه أكثر الناس إيمانا وتصوفاً ؟ .

هل لأننى أصدرت كتاباً عنوانه «طلع البدر علينا» ورويت فيه تجربتى مع الإيمان والإلحاد . . وكيف إننى كنت مدرساً للفلسفة فى الجامعة وكنت أشرح لتلامذتى تاريخ الإلحاد فى الإسلام والديانات الأخرى ، ثم إننى اهتديت معهم إلى اللّه ؟ .

هل لأننى كنت أول من تسلق الطريق صاعداً إلى غار حراء ونازلاً منه ، نفس الطريق الذى صعده الرسول عليه الصلاة والسلام . وكتبت تجربتى ونشرت صورا لها لأول مرة فى مصر ؟ .

هل لأننى أصدرت كتاباً بعنوان «ديانات أخرى» لأربعين دينا معاصرا ــ ووضعت الإسلام تاجاً على رأسها وقمة ما بعدها شىء أكمل وأعظم ؟ .

ربما ذاك أو غيره .

ولكنى أرى ــ وهذا واجبى كمفكر أو كمصرى وطنى ــ أن قضية التكفير هذه لم تعالجها الأقلام علاجا صحيحا . وليس هذا الذى أقوله وأتمسك به إلا دفاعاً عن مصر وشباب مصر والمفكرين والعلماء المصريين .

إن هذه ظاهرة حدثت قبل ذلك فى أوقات مختلفة ولأسباب متنوعة . وقد نشرت أنا عدة مقالات فى (مجلة أكتوبر) نقلت بعضها الصحف العربية . وفى مصر نقلت بعضها مجلة (الدعوة) الإسلامية ـ وكان رأيى أن أسلوبنا فى علاج هذه القضية لم يكن صحيحاً ولا لائقاً بهذا البلد العظيم بجامعاته ومعاهده وعلمائه وملايينه الأربعين ، وطبيعة الإناء الذى يغلى ويتقلب فيه الناس من الضيق الاقتصادى والإحباط النفسى . وهذا طبيعى فى كل الدنيا فى أعقاب الحروب وقبلها . ونحن بالضبط فى أعقاب حروب أليمة ، ومازلنا فى حالة حرب وخوف منها واستعداد لها . . وهذا يكلفنا الكثير مادياً ومعنوياً . ولا شيء يخفف عنا ويلات ما نعانيه . إلا أن تنتهى الحرب ونعيش «بعد» الحرب ـ لأننا لم نضع السلاح بعد ؟ .

إننا عالجنا هذه القضية علاجا بوليسيا . وهذه غلطة ! .

فنحن لسنا أمام جماعة من النشالين أو اللصوص . إنها جماعة من المنحرفين دينياً أو فكرياً أو عائلياً . وهذا الانحراف لابد من فهمه وشرحه وتقويمه ، ولا يكون ذلك إلا بالمناقشة والحوار والإقناع . وهذا ما لم نفعله ؟ ! .

وأريدك أن تتصور شيئا مضحكا لو فعله وزير الصحة فى مواجهة وباء الكوليرا : حين يعتقل كل مصاب ويضعه فى السجن ـ هل ترى هذا علاجاً للأوبئة ؟ ! .

إنه إجراء بوليسى ، وليس علاجاً ولا وقاية طبية ! .

وأريدك أن تتصور شيئاً آخر : أن وزير الصحة يعالج جماعة التكفير بأن يحقنهم بالمضادات الحيوية ـ هل هذا علاج للخلل الاجتماعى والفكرى أو السلوكى عند هذه الجماعة أو غيرها من المتهوسين دينيا ، بين المسلمين أو عند الأقباط ؟ ! .

ولكن العلاج يجب أن يكون من جنس المرض . . فلا وزير الداخلية وحده ، ولا وزير الصحة وحده ، ولا شيخ الأزهر وحده ، هو الطبيب الذى نبادر باستشارته . لأن «المرض» يدخل فى اختصاصات أناس آخرين .

ثم يجب ألا نجد حرجاً مطلقاً فى أن نقول لأنفسنا إننا فى ضائقة . هذا صحيح . وأننا مرهقون وأننا معذبون .

ويجب ألا نتحرج إذا قلنا إن الشبان هم ترمومترات حساسة لما يجرى فى البيت وفى الشارع والنادى والمعهد . وإنهم لذلك يعبرون بصدق ولكن بعنف ـ وهذا العنف سببه أنهم شباب ، وأنهم بلا تجارب ، وأنهم يتعجلون الهدف . وهذه طبيعة الشباب وقد كنا جميعاً شباباً .

والشباب فى حد ذاته ليس ميزة ينفرد بها أحد . وإنما هو مرحلة من مراحل العمر . . سوف يبلغها الطفل ويتجاوزها الشيخ . كما أن الشيخوخة ليست عيباً ، وإنما هى أيضا محطة النهاية التى سوف يبلغها الشباب . .

فهل سمعنا عن ندوة واحدة ؟ .

هل سمعنا عن مناقشة مفتوحة ؟ .

هل صدر كتاب واحد يروى للشباب ماذا حدث فى أوروبا سنة ١٩٦٨ عندما ثار الشباب فى فرنسا وفى كل الدول الأوروبية لأسباب مختلفة . ثم هدأ كل شىء بعد ذلك .

فلماذا هدأ كل شىء ؟ .

لأن مناقشة بالعقل قد دارت بين الملايين وعلى مسمع منهم . . فعرف كل واحد عندما يضع أصبعه على جسده أين مكان الألم ، من الرأس حتى القدم ؟ . .

فلما رأى الشباب أنفسهم عرفوا الحقيقة . .

وهى : أنهم لا يصرخون فى الفراغ . وإنما صرخاتهم لها صدى . . وصداها عند الذين هم أكبر سنا وتجربة ويحكمون العالم . .

إن دولا عربية وإسلامية قد أرسلت إلى الرئيس السادات تقول : ما هذه المحاكمات؟ ما هذا التطاول على المحكمة فتهتز صورتها وهيبتها فى عيون الناس ؟ .

اعدموهم . . اشنقوهم فورا . ليكونوا عبرة لغيرهم فى كل مكان ! .

ولم يكن ذلك ممكنا فى مصر . لأننا نحتكم إلى القانون ، سيدنا جميعا ! .

والقانون يحمى الناس جميعا : الداخلين تحته والخارجين عليه . . بل إنه يحمى الخارجين عليه ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ! .

إنها نفس العبارة الباقية للفيلسوف فولتير : أنت تختلف معى فى الرأى ، ولكنى سوف أستميت من أجل أن تعبر عن هذا الرأى ! .

وهذا هو جوهر سيادة القانون ، الذى ارتضيناه ونحن سعداء بذلك . .

لولا . .

لولا أن الذى نراه ونقرأ عنه فى الصحف وعلى الشاشة ليس إلا مطاردة بوليسية لأصحاب الآراء المنحرفة التى يجب أن نقومها بالرأى . أو بالمناقشة . .

ويجب ألا نجد حرجا فى أن نعترف بأن «مرض العصر» هو السخط والضيق والتمرد . .

ولو سألنا المهندس والمحامى والطبيب والمدرس والأديب والصحفى والعامل الماهر لوجدناهم يصرخون فى نَفَس واحد بعبارة واحدة ومعنى واحد : أن الحياة صعبة . والأجور قليلة ولذلك يجب أنْ نهاجر .

وقد هاجر ، وسوف يهاجر كثيرون ، ونتمنى ذلك . ولكنهم جميعا مصريون وطنيون مهما بعدوا عن مصر ، فمصر فى قلوبهم وفى عيونهم وفى أعناقهم . تماما كما يترك الواحد بيت أبيه ويسكن وحده . . إن هذا البعد فى المكان ليس ابتعادا بالقلب . . وإنما هى طبيعة الحياة أن ينتشر الإنسان وأن يبحث عن الراحة الأكثر والمال الأوفر .

وهذه المعانى ليست إلا مشاعر عامة وواحدة عند الشباب . لم يطبعها أحد على لسان أحد . إنما هى نبتت كالشعر على الجلد ، والعرق على الجبين .

صحيح أن هناك أشراراً يستغلون هذه النار فى دماء الشباب فيصبونها على الآخرين . .

ولكن ـ فقط ـ عندما يصطدم أناس بحريات وحرمات الآخرين وأمنهم وإيمانهم ، هنا تتدخل الدولة لحماية الأغلبية من الأقلية الضارة . وهذا ما حدث للذين يكفرون الناس ، وهم كافرون أيضاً .

* * *

إننى كنت أتمنى أن أضحك على هذه الواقعة التى رأيتها يوم ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ على الحدود بيننا وبين إسرائيل ، ومعى خمسة صحفيين . قال لنا اللواء عبد العزيز سليمان رحمه الله : تعالوا نستعرض جهل مصر ! .

وكان جهلاً فادحاً . أو خداعاً لا أعرف . فقد رأينا رجلاً يجمع الميكروبات ويضعها فى علب ويبعث بها إلى مصر لتحليلها ولم نصدق ما يقوله الرجل . وسألناه . فأكد أن الذى يفعله صحيح لأن إسرائيل قد استخدمت الحرب الميكروبية فعلا ! .

ولكى يدلل هذا الرجل على صحة ما يقول ، أطلعنا على الميكروبات . وكانت نوعاً من الذباب الذى فقس أخيراً . . طبيعى أن يكون صغيرا . . أما الدليل الثانى

فقد طلب إلينا أن نصعد أبراج مراقبة قوات الطوارئ الدولية لنرى على الجانب الإسرائيلى رجلاً أمسك بالوناً من القماش الأبيض . . وهو لا يكاد يرانا حتى يحركه يمينا وشمالا . ونزلنا لنسأل عن المعنى . فقال لنا : إن هذا اليهودى يطلق الميكروبات علينا ! .

وعرفنا فيما بعد أن هذا اليهودى كان يضع مسحوق الجير على الأرض لتهتدى به الدبابات والعربات فى اليوم التالى ! .

وقد آلمنى ذلك ، ولا يزال . ولا أعرف إن كان هذا الذى رأيته حلماً ، أو أن الشمس قد ضربتنى وأننى أهلوس . . لولا أن خمسة آخرين قد شاهدوا ذلك معى .

إن الميكروبات لايمكن اعتقالها بهذه الصورة . ولا هذه هى حرب الميكروبات التى تبرر انتشار الخوذات على الجبهة المصرية فى ذلك الوقت ! .

ولكن الذى يجعل مثل هذه الواقعة ممكنة : أننا اليوم نعالج الظواهر النفسية علاجاً بوليسياً .

ولا علاج لها إلا إذا غيرنا تشخيص مثل هذه الظواهر التى تطفو ثم تخبو ، وسوف تظهر فى كل المجتمعات الحية المكدسة بالسكان وبالمشاكل وفى ظل مثل هذه الحروب التى كسرت ظهورنا ومزقت شملنا . والتى لم تنته بعد .

إن واجبنا القومى يحتم علينا أن نقترب من المشاكل بالعقل والموعظة الحسنة . .

لأنها مشاكل عقلية اجتماعية اقتصادية سياسية . فليس استنكار المرض علاجا له . . ولا احتقار الظواهر احتراماً لعلمنا ولأنفسنا . .

. . وإلا كان معنى ذلك أن صبيان التكفير قد استدرجونا ، فاستعرنا أسلوبها فى الفهم الخاطئ لأنفسهم ولغيرهم من الناس ـ «اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد!» .

* * *

الذين يمشون بأطراف أصابعهم فوق القانون

ما معنى أن يقف شخص ومعه مسدس فى إحدى دور السينما أو الأتوبيسات أو الطائرات ويرفع سلاحه أمام الجميع ويطلب من كل واحد ألا يتحرك . فلا يتحرك أحد ! .

معناه أن هذه الرجل قد فاجأ الناس بأنهم غير مسلحين . وأنهم لذلك غير قادرين علي أن يفعلوا شيئا . ولأنهم قد قرءوا عن حوادث كثيرة مشابهة . عجز فيها الناس والحكومات عن فعل شىء . فهم لذلك يستسلمون .

وقد يكون هذا المسدس لعبة . وقد يكون مسدساً حقيقياً ، خالياً من الرصاص! .

ولكن الخوف والمفاجأة أو المفاجأة المخيفة تجعل المسدس الصغير يبدو مدفعاً ، وتجعل حامله عملاقاً . . ثم تضاعف شعور الناس بالعجز رغم أنهم أغلبية بينما الإرهابى الذى أمامهم ليس إلا واحداً ! .

ومما يضاعف خوف الناس أيضاً أن هذا النوع من الإرهاب لا يقوم به فرد إنما كثيرون وفى بلاد مختلفة . . إنه دولى ولأسباب غامضة . . تختلط فيها السياسة بالجريمة . . أو أنها عملية إجرامية ملفوفة فى غلالة سياسية رقيقة ، وهذا يجعل من الصعب أن نفرق بين الإرهاب والوطنية . . أو بين الجريمة العادية والجريمة الفلسفية السياسية . .

فالإرهابى الشهير كارلوس اسمه «أليش» وهو الاسم الصغير للزعيم السوفيتي لينين . . ثم كارلوس هذا له أخ اسمه لينين أيضاً ، وكلاهما قد تعلم فى جامعة لومومبا بموسكو .

وهو مجرم عادى جداً يعرف عدة لغات من بينها العربية . ولكنه يلف جريمته فى إطار سياسى . .

وهذا المجرم الفنزويلى كارلوس يخطط جرائمه فى أمريكا وينفذها فى أوروبا

ويتقاضى عليها أجراً من أفريقيا ثم يختفى بعد ذلك فى أستراليا! وهذه الصفة الدولية للجريمة هى التى تصيب الناس والحكومات بما يشبه الشلل الذى هو نتيجة لمخاوف متراكمة . .

ويمكن وصف الأعمال الإرهابية التى قام بها كارلوس والعصابة الألمانية الشهيرة «بادر ـ ماينهوف» بأنها عمليات يقوم بها شاب فنزويلى . . وينفذها فى إيطاليا بأيدى شبان ألمان يحملون سلاحاً روسياً قد اشتروه بفلوس عربية ، ليخطفوا طائرة فرنسية . ويهبطوا بها فى عدن ، من أجل الإفراج عن معتقلين فى اليابان قتلوا ليلة رأس السنة فى إسبانيا ! .

فإذا كان هذا العمل الإرهابى قد حدث فى إحدى الطائرات فالعجز تام . والتعليمات صريحة لدى قائد الطائرة بأن يستسلم لكل من يمسك مسدسا أو عصا غليظة . . لأن المقاومة لا معنى لها . فلا أحد يعرف ما الذى يمكن أن يفعله هذا الإرهابى بالطائرة والركاب . ولذلك : لا مقاومة .

وإذا قاوم قائد الطائرة ، كان ذلك عملا أحمق . أو كان عملا إجراميا . . لأنه دفع الإرهابيين إلى سفك الدماء . .

ومن الصعب على أحد خارج الطائرة أن يعرف ما الذى يجرى فى داخلها . ولذلك فالدول تحاول أن تتصل بالإرهابى لعلها تعرف ماذا يريد ، وما هو سلاحه ، وكم واحداً يعاونه . . ثم كيف يمكن إطلاق سراح الأطفال والنساء والشيوخ والمرضى . . وكيف يمكن إطعام الباقين وإمداد الطائرة نفسها بالوقود ، ثم ماهى مطالبه ؟ .

وكل ذلك يؤكد أن أحداً لا يستطيع أن يواجه المسدس بالمسدس . . ولا يمكن قتل الإرهابيين بنسف الطائرة كلها . . وإلا كان معنى ذلك قتل مائتى راكب من أجل ثلاثة إرهابيين . . أى معاقبة المجرمين بإحراقهم مع مئات الأبرياء ـ وهو عمل جنونى ، ولذلك لم يفعله أحد ! .

ثم إن الطائرة على الأرض أو فى الجو جسم هش . . لا يمكن إطلاق الرصاص فى داخلها حتى لا تحترق كلها . . ولذلك فلابد أن يهتدى العلماء إلى أسلحة محدودة لا يتعدى أثرها مساحة صغيرة في حجم جسم كل إرهابى . . وهذه مرحلة لم يصل إليها العلم بعد . ولكن سوف يصل إليها حتما . وسوف يهتدى الإرهابيون إلى أسلحة أخرى مضادة ! .

فهل اعتدنا نحن على هذه المشاهد ، حتى مللناها ؟ .

إن مجرد إحساسنا بالملل أمام هذه الجرائم الدولية . يعتبر ظاهرة أكثر خطورة ، لأن معنى هذا الملل أننا ضقنا بها ، وأننا لا نريد أن نراها أو نسمعها . . مع أنه من الضرورى أن نراها أوضح وأعمق ، وأن نسمع أكثر حتى تتعمق فى نفوسنا كراهيتها والبحث عن وسيلة لإنقاذ أنفسنا من مثل هؤلاء المجرمين . .

كما أن الشعور بالملل يضعف إحساسنا بها . . ويجعلنا نطلب شيئاً جديداً . . أى شيئاً أكثر إثارة ، وهذه نهاية خطيرة لأن معناها أن هذه الحوادث ، وغيرها ، أصبحت مادة للتسلية . . وأننا لم نعد نفكر فى التخلص منها ، وإنما نفكر فى أن نجعلها أكثر إثارة . . أو ننتظر من الإرهابيين أن يتفننوا وأن يعثروا على حيل أذكى وأمتع ! .

وهذا ما حدث على الشاشة . . فعلى الشاشة نجد صوراً للحروب الحقيقية فى جميع أنحاء العالم . . سواء كانت حروباً قديمة أو حروباً حديثة . وفى نفس الوقت نجد أفلاماً عن حرب العصابات ، هذه الأفلام أمتع ، لأنها من تأليف وإبداع كتاب السينما ومخرجيها وممثليها . ولذلك يختلط علينا الأمر ونحن نتفرج على الحروب الحقيقية والحروب التمثيلية . . أو الحروب الدموية والحروب الفنية . .

والنهاية : أننا نعتاد على مناظر الدم والعنف والكراهية ، فإذا اعتدنا عليها فإننا لا نذهب إلى أبعد من ذلك كأن ندعو للسلام أو ندعو لتجفيف الدموع والدماء . . وإنما يصبح الدم والدمع والنار والدخان طعاماً يومياً . . تسلية يومية نصحو عليها ونأكل أمامها وننام على موسيقاها وألوانها . . تماماً كالأغانى والاستعراضات والموسيقى ! .

وهذا هو مصدر الخوف الحقيقى من السلبية أمام الإرهاب العالمى . .

وفى مواجهة هذا الإرهاب الدولى يجب أن نقاومه بمنتهى العنف . . بالتضحية أيضا حتى يمكن القضاء عليه ، أو القضاء على كثير منه . .

ويجب أن تكون هناك قوانين خاصة لمواجهة هذا الإرهاب الخاص ، ولكن القانون نائم وعائم! ولذلك فالقانون الدولى هو أحد الأسباب لتشجيع الجريمة . . وانتشار الإرهاب . فالقانون بهذه الصورة ليس إلا سوراً مليئاً بالثقوب لحماية الناس . . وهذه الثقوب ليست إلا نوعاً من استعداء الناس على الناس ، وباسم القانون .

والقانون ــ إذا كان ثوباً ممزقاً ــ فهو قانون لا يحمى الناس وإنما يفضحهم ، وإذا ارتضى الناس مثل هذا القانون . فهم قد ارتضوا الفضيحة وفى نفس الوقت يطلبون الستر من قانون فاضح ! .

وإذا كان المسدس الذى يمسكه إرهابى يدل على شىء فإنه يدل على قوته أمام ضعف الملايين . . وإذا كان القانون جباناً أمام الإرهابيين ، فلا لوم على الإرهابيين إذا أطلقوا النار على القانون . . أى على سيادة القانون ، وعلى هيبة الدولة التى تحمى الناس بالقانون . .

ولابد أن الحكومة الألمانية سوف تتخذ خطوات جرئية رائدة فى مواجهة الإرهابيين . . الذين نجحت الحيلة الذكية فى القضاء عليهم ، ولكن ألمانيا ــ التى هى جنة اللّه فى أوروبا ــ لاتريد أن يتضاعف فيها الشياطين والحيات . ولا تريد أن ينهدم عليها مرة أخرى ذل الصرح العالى الذى بنته بالدم والهوان بعد الحرب العالمية الثانية حتى أصبحت أغنى وأقوى دولة أوروبية .

وإذا كانت الدول الغنية القوية تقاوم الإرهاب ، فإن الدول النامية مثل مصر يجب أن تؤكد لمثل هؤلاء الإرهابيين أن القانون له أنياب وأظافر ، وليس له «طاقم أسنان» يمكن كسره فى لحظة .

إن الناس أمام التراخى والقنزحة فى تطبيق أو ن تكبيل القانون . قد أصابوا هيبة الدولة فى قلبها . . وأصبح من السهل جداً على أى متهم فى أية قضية أن يخرج لسانه للمحكمة وفى الصفحة الأولى من كل صحيفة . . ويجد هذا اللسان تجاوبا فتخرج ألسنة كثيرة فى البيوت وفى المكاتب والمصانع والمعاهد . لماذا ؟ لأن الدولة قد هان أمرها على الناس ، وإذا أصبح التهاون والتراخى أسلوبا عاما فى مواجهة الجرائم ، فإنه كذلك فى مواجهة المخالفات اليومية فى كل مكان .

ولذلك فكل صفيحة زبالة يلقى بها أحد من النافذة ، إنما هو يرميها على القانون وعلى حماة القانون . .

وإذا ارتفع صوت أى راديو فلكى يخرق أذن القانون ومن يتصدون ضعافاً عاجزين للدفاع عن القانون .

وكل من يخالف التسعيرة وكل من يهرب من الضرائب ومن الجمارك ، إنهم جميعاً يمشون بأطراف أصابعهم حتى لا يسمعهم القانون . . بل إنهم يمشون بأطراف أحذيتهم حتى لا يسمعهم القانون ، ولكن سواء سمعهم أو لم يسمعهم فقد داسوه «بالجزمة» .

لا مانع من الرفق والأدب فى تطبيق القانون بشرط أن يكون الرفق والأدب مثل «نعومة» السيف . . إنه ناعم ، ولكنه قاطع ! .

ولكن الذى نراه هو «النعومة» التى لا تقطع ولا تسيل دما فى مواجهة الجريمة ـ وهذه أكبر وأفدح غلطة فى حق الدولة والشعب وسيادة القانون ! .

إن «عصا» سيدنا فى الكُتَّاب القديم يجب أن ترتفع وتكون لها أشكال مختلفة ، ولكن الهدف واحد : الانضباط العام .

والذين ينادون ويبكون على «كتاب القرية» إنما يحنون إلى القيم القديمة فى احترام الأكبر سناً ، وفى الإخلاص فى العمل وفى احترام الآخرين ، وهم فى نفس الوقت يحنون : إلى التربية الأخلاقية والدينية والعائلية والوطنية . .

وكل هذه الكلمات لها معنى واحد : أن تكون هناك حدود بين الناس يحترمونها ويدافعون عنها بأنفسهم أو بالقانون ! .

والشاعر القديم يقول . . ولايزال قوله صحيحاً :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا

فلا تلم الصبيان فيه على الرقص !

أى إذا كان الأب قد أمسك الطبلة فلا لوم على أبنائه إذا رقصوا . . إنه هو الذى ابتدأ وهو الذى خلق الجو وشجع . . وهو صاحب «الفعل» ورد الفعل أيضاً . .

وإذا تهاونت الدولة ، فلا لوم على الناس إذا استهتروا . . فأمسكوا الطوب والحجارة والمسدسات وأطلقوها على المؤسسات أو الأفراد . .

فالمجرم واحد أو أكثر ، ولكن الضحايا ملايين . . والسكوت مشاركة فى الجريمة ، فإذا سكتنا تحولنا من ملايين الضحايا إلى ملايين المجرمين بلا سلام ولا سلامة ! .

* * *

أسرار وراء صدور العدد الأول من مجلة أكتوبر!

بعد أن استعرض الرئيس السادات المجلات المصرية والعربية بعين الصحفى القديم وبمنطق السياسى الكبير، كلفنى بأن أصدر مجلة جديدة اسمها «٦ أكتوبر».

وأسعدنى الرئيس السادات بأن اختارنى وتوجنى بهذه المهمة الصعبة جداً. فليس من السهل إصدار مجلة جديدة فى مصر ولا فى غيرها من البلاد العربية. فالسوق مليئة بكل أنواع المجلات السياسية والاجتماعية والمصورة والعلمية.

وإصدار مجلة جديدة فى مصر، معناه أنها سوف تكون الأولى فى عشرين عاماً. فلم تصدر فى هذه الفترة مجلة كبيرة لأى سبب ومن أية جهة.

وأنا أعرف صعوبة أن يكون الإنسان رئيساً لتحرير مجلة تحتاج إلى تطوير. أما إنشاء مجلة جديدة الشكل والمضمون، فهذه هى قمة الصعوبة.. وقد كنت رئيساً لتحرير مجلة «الجيل» ورئيسا لتحرير مجلة «هى» مع المرحوم على أمين ثم رئيساً لتحرير مجلة «آخر ساعة».

وقد أدرك الرئيس السادات بسرعة صعوبة هذه المهمة فوعد بأن يساعدنى. وأنه عندما يجد الوقت سوف يقترح أبواباً وموضوعات، لأنه حريص على أن تنجح مجلة «٦ أكتوبر».

* * *

وصدر القرار الجمهورى بأن أكون رئيسا لتحرير مجلة «٦ أكتوبر» ورئيساً لمجلس إدارة دار المعارف، كبرى دور النشر فى العالم العربى وأكثرها احتراماً.

وفى دار المعارف لم أجد مكاناً لهيئة تحرير المجلة، وهنا برزت الروح الطيبة للعاملين فى دار المعارف.. وأفسحوا لنا غرفة وراء غرفة.. حتى أعطونا طابقاً واثنين..

وكان لابد أن يأتى المحرر من كل المؤسسات الصحفية الأخرى..

من كانوا تلامذتى فى الجامعة ، ومن كانوا أصدقائى وزملائى . . واحداً وراء واحد حتى أصبحنا ثمانين محرراً وسكرتيراً فنياً ومصوراً ومراجعاً ومصححاً وفنيين فى المطابع . .

لقد تكونت أسرة «٦ أكتوبر» وسط خوف وفزع من التجربة الجديدة . وتحت وابل من الشائعات تطلقها بعض المؤسسات الصحفية . وكلها تؤكد أن هذه المجلة قد ولدت لتموت ــ مع أنها لم تكن قد ولدت . . وأن عدداً واحداً سوف يصدر . . وسوف يعود المحررون والمصورون جميعاً إلى المؤسسات التى جاءوا منها . وأننا سوف

نندم على أننا أصدرنا هذه المجلة الجديدة من مكان آخر ــ أى مكان آخر غير هذه المؤسسات الأخرى ؟ ! .

وكانت نظرة شامتة ــ كأننا دار أجنبية تصدر مجلة معادية لمصر ، وليست مؤسسة مصرية تصدر مجلة قومية ، والذين أحسنوا الظن قالوا : إنها الغيرة الصحفية والحقد الشخصى . . والذين أساءوا الظن قالوا : إن الذين احتكروا النجاح يوماً لا يريدونه لأحد آخر . .

مع أن هذا الأحد الآخر ، ليس شخصاً ، ولكن عشرات من الشبان الذين لهم الحق فى أن يساهموا فى كل ما هو جديد فى مصر ومن أجلها!

وفى مبنى دار المعارف بدأنا نتجمع واحداً وراء واحد : وكانوا سعداء ، وكنت أقلهم سعادة وأكثرهم حيرة . . وبدأ العاملون فى دار المعارف يشكون ــ وبمنتهى الرقة والأدب ــ من أننا قد أحدثنا نوعاً من الفوضى . فنحن نسهر حتى ساعة متأخرة من الليل . وقد اعتادوا أن يغلقوا أبواب الإدارة فى الثانية بعد الظهر ، ومع الأبواب : المصابيح والمصاعد والحنفيات ، ولم يعتادوا على الضوضاء والسهر وعلى الكلام بصوت مرتفع وعلى الضحك الصارخ أو الراديوهات التى تدوى فى بعض الغرف . . وعلى أن ينام المحررون على مكاتبهم . . ولكننا جميعاً اعتدنا على هذا الأسلوب المختلف . . حتى تعايشنا . ولم يكن ذلك هو الفضل الوحيد للعاملين فى دار المعارف ، ولكن لهم فضل الصبر علينا والتعاون معنا ، والتشجيع المستمر حتى نجحنا معاً . . والحمد للّه . .

ولكنى حائر فى شكل المجلة وحجمها ولونها وتبويبها وقلبت فى جميع المجلات التى تصدر باللغات الأوروبية وكانت لى علاقة قديمة بقراءة المجلات الإيطالية وبعدد من محرريها وكتابها وخصوصاً مجلات : الأويروبيو التى عرفت من كتابها

الأديب الكبير ألبرتو مورافيا الذى قدمته إلى القارئ العربى منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وترجمت له عشرات القصص القصيرة ، ثم إنه أصبح صديقى هو وزوجتاه الأولى والثانية .

وكنت أعرف الكاتبة الإيطالية البادى سشيدس المحررة الأولى فى مجلة «أبوكا» ، وقلبت فى بقية المجلات الإيطالية . .

وحارت عيناى وعقلى فى صفحات المجلات الألمانية شترن وكويك وبونته وبوردا .

وفى المجلات الفرنسية : لوبوان وبارى ماتش .

ونشرنا هذه المجلات بالعشرات أمام أعيننا . . وتوقفت أيدينا عند تبويبها وموضوعاتها وألوانها وصورها وأغلفتها . . وكذلك المجلات العربية . .

وكان لابد أن نخرج بتصور واحد من كل هذه الأنواع ـ أى من كل تجارب الشعوب الأخرى واجتهاداتها فى أن تكون مجلتنا الجديدة ذات طابع خاص . وفى نفس الوقت ليس شاذا عن الذوق العام للمجلات الأسبوعية .

* * *

وتنوعت أشكال وأحجام كلمة «٦ أكتوبر» فى أيدينا . .

ثم اخترنا شكلاً للاسم من بين عشرات الأشكال والألوان والأحجام . . وجاءت خطابات من البلاد العربية تعيب علينا أن نسمى هذه المجلة «٦ أكتوبر» دون أن نسميها «١٠ رمضان» ووجدناها فرصة لكى نسميها : ٦ أكتوبر ـ ١٠ رمضان .

وبحثنا نوع الورق وحجمه . .

وبحثنا فى حجم الحروف ونوعها . . واخترنا نوعاً منها ، ثم عدلنا عنه وغيرناه فى الأعداد التجريبية . .

ولم يكن لهذه المجلة : مكتبة ولا أرشيف للموضوعات ولا أرشيف للصور ـ أى ليست لهذه المجلة «ذاكرة» . . وليست لها ذاكرة ، لأنه ليس لها تاريخ فلا تزال جنيناً فى علم الغيب . .

وكان لابد أن أستغل سماحة الرئيس السادات وتشجيعه ، فذهبت إليه وعرضت عليه تجاربنا الأولى . عشرين عدداً كتبناها وصورناها قبل أن يصدر من المجلة عدد واحد .

وأبدى الرئيس السادات ملاحظات نافذة على صفحات المجلة ، وقدّم أبواباً .

ولم يفته أن يقول كلمة لتشجيعى وزملائى ، قال : لست مستعجلاً ، الوقت لا يهم ، خذ وقتك ، المهم أن تنجح وأن تستمر . .

وكان ذلك زاداً لنا فى هذه الرحلة الشاقة ، إذن فليس من الممكن أن تنجح المجلة من أول عدد ـ وإن كان هذا هو ما حدث ـ ولكن يجب أن نصبر على أعدادها الأولى واحدا بعد واحد ، وأن نتلقى ملاحظات القراء والصحفيين المحترفين وأن نجمع هذه الملاحظات وأن ندرسها وأن نعدل مسار المجلة أولا بأول . .

وذهبت إلى السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء آنذاك .

وليس بين الذين عرفتهم فى حياتى رجل يعطيك الأمل فإذا أنت تطير . . وليس بين الناس واحد يخفف عنك مصائب الدنيا ويهونها عليك مثل هذا الرجل ومن خلال كلماته الرقيقة ، وأخوته وصداقته يبدى الملحوظة والنصيحة . . وهو لذلك يستحق منا عظيم الشكر وعميق الامتنان .

وعرضت النتائج النهائية لشكل المجلة واسمها ونوع الخط والأبواب على الرئيس السادات . واختار صورتها الأخيرة ، وهو يؤكد أنه ليس مستعجلاً مطلقاً ، وإنما المهم أن ننجح وأن نستمر . .

* * *

وفى مؤتمر صحفى فى فيينا سأله أحد الصحفيين المصريين . متى تصدر مجلة ٦ أكتوبر؟

وكان السؤال مفاجأة لى . وكان رد الرئيس السادات : قبل أكتوبر القادم إن شاء اللّه . .

إذن فلقد تحدد الموعد نهائيا . وعلينا أن نوفر الورق والمطبعة وآلات جمع الحروف .

ولم يكن عندنا من ذلك كله شيء . . أما آلة جمع الحروف التصويرى . فقد استعنا بمؤسسة الأهرام . ولولا زملاؤنا عمال الأهرام . ولولا صداقة الأستاذ المرحوم يوسف السباعى . لوجدنا صعوبة هائلة فى إصدارها فى موعدها .

فقد رأى الأستاذ يوسف السباعى ـ رحمه اللّه ـ أن إصدار مجلة مثل «٦ أكتوبر» : واجب قومى .

وبهذه الروح الصادقة . تلاشت صعوبات كثيرة أمامنا . .

وساعدنا الأهرام أيضا فى توزيع المجلة . .

وساعدنا أيضا فى الإعلانات .

وسوف نعتمد على آلات الجمع عندنا ، وسوف يكون لنا جانب إعلانات الأهرام إدارة إعلانات خاصة بنا وإدارة توزيع أيضا ، وهنا نشعر تماما أننا نمشى على أرجلنا ونطير بأجنحتنا .

وقد ساعدنا المهندس مشهور أحمد مشهور . عندما قدم آلة للطباعة هى أحدث ما اخترع العقل الإنسانى . وقدمها بنفس راضية وسماحة تامة . . وقد أدت هذه المطبعة إلى تخفيف أعبائنا . وهو لذلك يستحق منا كل تقدير وكل عرفان بالجميل .

ثم زودنا المجلة بمطبعة ثانية وثالثة . .

واختار الرئيس السادات أن يكون لمجلة «٦ أكتوبر ـ ١٠ رمضان» اسم نهائى هو مجلة «أكتوبر» . .

وعقب مؤتمر صحفى فى مدينة الرياض استدعانى الرئيس السادات . وأخرج من تحت المخدة فى غرفته ورقة مكتوباً عليها : عدد من الأبواب التى يرى إدخالها فى المجلة .

وعاد مرة أخرى يقول : إنها مهمة شاقة . أعرف ذلك . لكن يجب أن تنجح وسوف أساعدك .

* * *

وكانت أكبر وأعظم مساعدة لنا هى أن الرئيس السادات قد خصنا «بأوراقه» التى ننشرها بمنتهى الاعتزاز منذ العدد الأول . وأصبحت هذه الأوراق أهم معالم مجلة «أكتوبر» ففى هذه الأوراق يتحدث الرئيس السادات عن أخطر الإنجازات فى حياته السياسية ، وفى حياة مصر والأمة العربية والسياسة الدولية .

وقد جعل عنوان هذه الأوراق «الجليد يذوب بين موسكو والقاهرة» . وقد رأى الرئيس السادات أن ينشر الحقيقة كاملة . وينتظر أن يراجعه أحد فى واقعة واحدة . فلم يفعل ذلك أحد . فقد آمن الرئيس السادات بأن من الأفضل أن يعلن أسرار سياسته بنفسه . . فقد كثرت «المذكرات» «والذكريات» الكاذبة فى الصحف العربية . . وقد أطلق الرئيس السادات على أكثر هذه المذكرات أنها اتخذت معناها من أغنية فريد الأطرش التى تقول : ما قال لى وقلت له . . أى أن هذه المذكرات تدور فى الغالب بين شخصين فى جلسة خاصة ، أحد هذين الشخصين قد مات ـ فأين الحقيقة وأين الخيال ؟ ! .

ثم إن الرئيس السادات قد توجه بتجاربه الخطيرة فى السياسة إلى شباب مصر

وشباب الأمة العربية حتى لا يضلوا فى متاهات السياسة . ثم إن الرئيس السادات نفسه كان شاباً وكان غاضباً وكان ثائراً . وعرف السجون والمعتقلات . ونام فى الظلام على البلاط . وعرف الجوع وعرف البطالة . . وعرف الضياع . لولا أن عصمه الله ولولا أن شاءت إرادة الله أن تدخره لمصر . . ليشارك فى ثورتها . ثم يثور على ثورتها .

والرئيس السادات فى كل ما كتب ، وسوف يكتب ، لم يرفع عينه عن مصر . فمن أجلها هان عليه كل شىء . . بل الهوان من أجل مصر عزة وكرامة ، والجوع فى سبيلها شبع . والقيود فى حبها حرية مطلقة . . وهو يقول للشباب : «اصبروا وصابروا وثابروا . . فمن كان يصدق أن شاباً مثلى فى سنة ١٩٥٠ ليس فى جيبه إلا أربعون قرشاً وبلا عمل ، سيكون رئيسا لجمهورية مصر . . إن هذا ممكن لأى أحد . ولكن بشرط أن يكون قوياً وأن يكون مخلصاً وأن يكون على استعداد للتضحية . . لأنه لا يصح إلا الصحيح !» .

ولم يكتف الرئيس السادات بأن خصنا بهذه «الأوراق» بل سمح أيضاً بنشرها فى البلاد العربية . . فنشرتها معنا فى نفس الوقت صحيفة «الرياض» السعودية . . ونشرتها صحيفة «السياسة» الكويتية .

ونشرتها الصحف اليوغسلافية . فرفعت توزيعها بعشرات الألوف . .

ونشرتها الصحف الصينية . . ثم عادت فنشرتها فى كتاب . .

وطلبت ست دور نشر ألمانية وإيطالية أن تترجمها إلى اللغات الأوروبية وكان ذلك ممكناً . ويسعدنا ، لولا أن هناك عقوداً بين الرئيس السادات ودور نشر أمريكية على نشر كتابه الذى ألفه عن حياته بعنوان «البحث عن الذات» باللغة الإنجليزية .

ولكن سوف تنشر هذه الأوراق فى مجلدات باللغة العربية .

وأكثر من ذلك أن الرئيس السادات كان حريصاً على قراءة هذه الأوراق وتصحيحها بقلمه . وإبداء الملاحظات على حجم الحروف وعلى أوائل السطور . . وموضع العناوين الفرعية ـ فكان بذلك ، وبرغم أعبائه الهائلة ، نموذجاً للكاتب القلق على عمله والمتفانى فيه أيضاً .

والذين شاهدوا الرئيس السادات فى أحاديثه الممتعة فى التليفزيون يرونه فى كامل لياقته النفسية والعقلية . فهو صاحب ذاكرة غير طبيعية . وهو يعرف التواريخ والأيام والأرقام .

قال لى ممدوح سالم : كنت أتصور أننى صاحب ذاكرة قوية جداً ، حتى عرفت الرئيس السادات عن قرب فوجدت أن ذاكرته أقوى بمراحل . .

وفى أحاديث الرئيس السادات أيضا لديه هذه القدرة الهائلة على أن يكون لحديثه «سياق» متين ــ فهو يجيب عن السؤال بتوسع ، ويدخل فى تفاصيل كثيرة جداً . ثم بسرعة يعود إلى النقطة التى بدأ منها هذا السرد . ثم يربط الحديث من أوله لآخره ، مهما طال بالساعات ، فى خيط متين . .

وفى أحاديثه المسجلة يستطيع أن يتذكر تماماً من عشرين عاماً . كيف كان يجلس فلان وأين كان يجلس وما الذى كان يرتديه . . ولون بشرته ، وحركة عينيه وبحة صوته بمنتهى الدقة ! .

أذكر أن الرئيس السادات عندما كان يروى مقدمات ثورة يوليو . . أن أشار إلى واقعة غريبة . . أن جمال سالم قد جاءه فى المطار واقترب منه وأبلغه رسالة . . ثم ذهب إلى السيد حسن إبراهيم ، وقال له شيئاً . ولكن الرئيس السادات لم يعرف ما الذى قاله لحسن إبراهيم فلا جمال سالم أخبره ، ولا حسن إبراهيم أخبره . ولا هو تذكر أن يسأل أحدهما . .

ولكن بعد ٢٥ عاماً تماماً تذكر الرئيس السادات هذه الواقعة ، ثم طلب منى أن أسأل السيد حسن إبراهيم عن الذى قاله له جمال سالم فى ذلك اليوم ! .

ولكن السيد حسن إبراهيم أدهشه جداً أن الرئيس السادات مازال يذكر ذلك ، رغم ملايين الأحداث التى وقعت فى مصر وفى العالم ! .

ولما قلت للرئيس السادات : إن السيد حسن إبراهيم لا يتذكر شيئاً من ذلك مطلقاً .

كان تعليق الرئيس السادات : غريبة ! .

أى غريبة جداً أن السيد حسن إبراهيم لا يذكر ذلك الذى حدث لمدة نصف دقيقة من ربع قرن ؟ ! .

* * *

ولما علم الرئيس السادات بحملات التشكيك فى إصدار هذه المجلة أو بتعقيد الأمور أمام محرريها الشباب ، بعث بكلمة مسجلة إلى محررى مجلة أكتوبر .

وجمعت المحررين جميعاً وأسمعتهم تحية الرئيس السادات لهم . .

ثم إن هذه الكلمة قد نشرتها الصحف فى صفحاتها الأولى فى يوم صدور العدد الأول من مجلة أكتوبر يوم ٣١ أكتوبر ١٩٧٦ . .

وجاءت هذه التحية التى كانت موجهة إلينا ، وإلى كل المؤسسات الصحفية من ورائها ، فى مقدمة نشرات الإذاعة والتليفزيون . فلم يكن المقصود مجلة أكتوبر ، وإنما كل الصحف والصحفيين وضمير الصحافة المصرية ، أو السلطة الرابعة فى مصر .

* * *

وكان يزورنى أحد الوزراء السودانيين وقد أقمت له حفلة شاى فى مكتبى . عندما دق جرس التليفون . وكان المتحدث الرئيس السادات يتوجه بالتهنئة لجميع العاملين فى مجلة أكتوبر على العدد الرائع من المجلة الذى صدر يوم ١٥ مايو - عن ثورة التصحيح . . والذى كتب فيه الرئيس السادات بخط يده «اليوم الكبير من ثورة التصحيح» .

وتمنيت لو أذن لى الرئيس السادات أن أعرض ما كتبه وما صححه فى كل سطر وكل صفحة من هذه الأوراق . والخطوط التى وضعها تحت الكلمات . والإشارة إلى إبراز العبارات والمعانى - تمنيت لو يأذن لنا فتعرض هذه الأوراق على طلبة الصحافة ليروا مدى دقته ، وحرصه على كل كلمة يقولها . . وكيف أنه نسى أن رئيس جمهورية ، وتذكر أنه صحفى وكاتب ومؤرخ ، وأن أمانته العلمية اقتضته أن يتابع بالاهتمام الشديد كل كلمة كتبها - منتهى الأمانة التاريخية والتفانى فى العمل والصبر على هذه المشقة ، مع أعبائه الكثيرة العنيفة . .

ودهش الوزير السودانى بهذا الاهتمام من رئيس الجمهورية ، ولهذا التشجيع العظيم لهذا المشروع الجديد .

فقد شجعنا الرئيس السادات كثيراً ، وخصنا بأشجع وأجرأ مذكرات سياسية فى العصر الحديث ، ولكنه لم يكتف بهذا . . بل ذهب إلى تشجيع المحررين بنفسه وبصوته .

* * *

والحمد لله الذى أعاننا على كثير من المشاكل المادية والنفسية . .

وإذا كنا قد بلغنا من العمر عاماً . فقد كان عاماً شاقاً وفى نفس الوقت كان مثيراً .

ونحن لا ندعى أننا حققنا الأمل المنشود منا . . ولا استطعنا أن نجيب شركات التوزيع إلى كل الأعداد التى طلبتها فى البلاد العربية . . فنحن أكثر المجلات العربية انتشاراً فى العالم العربى بشهادة شركات التوزيع المصرية والعربية .

وعندما فرغ الرئيس من قراءة ومراجعة الحلقات الخاصة باليوم الكبير فى ثورة ١٥ مايو كتب هذا التوجيه . . وفيه تقرأ هذا التعبير « . . مع استخدام أسلوبنا الصحفى . .» فقد نسى أنه رئيس الجمهورية وإنما هو صحفى يكتب ويراجع وبمنتهى الدقة ! .

ولم يحدث أن استطاعت مجلة ولا حتى جريدة يومية . أن تصل فى توزيعها إلى ١٥٠ ألف نسخة فى عام واحد . . بل إن كبرى الصحف المصرية انتشاراً ظلت أكثر من عام توزع ثلاثين ألف نسخة يومياً! .

ولكن هذا النجاح الذى يصفه أصدقاؤنا وخصومنا أو المشفقون علينا ، بأنه ساحق ، لا نراه إلا مرحلة . . وسوف نصل بعون اللّه واجتهادنا وتضحيتنا وتشجيع القارئ العربى والمصرى لنا ، إلى أرقام أكبر . . وأهم من ذلك إلى تبويب أجمل وموضوعات وقضايا أشمل .

فقد استطعنا بمجلة «أكتوبر» هذه أن يكون لنا حضور فى كل القضايا العربية . . ولكن سوف نذهب إلى أبعد من الحضور فنلاحق الأحداث العربية ونكون معها ووراءها . . عندما يكون لنا مراسلون وكتاب فى كل البلاد العربية . وسوف يرى القارئ أسماء لكبار الكتاب الذين يحبهم ويعجب بهم . ضمن أسرة «أكتوبر» .

وإذا كان أكتوبر اسماً غالياً علينا فى كل تاريخنا . فأملنا فى اللّه كبير ، أن تكون مجلة أكتوبر اسماً على مسمى . . فتكون رسولاً صادقاً ينتقل إليكم ، وينقلنا إليكم . . وليس من الصدفة أن يكون مبنى مجلة أكتوبر مطلا على كوبرى أكتوبر . . فكلاهما رمز للنصر على المصاعب ، وكلاهما وسيلة للانتقال من شاطئ إلى شاطئ . . من شاطئ الهوان إلى شاطئ الأمان ، من شاطئ المجهول إلى شاطئ المعلوم . .

ولا يزال العبور والجسور وفتح القلوب والمصارحة ، من أهم معالم عصر السادات . . فى السياسة والحرب والاقتصاد والصحافة أيضا ! .

وكل سنة وأنتم طيبون يا قراء أكتوبر فى مصر وفى العالم العربى . .

* * *

كثيرون الوحل على وجه مصر .. لماذا ؟

المصريون خارج مصر لهم مشكلة عند المصريين فى مصر . . أو مشكلة المصريين خارج مصر هى : المصريون فى مصر ! .

فهم يقرءون الصحف المصرية ويجدون أن مصر قد خربت . وأنه لا علاج لها . أو أن المرض المادى والمعنوى فى مصر قد تجاوز مرحلة الأمان . . وأن مصر الآن فى آخر مراحل المرض . وبداية مراحل الموت . لماذا ؟ .

لأن الناس فى مصر ـ كما تقول الصحف ـ جميعاً من اللصوص . وإذا لم يكونوا لصوصاً ، فهم لا يعترضون على السرقة والنهب والدعارة وهتك الأعراض . بل إن الصحف المصرية تدعو إلى ارتكاب جميع الخطايا . . لأنها لا تتحدث إلا عن الجانب السيئ من كل شىء . ثم لا تعرض علاجاً أو لأن أحداً لا يعالج شيئاً ، فلا أثر لذلك فى الصحف . .

والصحف تغمز وتلمز . . ومعنى ذلك أنه على الرغم من الحرية الممنوحة لكل الصحفيين ، فإن هناك من لا يستطيع أن يكون صريحاً . ومعنى ذلك مرة أخرى : أن هناك أخطاء يرتكبها أشخاص لا يمكن التصريح بأسمائهم أو وظائفهم . وعلى كل إنسان أن يتخيل ما يعجبه . ومادمنا قد دخلنا باب الخيال ، فلا نهاية لما يمكن أن يقال .

وبذلك نعمل جميعاً على تلطيخ وجه مصر من أعلى قسمات هذا الوجه إلى أدناها ! .

وإذا نشرت الصحف المصرية أن هناك من يخطف البنات من الشارع فى الظلام ، وهذا شىء مفزع . . فإن الصحف لا تنشر بعد ذلك بيوم أو عشرين يوماً ، ما الذى فعلته الدولة مع هؤلاء الخاطفين للبنات . لماذا ؟ .

لأن خطف البنات مثير ومخيف ، ولأن القبض على خاطفى البنات لا يثير ولا

يفزع ـ ولأن الصحافة المصرية حريصة على إشاعة الفزع والرعب ، فإنها لا تنشر ما يبعث على الأمن والأمان والأمل .

والنتيجة الظالمة : أن المجتمع المصرى منحل ، وأن الأمن المصرى عجز عن ضبط الناس وربطهم .

والنتيجة الأبعد والأكثر ظلماً من ذلك : لا داعى لأن يجىء أحد إلى مصر حيث الأمن مفكك ، وحيث العصابات أقوى من القانون .'.

وعندما يبدأ العام الدراسى فيدخل فيه خمسة ملايين طالب ، وهذا إنجاز عظيم .

فإن هذا الحدث الجليل تنشره الصحف فى مساحة صغيرة متواضعة بدرجة حرارة فاترة .

ولكن إذا لم يجد طالب واحد مكاناً له فى مدرسة ، أو طالب لم يجد اسمه ضمن طلبة كلية الطب أو كلية الهندسة ، فهذا حدث خطير وإهمال جسيم ! .

وهذه التهمة موجهة إلى كل أجهزة الدولة التى استطاعت أن تستوعب ملايين الطلبة ، وأن تستعد لهم بالمقاعد والكتب والأتوبيسات والمدرسين . .

وإذا أقيم كوبرى على النيل ، وهذا إنجاز عظيم ، فإن الصحف لا تنشر إلا «إعلانات» عن هذا الكوبرى ، ولكن إذا وقع بيت متهدم على من فيه ، فهو حادث فظيع يستغرق اهتمام كل الصحف وكل الأقلام ، صحيح أن هذا حادث رهيب ، وتجب مواجهة مثل هذا الموقف بشدة ، حتى لا يتكرر . ولكنه ليس فى خطورة كوبرى يربط ملايين الناس ويعينهم على أداء عملهم ويختصر لهم الوقت الضائع . .

ومن يقرأ عن الشوارع والمجارى والمطبات والتليفونات فى مصر يستنتج أن أحدا فى مصر لا يتحرك حتى لا يقع فى الحفر ، ولا يتصل بأحد تليفونيا ، فلا حرارة هناك . . وأن مصر ليست إلا مدينة «البندقية» العائمة فى المجارى . . وأنه من أعمال القضاء والقدر أن الكوليرا لم تعتصر مصر كلها . . ثم نقرأ أن الكوليرا لم تصب أحدا فى مصر ، رغم المجارى والمستنقعات والبعوض! .

وإذا اتسع وقت أحد لكى يفكر فهو يقول : إما أن ما تنشره الصحف غير صحيح عن المجارى ، وإما أنه صحيح ، ولكن وزارات الصحة والداخلية والإعلام قد نجحت فى توعيتها لكل الناس . ومعنى ذلك أن هناك أعمالاً قد أنجزت فأنقذت مصر من هذا الوباء ! .

وإما أن مصر قد أصيبت بالكوليرا ولكنها تكذب ! .

ولا حدود للحوادث البشعة التى تنشرها الصحف كل يوم ، ويكون من نتيجتها أن مصر قد انتهت ، وأن سكان مصر يمشون فى جنازتها ، أو أنهم يدفنونها ، ومعها أنفسهم ومستقبلهم ، وهم سعداء بذلك ، لأنهم لا يفعلون أكثر من تلطيخ وجهها والبكاء عليها ! .

والمصريون خارج مصر يرون شيئاً أسوأ من ذلك أيضا ، لأنه أكثر انتشاراً وأكثر جاذبية : الأفلام المصرية فى التليفزيونات العربية . .

وهم ليسوا غاضبين على أفلامنا التى تعرض فى مصر ونراها معهم مثلهم . . ولكن هناك شيئاً أسوأ من ذلك : هو الأفلام التى يمثلها المصريون ويخرجونها وينتجونها لكى يعرضها التليفزيون فى البلاد العربية . .

ففى كل هذه الأفلام نجد أسوأ ما فى مصر : الدعارة والحشيش والنهب والسلب . . ويرون المواطن المصرى العادى إنساناً بليداً . متواكلاً ، ويرون الزوجة المصرية فى غاية الكسل والقذارة ، وإذا اهتمت بشىء فهو مظهرها فقط ، وهى تافهة لا عمل لها ولا دور . .

وإذا تزوجت رجلا من بلد شقيق فهى متسلطة وهى متغطرسة وهى تمضى وقتها كله فى الزينة وإنجاب الأولاد .

أما إذا تزوج الشقيق العربى واحدة من بلده وواحدة من مصر ، فالمصرية أسوأ وأحط ، وهو معذور إذا لم يتزوج مصرية ، ومعذور إذا عاد لابنة بلده لأنها الأفضل والأطيب والأحق بالحب وعظيم الاحترام ! .

وإذا ظهرت ممرضة فى أى فيلم ، فهى عادة أسوأ الجميع . . وهى الفتاة «السيئة السمعة» ؟! .

ويندهش المصريون ويتساءلون مخلصين : إننا لم نترك مصر منذ وقت طويل ، فهل تحول كل المواطنين إلى حشاشين وكل الأمهات والبنات إلى غانيات فى هذا الوقت القصير ؟ وإذا لم يكن ذلك صحيحاً فلماذا نتطوع بهذه القوة والإصرار على تشويه مصر ، وتهوين أمرها على كل الناس ؟ هل هؤلاء الممثلون ينتقمون من التليفزيون المصرى لأنه لم يعطهم ما يحتاجون إليه من مال ؟ .

إن المهندسين والأطباء والمعلمين والعمال المصريين فى الخارج لا يفعلون نفس الشىء مع مصر ولا يشعرون بمثل هذه المرارة . وهم لا ينسون أبدا أنهم مصريون .

وأن مصر أعز عليهم من هذه السفالة الأخلاقية ؟ .

والمصريون فى غاية الحساسية ، وهم بعيدون عن مصر . ويتمنون لها أجمل وأروع ما فى هذه الدنيا . . ولا يرون أن مصر ، فى هذه الضائقة المادية والسياسية ، قد انحطت وانهارت ، وإنما هى أمنا المرهقة من كثرة أعباء أبنائها الأربعين مليوناً ، وتحت وطأة الحرب والسلام معاً ، وإنها شدة سوف تهون . وإن دولاً مثلنا قد تعذبت بعد الحروب ـ مع أننا لم ننته من الحرب بعد ! وأن أمامنا طريقاً طويلا حتى نصبح قادرين على استخدام كلمة «بعد» . . حتى لو أفلحنا فى حل مشاكلنا الخارجية . فإن مشاكلنا الداخلية أقسى وأعنف ! .

ربما كان المصريون خارج مصر شديدى الحساسية ومصدر هذه الحساسية الشديدة أنهم «مفضوحون» أمام الأشقاء . . فهم فى حيرة : هل يكذبون ما تنشره الصحف المصرية؟ هل يكذبون ما يعرضه التليفزيون للممثلين المصريين ؟ .

إنهم عاجزون تماما عن مواجهة كل هذه الحملات اليومية العنيفة وحدهم . وإنما سوف يكونون أكثر غضبا على مصر . لأن مصر ـ أمهم ـ قد أحرجتهم وفضحتهم . وشجعت الناس عليهم . فإذا نظر إليهم العربى الشقيق على أنهم لصوص ، أو سوف يكونون ، أو أنهم حشاشون . . أو أنهم تافهون فهو لم يأت بشيء من عنده . . وإنما هو فقط «يصدق» ما تنشره صحف مصر وأفلام مصر ! .

وعلى ذلك ، فلا يصح للمصرى خارج مصر أن يغضب إذا كانت نظرة الآخرين إليه : هى نفس نظرة المصريين إلى المصريين ! .

وقد سمعت فى بلد عربى أن طفلا وقع فى بئر ، فأنقذه مصرى ، فنشرت الصحف أن : شقيقا عربيا قد أنقذ هذا الطفل ، ولم تشأ الصحيفة أن تقول إن المنقذ واحد من مصر .

وغضب المصريون لأن الصحيفة لم تنشر الحقيقة . ولما سئل الصحفى الذى نشر القضية : ولماذا لم تقل إن الذى أنقذه شاب مصرى ؟ .

أجاب : هل لو نشرت هذه الحقيقة . . يكون فى ذلك إنقاذ لمصر من مطباتها ومجاريها وتليفوناتها ولصوصها ؟! .

أى أنه يرى أن مصر لا إنقاذ لها مما هى فيه! ـ وهى وجهة نظر مصرية صميمة ، صحفية وتليفزيونية ! .

والمصريون يغضبون لأن الأشقاء العرب وغيرهم يصدقون ما تنشره الصحف المصرية .

وعلى ذلك فأكثر المصريين فى الخارج ساخطون على صحافة مصر وعلى حرية الصحافة فى مصر ، لأن هذه الحرية لم نستخدمها فى تجميل مصر ، ولكن فى تقبيحها . . لم نستعن بها على إنقاذ مصر ، وإنما على إغراق مصر والمصريين فى مصر وفى الخارج أيضا ! .

وبذلك يتحول المصريون خارج مصر إلى معسكر الغضب من مصر التى تبدد انتصاراتها العظيمة وتحدياتها الكبرى ، بأقلام وأفلام أبنائها من الكُتَّاب والممثلين! .

ومن عيوب المصريين عموما : المبالغة ، فنحن إذا وصفنا بالغنا . .

فالكاتب يبالغ والقارئ يبالغ أيضا . .

وكما أن ما نكتبه فى الصحف غير دقيق ، فما نسمعه من المصريين فى الخارج غير دقيق أيضا .

وقد قابلت فى بلد عربى أحد المصريين . وملأ أذنى بالشكوى ، وسألته : هل هم يعاملون كل المصريين معاملة سيئة ؟ .

قال : نعم .

قلت : لماذا ؟ .

قال : لا أعرف . .

وسألت مصريين كثيرين فلم أجد لهذه الشكوى صدى . وإنما هناك من يعاملون المصريين معاملة عظيمة ولكن إذا أخطأ أحد ، فالقانون على رقاب العباد . . فى مصر وفى السعودية وفى أبو ظبى والكويت . .

قالى لى صديق سعودى : يا أخى أنتم أهلكتم مصر . حرام عليكم . إن مصر أمنا جميعا . . ولكن هذا الذى تنشره الصحف المصرية ، إن لم يكن عقوقا متواصلا ، فهو إهانة متكررة . . إن فى بلادنا جرائم يومية لا تقل عن الذى يحدث فى بلادكم . ولكننا لا ننشرها . إننا نعاقب المجرم ويتولى الناس نشر أنباء الجريمة والعقاب . . ولكنكم ملأتم صحفكم بالمجرمين واللصوص والبغايا . . حرام عليكم ! .

إذا كانت فى مصر جرائم يومية يرتكبها بعض الناس ، فهذا طبيعى . . ولكن الذى ليس طبيعيا ولا عادلا ولا مشرفا أن تنشر صحف مصر أنه لا يوجد فى مصر إلا المجرمون واللصوص والمنحلون وأنه لا أمل عند أحد فى أحد أو فى شىء ! .

ومن أخطر نتائج هذه النظرة التشويهية لمصر ، أن صورة المصرى فى البلاد العربية وغيرها ، قبيحة أو سوف تكون كذلك . .

وهذا من شأنه أن يصيب مصر بالبوار فى خبراتها ، فلا تقبل البلاد العربية على الاستعانة بهم ، فى مجالات التدريس والطب والبناء والعمل . لماذا ؟ لأن صورة المصرى بأقلام المصريين قبيحة .

ولما كانت مصر تعتمد على قدراتها البشرية ، كمصدر هام للدخل ، فإن هذه الصورة الفظيعة سوف تؤدى إلى الكساد فى تجارة العقول المصرية . .

ومنذ سنوات دارت مناقشات فى مصر حول «تصدير العقول» المصرية . . أو نزيف العقول المصرية إلى الخارج ، وأن الاستمرار فى تصدير النوعيات الجيدة من المصريين ، سوف يؤدى إلى كساد داخلى . . أو تخريب داخلى ! .

وعلى الرغم من أن فى هذا الرأى شيئا من الصحة ، فإنه ليس صحيحا كله . .

فقد حدث نفس الشىء فى بريطانيا ، وهى التى ابتدعت تعبير «نزيف العقول» أو «تسرب العقول» أو تهريب العقول إلى أمريكا . . فقد لاحظت بريطانيا أن عددا كبيرا من علمائها يهربون إلى أمريكا . حيث فرص العمل أكثر وأوسع . . وحيث يتقاضون مرتبات أكبر . ويهربون من الضرائب الباهظة فى بريطانيا . .

ولكن بريطانيا لم تستطع أن تواجه هذه الهجرة العقلية . فالمواطن حر ، يعمل أينما يريد . . ثم إن بريطانيا لا تستطيع أن تعترض أحدا ولا أن تتيح له مثل هذه الفرص الهائلة التى يجدها فى أمريكا . وعلى ذلك فليس أمام بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية ، إلا أن تستسلم أمام هذه المواهب المهاجرة ! .

ولكن عادت بريطانيا فناقشت قضية هجرة العقول ، فوجدت أنها قد بالغت فى مخاوفها . وأنه ليس صحيحا أن بريطانيا قد خلت من المواهب . وأن فى داخلها علماء وأطباء وأدباء وشعراء وفنانين موهوبين . . وأن الهجرة لا تبرر إغلاق المدارس والجامعات حتى لا يتخرج فيها أحد ، ثم يهاجر إلى أى مكان فى العالم . فالأسرة العلمية عالمية . والتفوق العلمى يعود على الجميع . فعلماء أمريكا فى خدمة علماء بريطانيا وأطباء فرنسا فى خدمة مرضى ألمانيا وإيطاليا . . ومهندسو سويسرا فى خدمة مصر والسعودية .

ومصر أيضا قد هاجر منها مليون ونصف مليون . وهى طاقات بشرية صدرناها واستثمرناها ، فعادت إلينا مئات الملايين من الجنيهات وإلى الأبد . .

وهذا يضعنا أمام حقيقة حيوية : ليس لدى مصر من مناجم وكنوز إلا أبناؤها . . فأرضنا ضيقة ، ومواردنا قليلة ، وقناتنا محدودة . . ولكن القدرات التى لا حدود لها هى : البشر . . هى المدرسون والمهندسون والأطباء والعمال المهرة . هذا هو كنز مصر الحقيقى . ولذلك يجب أن نحسن استخدامه ، وأن نحسن الدعاية له . . أى تسويقه فى مجالات العلم والثقافة والفن .

إن إسرائيل نموذج واضح جدا ، لمدى نجاح الجاليات اليهودية فى أمريكا وأوروبا . إن هؤلاء اليهود خارج إسرائيل هم الذين أقاموها وساندوها وفرضوها بالقوة والعلم على الخريطة السياسية فى الشرق الأوسط وفى العالم .

وإذا نحن نظرنا إلى مصر فإننا لا نجدها قد خلت من المواهب وإلا فكيف تحققت كل هذه الإنجازات فى كل مجالات الحياة ؟ ! .

ثم إن مصر بها خبراء أجانب أيضا ، يعوضونها عن خسارتها فى الخبرات المصرية .

وفى مصر أيضا بيوت للخبرة الأجنبية . هذه البيوت تستخدم آخر ما وصل إليه علماء أوروبا وأمريكا فى بناء مصر . . وفى ذلك تعويض عن خسارتها فى علمائها وخبرائها .

ثم إن «الخبرة» نفسها ليس لها وطن فلا توجد هندسة إنجليزية وطب ألمانى . . وإنما نظريات الطب عالمية . ولذلك فالخبرة العالمية فى متناول كل الناس . . تماما كالعقاقير التى امتلأت بها الصيدليات . . والسيارات التى امتلأت بها الجاراجات . . والطائرات التى تضج بها المطارات . . كلها نظريات وتطبيقات عالمية . فى خدمة كل الناس .

فلا خوف على مصر ، إذا مضت فى تصدير عقولها إلى الخارج . فهذا طبيعى . وهذا ضرورى وحيوى لها . وسوف تفعل ذلك دائما .

إذن فمن الواجب علينا أن نحسن إنتاج هذه العقول . وأن نحسن تسويقها . وألا نتطوع بتشويه هذه العقول ولا تقبيح المدارس والمعاهد التى تنتجها . .

والذى يحدث بالأقلام والأفلام المصرية ، هو تشويه مستمر لكل ما هو مصرى . . للطالب والأسرة والمعهد وبذلك نخيف الناس من مصر . . نخيف الطالب العربى والمريض العربى والعامل العربى من كل ما هو مصرى . .

ونخيف السائح الأجنبى وصاحب رأس المال الأجنبى من أن يدخل مصر أو يقيم فيها . .

فإذا جعلنا مصر مخيفة لغيرنا ولنا ، فما الذى ننتظره من الآخرين . وما الذى نتوقعه لمصر ، إن لم يكن خرابها التام وسقوطها علينا وعليهم ؟ ! .

وإذا كانت مصر بهذا السوء ـ كما نتصورها ونصورها لنا ولغيرنا ـ فما الذى تستطيعه مصر هذه ، فى السياسة والحرب ؟ كيف تواجه إسرائيل بقدراتها الأمريكية والأوروبية الهائلة؟ كيف تواجه مصر السلام ! .

إن أعباء السلام والحرب على مصر ثقيلة وطويلة . وإسرائيل هى هذا الهواء المسموم الذى ينعقد سحابا أسود فى كل سماء . . إن مصر ليست وحدها التى ستواجه الدمار أو تواجه الموت الذرى . إنما ستواجه مصر وكل الدول العربية الأخرى . فأمام إسرائيل وتربصها المستمر يستوى أبناء الأنهار وأبناء الآبار . .

ولذلك فمن مصلحة الجميع . أن تبقى مصر قوية . وأن تكون صورتها مشرقة . وإن لم تكن كذلك ، فمن الواجب علينا أخلاقيا وحيويا ، أن نعمل على أن تكون مصر جميلة بأبنائها ولأبنائها ولأشقائها . .

والمطلوب من المصريين : أن يرحموا مصر وأن يخففوا عنها . . وأن يمسحوا وجهها ويخففوا دمعها ، وأن يرفعوها ، ففى ذلك رفعة لنا أيضا ! .

* * *

السبب المباشر لهجوم السادات على السوفييت

كان هجوم الرئيس السادات على السوفييت عنيفا ، فقد وصفهم فى خطابه إلى مجلس الشعب بالغباء السياسى ، فنهض السفير السوفييتى من مقعده ومن ورائه سفراء الدول الشيوعية ، ومضى الرئيس يكمل حيثيات الهجوم على السياسة السوفيتية فى مصر وفى الشرق الأوسط . .

ولم يكن فى حاجة إلى أن يقول كل شىء . ولكن أشار إلى عيوب فى التفكير السوفييتى : وهى أن لديهم فكرة ثابتة عن السادات . وهذه الفكرة هى قرار مسبق : أنه ليس رجلهم فى مصر وعلى ذلك فهو عدو لهم .

لأن القاعدة عندهم : إما أن يكون الإنسان عميلا لروسيا أو عميلا لأمريكا ، أو إما أن يكون عميلا لهم أو عدوا لهم ــ ولكن لا يوجد أحد وطنى أو قومى ! .

ولم تكن قرارات السادات بطرد الخبراء السوفييت إلا تحريرا للإرادة المصرية من السيادة السوفيتية ، ولم يكن منح السوفييت بعض التسهيلات البحرية إلا امتنانا لهم على الدور الذى قاموا به فى تسليح مصر .

ولكن السوفييت طلبوا فورا بعد طرد الخبراء تسهيلات بحرية فى مرسى مطروح فرفض الرئيس السادات ذلك ! .

أما سبب هذا الهجوم العنيف فهو أن كوسيجين ، فى الحفلة التى أقامها للمرحوم الرئيس هوارى بومدين ، قد هاجم مصر وقال : إن الرئيس السادات بمبادرته هذه قد أضاع حقوق الشعب الفلسطينى وأهدر الكرامة العربية ! .

وإذا نظرنا إلى المبادرة الأخيرة وجدنا أن الرئيس السادات بعد انتصارات أكتوبر قد سافر إلى القدس وقابل بيجين وصافح جولدا مائير وعشرات الزعماء السياسيين والعسكريين ، واختصر بهذا «الهجوم الأبيض» ألوف الخطب وألوف الأيام بين شعبين يربطهما الخوف والكراهية والرغبة فى الانتقام .

وقد بدأت المبادرة شخصية وانتهت عالمية . . وإذا كان السادات من العلامات البارزة فى تاريخ العرب . فإن مبادرته من علامات العصر .

وكوسيجين هذا هو الذى طلب تحديد لقاء بين السادات وجولدا مائير فى طشقند وكان ذلك فى سنة ١٩٧٢ ، على غرار اللقاء بين الرئيس الباكستانى أيوب خان والرئيس الهندى شاسترى . .

وكان المطلوب أن يذهب السادات مهزوما للقاء جولدا مائير . أى لكى يوقع على أية ورقة تقدمها له إسرائيل أو روسيا .

فإذا التقى السادات منتصرا بإسرائيل ، يكون قد أضاع القضية وأهدر الكرامة العربية ، وبدد الحقوق الإنسانية !! .

مع أن روسيا الآن هى المتهمة عالميا بتبديد الحقوق الإنسانية واضطهاد المفكرين والعلماء .

ولكن كوسيجين طراز غريب من الساسة السوفييت قادر على التكيف والالتواء . . يكفى أنه عاش فى ظل ستالين ١٣ عاما . يوم كان من المستحيل على أى إنسان أن يعيش ١٣ يوما . وخروتشيف هو الذى قال للرئيس السادات : إننا كنا نودع زوجاتنا فى كل ليلة يدعونا ستالين . لأن أحدا لم يكن يعرف هل يعود حيا إلى بيته أو ميتا . . وإذا عاد حيا فهل يصبح ناظر محطة أو يذهب فى قطار الصحافة إلى سيبريا . . وإذا عاد إلى بيته فهل يلزم الفراش أو يغير ملابسه ويرتدى ملابس شعبية لأن موعد الرقص قد حان ! .

وكان من عادة ستالين أن يطلب إلى كوسيجين وغيره أن يرقصوا له فى مكتبه بعد منتصف الليل وهى عادة إمبراطورية قد استنها الملك الرومانى كاليجولا . . فكان يطلب إلى الوزراء والشعراء أن يرقصوا . ثم يتفضل عليهم فيخيرهم بين الموت غرقا فى النبيذ أو القفز من النافذة ـ لقد كانت حريتهم الوحيدة هى أن ينتحروا ! .

ولعل الرئيس السادات بإبراز هذا الوجه السوفيتي أراد أن يقارنه بما فعله الأمريكان مع مصر أو بمصر . إنهم لم يتعالوا على القيادة المصرية . إنما كانت معاملتهم ندا للند . وكانت مساعداتهم غير مشروطة . . على الرغم من العلاقة الخاصة جدا التى تربطهم بإسرائيل . وهى علاقة عضوية . . علاقة الأم بطفلها الرضيع الذى لا يريد أن ينفطم . . وهذا الطفل الرضيع «إسرائيل» يبدو عملاقاً لأنه يجلس على كتفى أقوى دولة فى العالم . . ولذلك كانت ذراعه وساقه طويلتين . . وجيوبه مليئة بالذهب ومعدتهْ بالطعام ، وفى يديه أحدث الأسلحة فى الدنيا .

وهنا تظهر خطورة الدور الذى يلعبه الشعب الأمريكى . فلولا تسامحه وكرمه ومساعداته التى لا أول لها ولا آخر ما تشددت إسرائيل وتعددت ألسنتها واتخذت شكل بيجين وديان وشارون ومائير ويادين . . إلى آخر هذه الألسنة الطويلة الحادة . إن القوة التى وراء هذا التعالى : الشعب الأمريكى ! .

إن «الثغرة» التى حدثت بين قواتنا يوم ١٦ أكتوبر كان سببها أننا دفعنا بالفرقة ٢١ المدرعة قبل موعدها لإنقاذ سوريا من الهجوم الإسرائيلى عليها . ولكن القمر الصناعى الأمريكى هو الذى اكتشف هذه الثغرة فى جبهتنا فأرسل صورها إلى إسرائيل . وطلبت وزارة الدفاع الأمريكية إلى إسرائيل أن توازن نفسها مع مصر . فدخلت قوات الإسرائيليين ودخلت أمريكا بقوتها التى لا قوة لنا ولا حول أمامها . فتوقف القتال .

ولا تزال الأقمار الصناعية الأمريكية حتى هذه اللحظة تصور أرضنا وقواتنا ، وكل هذه الصور تقدم مع طعام الإفطار إلى القيادة الإسرائيلية .

وليس من العدل أن نريد السلام الذى تريده إسرائيل أكثر منا ، ثم تقدم أمريكا كل هذا السلاح الذى يتجاوز حدود حاجة إسرائيل . . إنها ــ إذن ــ تساعدها على العدوان علينا . . ولذلك كان الطبيعى أن تعطينا مثلما تعطيهم . . أو تتوقف عن إعطاء إسرائيل كل ما يدفعها إلى العدوان أو المجاهرة بذلك . .

ثم إن المخابرات الأمريكية هى التى اكتشفت أمس أن لدى إسرائيل أسلحة نووية محدودة ! .

* * *

ورغم ما حدث فى الدنيا شرقا وغربا ، ورغم اهتزاز أعماق إسرائيل واليهود في العالم والعالم كله . كان مناحم بيجين يقاوم اتجاه رياح السلام ويثور ويغالط . . ويقدم يدا ويخفى وراء ظهره سلاحا فى اليد الأخرى . إنه إرهابى قديم ويعز عليه ألا يرهب أحدا حتى لو لم تكن هناك ضرورة لذلك ! .

وعندما وصف الرئيس السادات بأنه تاجر شاطر أو كالتاجر الشاطر قال لمحمد إبراهيم كامل : يا أخى لست تاجرا شاطرا ، إننى مقاتل شاطر ! .

مع أن الشطارة ليست عيبا فى المقاتل أو فى التاجر ، إنها مطلوبة ومرغوبة . . ثم

إن إنكار الشطارة والتظاهر بالبراءة والسذاجة هو شطارة جديدة وقد أضيف إليها قدر لا بأس به من الخبث أيضا !

إن العالم كله وضع على كتفى بيجين كل هموم العصر من أوله لآخره . وسوف يتهمه بأنه الرجل الذى نسف مبادرة السلام ـ وإن كان لا يستطيع أحد ذلك . فلم تكن المبادرة تتعلق بشخص السادات ، إنما تتعلق بأحلام الإنسانية فى أن يكون سلام ، وأعمق أعماق الشعب اليهودى بأن يكون آمنا وأن تكون له «شرعية» فى أى أرض .

تلك مشكلة «اليهودى» فى كل العصور أنه مخنوق وأنه منبوذ وأنه محبوس فى عشرات السجون : فى حارة اليهود وفى العزلة وفى الخوف وفى الكراهية وفى دينه الخاص وفى أحلامه بأن يكون له وطن فلما أصبح له وطن تحول الوطن إلى حارة يهود كبرى محاطة بالأعداء ومحاطة بالرفض . . ثم أصبح سجينا فى ترسانة من السلاح الأمريكى . أى أحدث أنواع الخوف المشحون بالكراهية ! .

إن العالم كله الذى صفق للسادات وشكر اللّه على أنه أعطى للناس هذه الفرصة أن يعيشوا ليروا الفجر الصادق للسلام ، يتجه بكل أصابع الاتهام إلى العقبة فى وجه السلام .

إن صحيفة «نيويورك تايمز» قد حذرت الطرفين من إضاعة هذه الفرصة وشنق الأجيال القادمة ، التى سوف تكون أكثر مرارة وحقدا وأكثر شهية لسفك الدماء على الأراضى المقدسة فى الشرق الأوسط ! .

إن رسالة تركها السناتور الأمريكى هيوبرت همفرى ، ونشرت بعد وفاته يحذر فيها صديقه بيجين ألا يضيع هذه الفرصة النادرة ! .

إن عبارات بعث بها الفيلسوف الوجودى سارتر إلى ندوة «النظرة الجديدة» التى انعقدت فى الشهر الماضى فى القدس لَمِنْ أرق وأحكم ما قرأت . وسارتر هذا يعطف على اليهود وله كتابه المشهور عن «تأملات فى المسألة اليهودية» ثم إنه أوصى بثروته لفتاة تبناها من إسرائيل . وقد زار مصر وقطاع غزة وإسرائيل ، ونشر بعد الزيارة كتابا ضخما عن «النزاع العربى الإسرائيلى» .

يقول سارتر فى رسالته : «فى ذلك اليوم ١٩ نوفمبر . هبطت طائرة تحمل رئيس أقوى عدو لإسرائيل . وانفتح باب الطائرة ليخرج رجل وحده . ويتوقف لحظات ثم يبتسم . لقد رأيت ذلك الحدث مثلكم تماما .

إنها أسطورة . . إنه يشبه سقوط الباستيل . ولم يكن سقوط الباستيل هو مجرد الاستيلاء على قلعة قديمة خالية ، إنما كان سقوطه رمزا لسقوط نظام قديم . . وكان هذا الذى فعله السادات رمزا لحدث أسطورى فى التاريخ .

إن هذا الحدث معناه أن الآخرين قد أعطوا الحياة لأعدائهم . وعليكم أنتم أيضا أن تعطوا الحيـاة للفلسطينيين . . فـمن حق الفلسطينيين أن تكون لهم دولة ، وأن يختاروا لأنفسهم مصيرهم . . إن كل الأطراف قد اتفقت فى لحظة واحدة على أن تكون للجميع حياة فى سلام .

وقد أعلن منديس فرانس وهو رئيس وزراء سابق لفرنسا ويهودى أيضا ، فى ندوة «النظرة الجديدة» : أن الشعب اليهودى قد اكتسب عطف العالم كله . لأنه أراد الحياة ، ولأنه محروم من الوطن . وأنه يريد أن يكون سيد نفسه على أرضه . فيختار مصيره ، وقد تحقق للشعب اليهودى ما أراد . . فكيف ينكر ذلك كله على الشعب الفلسطينى . إن الشعب الفلسطينى يجب أن تكون له أرضه وتكون له سيادته عليها . . وإذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أراقت الدماء فهى معذورة فهى حركة مقاومة تريد الوطن وحق تقرير المصير . . تماما كما أرادت إسرائيل ، وكما تنسى الآن كيف كانت وكيف أصبحت ! .

واستحق منديس فرانس تصفيقا عاليا عالميا أيضا ! .

ولما قابلت الحاخام إسحاق شندلر فى القدس استأنفت حوارا معه وقلت : إن بيجين يقوم بمحاولة شريرة . فهو يريد أن يقنع الناس بأن مبادرة السادات مجد لم يبلغه أى إنسان . أى أنها مبادرة شخصية مجيدة . يستحق عليها السادات عظيم الامتنان وجائزة نوبل فقط ! .

وكان رد شندلر أن الرأى العام العالمى يضيف إلى هذه المبادرة مزيداً من الحياة المستمرة . .

مع أن المبادرة لم تعد ملكا لأحد . . إنها مثل كل الإنجازات الكبرى التى غيرت مسار التاريخ . . أو مثل الاكتشافات العلمية التى تنسب لأصحابها بعض الوقت ثم تكون ملكا للإنسانية . . فلا أحد يعرف من الذى اخترع ٩٩٪ من الأجهزة التى نستخدمها كل يوم ، والتى غيرت حياة البشرية . . ومن المؤكد أنها من صنع رجال متفوقين . وينسى الناس هؤلاء المتفوقين ولا يذكرون إلا ما قدموا للبشرية . ولذلك فالسادات يحاول أن يدفع المبادرة فى كل اتجاه وبكل قوة . . لتتخذ مدارات أوسع . .

تماما كما يحدث فى سفن الفضاء . . إن بها قوة دفع إلى أعلى وأبعد لتظل عالية فى خدمة الإنسانية ! .

ولذلك فما يقوم به مناحم بيجين من افتعال معارك جانبية لتوجيه أو تحريك الكتل اليهودية العالمية ضد مصر أو الصحف المصرية أو الدبلوماسية المصرية ليس إلا نوعا من إطلاق النار وهو ينسحب ! .

ومن المؤكد أن بيجين ممثل كبير أو رجل له أعصاب حديدية . . إنه يشبه «البارمان» فهو الوحيد الذى لا يشرب الخمر مثل الزبائن . . ولو فعل بيجين ذلك لما عرف من الذى يشرب الخمر صافيا ومن يشربها بالماء أو بالثلج ، ومن الذى دفع ومن الذى يغالط مثله ! .

ولكن ما أغناه عن هذا كله . . إنه يريد السلام أكثر منا . . إن الشعب المصرى ليس كله مسلحا . كالشعب الإسرائيلى . . إن صفارة الإنذار إذا انطلقت فى مصر فإن مليونين فقط من العسكريين والمدنيين سوف يحملون السلاح وينقلون الذخيرة ، أما بقية الشعب فسوف يجلس إلى جوار الراديو والتليفزيون . . ولكن الشعب الإسرائيلى سوف تتعطل حياته من أولها لآخرها ولا يبقى إلا الأطفال والشيوخ والمرضى . . والباقى كله خوفا من الموت ، يحمل سلاحا أمريكيا متطورا .

إن اليهود بشر مثلنا . بل إن تاريخهم أقسى وأتعس وأسود من تاريخنا . فليس فى طاقة بشر أن يظل خائفا مكروها منبوذا طول عمره . . يكون غنيا منبوذا ويكون عبقريا منبوذا . . ويكون شعبا اختارته التوراة ثم رفضته كل الشعوب . . ثم يهرب من الحارات والسجون ليلقى بنفسه فى بحر الكراهية العربية . . ويكون فى نفس الوقت صداعا للعالم كله ! .

إنهم يريدون السلام ، ونحن أيضا . فلماذا لا نواجه الواقع المخيف . بواقع لا يخيف .

ومن بين الرصاص الذى يطلقه بيجين وهو ينسحب : أننا ضد اليهود .

إننا لسنا ضد اليهود ، وحتى لو كنا ضدهم . فهم أيضا ضدنا ونحن حتى هذه اللحظة أعداء . ألسنا حتى هذه اللحظة فى حالة حرب . ونريد أن ينتهى ذلك كله على مراحل . فلا يمكن أن تتم تصفية حساب قديم بيننا فى جلسة أو فى أربعين جلسة . . إن فك الاشتباك قد أخذ منا ٢٦ جلسة وأعطانا بضعة كيلو مترات ، أقل من عدد أصابع اليدين . . وإن أمريكا احتاجت إلى ١٣ عاما لتصفى حسابها مع

أصغر دولة فى أمريكا : بناما . . ولتعرف كل من الدول العظمى والدول الصغرى : حدود السيادة على قناة بناما وعلى ترابها ومائها ! .

ولكن المشكلة أن كلمة «يهودى» لها تاريخ طويل عند كل الناس . وهذه الكلمة رغم اعتزاز اليهود بها تضايقهم فهم لا يستطيعون أن يتخلصوا من أعز ما يعتزون به . ولا يستطيعون أن يتخلصوا من النكت التاريخية العالمية . .

فإسرائيل دولة قامت من كتاب واحد : التوراة . . ولما انهدم معبد سليمان أقام اليهود معبداً جديداً هو : التلمود . . فوقف الشعب اليهودى محتميا فى كتاب آخر . .

واليهود فى كل العالم ، من كل لون ولغة ، لم يعرفوا بعضهم البعض . . ولكن إنجازا هائلا قد تحقق بوجودهم فى إسرائيل . . إنهم كانوا مثل ملايين الموسيقيين أمامهم نوتة موسيقية واحدة . . يعزفونها من ألوف السنين . فى أوقات مختلفة وعلى آلات مختلفة . . وفجأة وسرا وبإصرار جمعهم مايسترو واحد . ولما أشار إليهم أن يبدأوا العزف كان لحنا واحدا ـ وهذا من عجائب الإيمان والإرادة . .

فاليهودية إذن ليست تهمة إذا وصفوا بها . وإذا تمسكوا بها . .

وإذا أردت أن تجرب مدى تمسكهم بذلك . فقل لهم : ولماذا لا تكون إسرائيل دولة علمانية ، أى دولة ليس منصوصا فيها على الدين الرسمى للدولة كما كان يراد لمصر فى أيام جمال عبد الناصر .

يثور اليهود ويقولون لك : بل نحن دولة يهودية ! .

فإذا قلت لهم : ألم تقولوا : إنكم إسرائيليون . . وأن هناك إسرائيليين عربا وإسرائيليين يهودا .

قالوا : ولكننا يهود أصلا وفصلا وقولا وفعلا وسلما وحربا ! .

ويعود بيجين مرة أخرى فيضع الملح على الجرح ويقول : بل أنتم أعداء للسامية ! .

وهو يشير بذلك إلى كثير من المقالات التى كتبتها ، وقد احتج رسميا على ذلك . . ولكن هذه التهمة : العداء للسامية . كانت شيئا مخيفا إذا قيلت لأى أوروبى .

وقد نجحت دور النشر والدعاية اليهودية فى الترويج لهذا التعبير والتخويف به .

وقد ظهر هذا التعبير فى ألمانيا من مائة سنة تماما . . وقد ابتدعه الكاتب فلهلم مار . . وقد وصف به عداء الأوروبيين للساميين . أى لليهود . وهم ساميون لأنهم

من أبناء سام بن نوح . . أى أنهم آسيويون ، والمعادى للسامية هو إنسان عنصرى ، أى أنه يؤمن بتفوق العنصر الآرى على أبناء سام من الآسيويين وأبناء حام من الأفارقة . . وهو لذلك إنسان متعصب وبيجين يريد أن يقول إننا متعصبون ضده وضد إسرائيل .

مع أن بيجين نفسه وكل الطبقة الحاكمة فى إسرائيل آريون أى أوروبيون ولا علاقة لهم بآسيا أو أفريقيا . فهم أجانب وهم إذ عادونا نحن فهم معادون للسامية والحامية أيضا ! .

وإذا كان العداء للسامية معناه العداء لليهود فاليهود يلقون هذا العداء فى كل العصور من أيام إمبراطوريات بابل وآشور وروما . . وعندهم سجل طويل عريض للطرد والذبح والقتل لا تتسع له هذه الصفحة والصفحات التالية . فالعداء ــ إذن ــ للسامية قديم جدا . .

وهناك من يهود إسرائيل نفسها من لا يؤمن بهذه الدولة ويرى أنها دولة ليست يهودية . لأنها لم تقم على النحو الذى أشارت إليه التوراة . . فلا جاء مسيح منتظر ولا أقامها ، إنما بالحديد والنار قد انتزعت إسرائيل أرضا وشردت شعبا . وقد رأيت هؤلاء اليهود واشتريت كتبهم . إنهم جماعة يسمون أنفسهم «مدينة كارتا» أى حراس المدينة . وهم يعيشون فى القدس . ولكن يحملون جوازات سفر أمريكية ولا يتعاملون مع إسرائيل وهم يؤمنون بالتوراة فقط . ولا يرون أن «التلمود» كتاب مقدس . مع أن اليهود يرون أن «التلمود» أهم وأخطر وأقدس من التوراة . وهؤلاء اليهود بعثوا إلى الملك حسين يستأذنونه فى زيارة «حائط المبكى» لأن حائط المبكى فى القدس العربية التى كانت للأردن حتى حرب ٦٧ ، وآلت الآن إلى الاحتلال الإسرائيلى . وهم لم يروا حائط المبكى الذى يبعد عنهم مئات الأمتار لأنه فى أرض تحتلها إسرائيل ــ هؤلاء هم الوحيدون فى العالم الآن الذين يصفون إسرائيل بأنها الدولة «المزعومة» .

ثم إن كاتبا يهوديا عظيما اسمه آرثر كيستلر قد أصدر كتابا عنوانه «القبيلة الثانية عشرة» وفى هذا الكتاب يقول : إنه ليس لليهود الحق التاريخى فى أن تكون لهم أرض إسرائيل لأنهم أوروبيون وليسوا ساميين ! .

ثم إن فى داخل إسرائيل اضطهادا واحتقارا لليهود الساميين . أى أن القيادة الإسرائيلية معادية للسامية . وكل هذا كلام يمكن أن يقال دفاعا عن السامية أو توضيحا للعداء لها . .

ولكننا لا نريد أن نعود إلى حسابات قديمة وإلى نبش القبور اللغوية والأضرحة التاريخية . . إننا نريد أن نصفى القديم وأن نصفو إلى الجديد . .

وبيجين يريد أن يقلب فى الرماد وأن ينفخ فى النار . فيثير العالم كله علينا ، ولكنه يثير عالما قد تعب من النفخ فى التراب وتعب من تقليب النار وتأليب الشعوب بعضها على بعض وتعب من الكراهية والمرارة ويريد السلام مع نفسه ومع غيره . .

ثم إن صدى ما يقوله بيجين ليس فى صالحه . فالأقلام والأصوات تردد أنه يجب أن يكف عن لعبة قديمة مملة . وأنه جاء على المسرح متأخرا ، وأن طاقة القدر قد انفتحت له . وأنه من الخير له أن يقدم هدية السلام إلى شعبه وهو يحتفل بمرور ثلاثين عاما على قيادم دولته . . بدلا من أن يضيف مزيدا من الدموع إلى عيون الأرامل والأيامى واليتامى فى إسرائيل . .

وبيجين يدعى ضعف الذاكر فيقول إن الرئيس السادات قد قال له : كلهم شيوعيون . . وكان ذلك ردا على تساؤل بيجين : هل بين الفلسطينيين شيوعيون ؟ .

إن بيجين يتهم شعبا من أوله لآخره بأنهم عملاء كلهم . . إن بينهم شيوعيين . هذا صحيح وبين أعضاء المنظمة قيادات غير مسئولة . ومنهم إرهابيون ونحن نرفض الإرهاب ونستنكره ولكن الفلسطينيين معذورون . إنهم يقاومون ويحاربون بكل سلاح مستطاع .

ولكن بيجين يريد أن يضيف إلى مالم يقله الرئيس السادات : أنه مادام الفلسطينيون جميعا شيوعيين فسوف تصبح الضفة الغربية إذا استقلت دولة شيوعية ! .

وقال بيجين أيضا : إن مدينة نابلس التى سوف تكون عاصمة للدولة الجديدة على مدى ساعتين من أوديسا السوفيتية ! .

ولكن الرئيس السادات لم يقل هذه العبارة التى أطلقها بيجين وهو يتراجع عن موقفه القديم . ثم لنفرض أن بين الفلسطينيين شيوعيين ، أليس فى إسرائيل نفسها حزب شيوعى . أليس هذا الحزب عضو عربى فى الكنيست ! .

وأكثر من ذلك : ألم تقم إسرائيل نفسها على أيدى رواد من الشيوعيين الروس والبولنديين ؟ .

ولكن مصر هى التى رفضت قيام دولة شيوعية فى المنطقة . . وترفض الشيوعية والتبعية المطلقة لأية دولة أجنبية . وقد ألح السوفييت على الرئيس السادات أن يعترف بالانقلاب الشيوعى فى السودان . ولكنه رفض ذلك ، حتى قامت الحكومة الثورية الشرعية فى السودان ـ وربما كان هذا الرفض هو الذى أضاف كثيرا من المرارة على ألسنة السوفييت والكثير من الحصى بين أسنانهم . وهذا يجعل من السهل عليك أن تتخيل وجه كوسيجين وهو يتحدث عن مصر والمبادرة والسلام !

* * *

إن أشياء كثيرة قد طرأت ما بين لقاء السادات وبيجين فى فندق «كنج دافيد» بالقدس . . وبين لقاء السادات وكارتر فى «كامب دافيد» فى أمريكا . .

إن المبادرة كما يقول الفيلسوف سارتر : قد جعلت المستحيل ممكنا . . وسوف يتحقق هذا الممكن يوما بعد يوم .

وإذا كان بيجين يريد منا أن نكف عن استخدام عبارات تضايقه . فهو أيضا يجب أن يكف عن استخدام قصص تضايقنا .

فليست كل مناسبة ، سواء كانت لشراب الشاى أو العشاء هى فرصته المفضلة لكى يروى لأطفال العالم : قصة أمنا العجوز والغول . . أو قصته المفضلة : دافيد وجولياث . وعلى الرغم من أن هذه القصة تضايقنى ، فلا بد أن أحكيها . قال ــ أو يقولون ــ : إن الأمير دافيد ظهر له رجل عملاق ضخم وحش . واعترض طريق كل الناس وتغلب عليهم . . وكان لابد أن يبعثوا له بشاب يحاربه ويخلص الإنسانية من الإرهاب الذى قطع طريقهم وأرزقهم وراحتهم . وذهب دافيد الأمير اليهودى ليرى العملاق العربى الشرقى ، فوجده يحتمى وراء درع هائل . وهذه الدرع ثقيلة لا تجعله قادرا على الحركة . ولم يكن عند دافيد سلاح إلا ذكاؤه ، وهداه ذكاؤه إلى أن يضرب العملاق بالطوب فى جبهته . . وظل يضربه فى جبهته بالطوب حتى سقط العملاق . انتهت قصة أبينا العجوز بيجين . وتلفت يمينا وشمالا ، مثل أسد «مترو» ليملأ أذنيه وعينيه بالتصفيق . أما المعنى فهو : أن العرب قوة غاشمة ، وأن إسرائيل قوة ذكية ! .

فلا نحن قوة غاشمة . ولا هم الذين احتكروا الذكاء . وإنما الذكاء هواء يتنسمه الجميع . ولكن مواردهم من القوة لا حدود لها ! .

ثم إذا كانوا قد هزمونا فى سنة ١٩٦٧ ، فقد فعلنا نفس الشىء فى ١٩٧٣ ، وكان الطريق مفتوحا إلى تل أبيب كما أعلن موسى ديان بعد يومين من المعركة . . وبعد أربعة أيام أعلنت جولدا مائير كما جاء فى مذكرات رئيس الأركان أليعازر : إننا فى الحضيض وعلى أمريكا أن تفعل شيئا ! .

أما النكتة التى لا يضحك لها أحد إلا بيجين فهى نكتة المستعمرات . وقد أقيمت أول مستعمرة على أرض فلسطين فى ظل الاحتلال العثمانى سنة ١٨٧٨ . وتوالت المستعمرات الزراعية . اليهود يبحثون ويشترون الأرض ولا يعرفون كيف يزرعون ويبعث لهم البارون روتشيلد بمن يعلمهم فلاحة الأرض . . حتى أصبح عدد المستعمرات التى أقاموها بين قيام دولتهم وحرب أكتوبر أى فى ٢٥ عاما ٥٠٠ مستعمرة زراعية . . وبعضها مستعمرات شيوعية لا يملك فيها أحد أي شىء .

وبعضها تعاونية . . ثم إنهم أقاموا فى سيناء ست مستعمرات أكبرها وأشهرها مستعمرة ياميت أى «البحر الصغير» عند رفح .

وعندما أعلن الرئيس السادات رفضه لهذه المستعمرات توقفت أعمال البناء وأعلن سكان هذه المستعمرة أنهم سيقاضون الدولة لأنها خدعتهم سنة ١٩٧١ عندما قررت أن هذه المستعمرات لن تعود إلى مصر . . ولقد تظاهر سكان هذه المستعمرة . وقالوا : إن حكومتهم قد كررت وعد بلفور بصورة أخرى . . أى أن الدولة التى لا تملك الأرض أعطتها لمن لا يستحقها . .

بالضبط كما أعطت بريطانيا بوعد بلفور أرض فلسطين لإسرائيل . . أى أعطت مالا تملك لمن لا يستحق .

والمستعمرات نكتة لأن إسرائيل تطلب منا أن نترفق بسكانها الذين جاءوا من السويد والنرويج وأمريكا بحثا عن الأمن والأمان . وحرام علينا أن نطردهم من بيوتهم ! .

إنها تشبه بالضبط حكاية الرجل الذى قتل أباه وأمه ووقف أمام القاضى يطلب الرحمة لأنه أصبح يتيما ! .

فعلا أصبح يتيما ، ولكن لأنه ارتكب جريمتين .

إنه احتل أرضا ليست له ، وأقام عليها بيتاً . أى أنه أقام بيتاً يملكه على أرض لايملكها . . ثم يطلب الرحمة حتى لا نطرده من بيته ! .

أو كالذى يدخل بيتك ويسرق مالك ، فإذا خرجت له بالمسدس فى يدك قال لك : هذا لا يتفق مع الشهامة إذ كيف تواجه بالسلاح إنسانا أعزل ؟ ! .

ولكنه دخل بيتا ليس له . وسرق مالا يحق له ! .

وهذه المستعمرات نموذج للتفكير الذى يعرقل السلام . لأن المستعمرة هى اعتداء على أرض الغير وانتقاص لسيادة الغير . .

ولا يمكن أن يتحقق سلام دون أن نتفق أولا على هذه البديهية : لا مساس بأرض الغير ولا بسيادته ، والذى يقال عن المستعمرات التى فى سيناء ينطبق على عشرات المستعمرات فى الضفة الغربية . ولذلك كان الجلاء عن المستعمرات أو «إجلاء» المستعمرين عن المستعمرات «مبدأ» وهذا مالايريده بيجين ومن هنا كانت صعوبة إعلان المبادئ ! .

ونحن نريد أن نستخلص منهم هذا المبدأ ولكنهم يراوغون . .

* * *

والموقف صعب ومعقد .

ولذلك فهناك اجتهاد سياسى يقول : إن السادات ، إدراكا لكل هذه الصعوبات ، قد لجأ إلى العلاج بالصدمات . . فالمفاجأة صدمة هائلة . . وعقد مؤتمر القاهرة : صدمة . . وسحب اللجنة السياسية : صدمة . . وتحميل الرأى العام الأمريكى المسئولية كاملة : صدمة جديدة . لعل العالم كله يفيق ليرى إسرائيل وقد انكشفت نيات قادتها واحدا بعد واحد . .

وليس أسهل من الحرب . إنها قرار تنطلق بعده المدافع والصواريخ والصرخات والدموع .

وليس أبشع من ذلك أيضا . .

أما السلام فيبدأ بمد اليد المنزوعة السلاح بالتحية والكلام .

لأن الهدم سهل والبناء صعب . .

ثم إننا لا نعرف إسرائيل ، ولا هى تعرفنا . . ونحن لا نلتقى إلا فى درجات حرارة عالية . . وإلا فى الدخان والنار والكراهية والخوف . . لم يعرف أحدنا الآخر إنسانا عاديا يتكلم ويصافح ويأكل ويشرب . .

لقد كان مشهدا رهيبا أن نرى من نافذة طائرة الرئيس السادات طائرات الفانتوم الإسرائيلية . . طائرات تحميه . . صورة خرافية . . إن طيارا إسرائيلياً قال لى : تصور أننى جئت لحماية زعيم عربى . . إننى أخاف عليه من الرافضين العرب إن هذه خرافة القرن العشرين ! .

ومادمنا قد اخترنا الكلام والسلام . فالجلوس طويل . والكلام كثير . والاختلاف ممتد . . وطريق السلام طويل والخطوات إليه قصيرة . وهذا ما حدث بعد الحروب جميعا .

ولكن لابد أن نستفيد من التاريخ وألا نضيع الوقت فى أن نمشى فى نفس الطريق الطويل . . لقد اختصرنا عشرين عاما . . ولكن من كم عام اختصرنا هذه العشرين ! .

فى استطاعتنا أن نجعل الباقى خمس سنوات أو عشر سنوات أو عشرين أخرى . . إن الأمر متروك لشعوبنا وقياداتنا وللرأى العام العالمى وللملايين الأمهات والشباب . . ولكن السلام قد بدأ . .

إننى أعذر مناحم بيجين . . إنه مثل مايسترو يقود فرقة موسيقية . . لا يعرف إلا لحنا واحدا حزينا كريها عاش به وعليه ودخل من أجله السجن حتى ضعف بصره من المصابيح المضاءة ليلا ونهارا فى زنزانته . . وفجأة هبط عليه مايسترو آخر . . وقبل أن ينزل هذا المايسترو فوجئ بيجين بأن إسرائيل والعالم كله تعزف لحن المايسترو الجديد .

إن بيجين معذور إذ كسر عصاه ومزق آلته الموسيقية واتهم الجماهير بالخيانة والعداء للسامية !! .

فمن فندق «كنج دافيد» إلى ضاحية «كامب دافيد» يا قلب يجب ألا تحزن ، فإن كثيرا قد تحقق لنا وتحقق بنا ! .

* * *

شاهد على مناحم بيجين

يوم ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ زلزلت الأرض فى إسرائيل ، وفى المنظمات اليهودية فى العالم . لقد جاء مناحم بيجين إلى السلطة . وبمجىء بيجين إلى السلطة اتخذت القضية اليهودية شكلا دينيا صوفيا . وارتفع المد الدينى التقليدى فى إسرائيل كلها . وعاد إلى أذهان العالم كله أن فلسفة من التصوف العنيف سوف تتحكم فى التفكير الإسرائيلى من أوله لآخره .

فرئيس الوزراء الجديد إرهابى قديم ، وإن كان يتباهى بأنه لم يمسك قنبلة ولامدفعاً فى يده . ولكن كان عقله يضع خططا للذين أمسكوا القنابل ضد الإنجليز فى فلسطين . جاء إلى الحكم لعدة أسباب :

أولا: أن اليهود الشرقيين ــ وهم أغلبية ــ قد ضاقوا بحزب العمل الأوروبى . أى الحزب الذى يضم اليهود الغربيين (الأشكناز) الذين يتعالون على اليهود الشرقيين (السفاردى) ، فالغربيون جماعة من الأوروبيين جاءوا يطبقون حياتهم وأحلامهم فى الشرق . وجعلوا الحزب دكانا مغلقا عليهم . فلم يدخل الكنيست (١٢٠ عضوا) سوى ٢٤ من اليهود الشرقيين . . ثم إن تعاليهم على بقية الشعب جعل المسافة كبيرة بين البيض والملونين فى إسرائيل . حتى قيل : إن هناك فى داخل إسرائيل دولتين : إسرائيل الشرقية ، وإسرائيل الغربية! . .

ولأن الشرقيين أغلبية فهم الذين أتوا ببيجين إلى الحكم وقد انضمت إليهم الكتل الدينية . ولذلك كان مجىء بيجين إحياء جديداً للدين والغطرسة فى نفس الوقت .

ومن أهم دعاوى هذا الدين أن إسرائيل الكبرى ، تمتد من النيل إلى الفرات . . وعلى ذلك فالضفة الغربية وقطاع غزة (السامرة ويهودا) أرض مقدسة . ولا يمكن الانسحاب منها . وهذا قرار نهائى . . وإلا فالحرب .

كما أن قانون العودة ينص على أن من حق أى يهودى أن يعود إلى إسرائيل وأن يملك أرضا . أى أرض فى أى موقع . والدولة سوف تدافع عنه حتى آخر جندى عربى! .

وثانيا : سوف تواجه الحكومة الجديدة البطالة الشديدة . وهى من مخلفات حزب العمل الذى يحكم إسرائيل منذ قيامها سنة ١٩٤٨ . . ولذلك فليس من صالح الدولة أن يتحقق السلام الذى يؤدى إلى تسريح الجيش . فإذا تم تسريحه كله أو بعضه . تضاعف عدد الأيدى المتعطلة . . خاصة أن إسرائيل بعد حرب ٧٣ قد زادت قواتها المسلحة من ٣٥٠ ألفاً إلى نصف مليون ثم جعلت تجنيد المرأة إجباريا! .

والزلزال الآخر عندما زار السادات القدس . فقد أدت هذه المبادرة إلى إحراج الدولة وإلى اضطراب برنامجها الذى أتى بها إلى السلطة .

وكان على بيجين أن يواجه السلام وأن يواجه المد الهائل فى الشعب اليهودى وفى العالم كله وعليه أن يختار بين السلام والدمار . بين أن يبقى فى الحكم ويتنكر لكل الدعاوى التى أتت به إلى السلطة ، وبين أن يساير مواكب السلام وأن يعدل فى خطوطه وأن يلين ، لأن هذه الفرصة النادرة لم تتح لأحد من قبل .

وسوف يدخل التاريخ كأشجع رئيس لوزراء إسرائيل منذ بن جوريون ، وأنه رجل ساهم فى صنع السلام فى الشرق وفى العالم كله . .

وليس بين اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل مثل هذا الرجل «إيلى الياشر» الذى صدر عنه كتاب بعنوان (فلسطينيون وعرب تعايش وإلا عقيدة إيلى الياشر) من تأليف فيليب جيلون . هذا الرجل (الياشر) قد كان صهيونيا بارزا شارك فى المنظمات الإرهابية . واختير نائبا لعمدة القدس وعضوا فى الكنيست سنوات طويلة . وهو الآن الرئيس الفخرى (لمنظمة السلام مع الفلسطينيين) وقد درس الطب أيضا فى بيروت ودرس الحقوق فى مصر وفى القدس . وهو فى الثمانين من عمره .

وعندما كانت الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب تحت الطبع . جاءت مبادرة السلام . . فأحس الرجل أن هذه هى النهاية السعيدة لحياته الطويلة . .

فقال : لقد ظللت عشرات السنين أدعو للسلام مع العرب . وقد حقق اللّه لى هذه الأمنية بمبادرة السادات التاريخية الباهرة الشجاعة . فرأيت أن أضيف فصلا

إلى هذا الكتاب الذى يعد تحية متواضعة لرجل شاءت له الأقدار أن يهب الحياة لملايين الناس فى الشرق وفى العالم . .

ولذلك فهذا الرجل اليهودى الصهيونى هو خير شاهد على روح العدل والإنصاف . . وهو خير شاهد فى محكمة التاريخ التى تفصل بين اليهود والعرب فى قضية فلسطين . . إنه يرى أن الشعب الفلسطينى الحق الكامل فى أن تكون له دولة مستقلة ــ تماما كما أصبحت لليهود دولة . .

وهو خير شاهد على سوء فهم اليهود الخواجات الذين يحكمون إسرائيل التى يريدونها دولة شرقية فى قلب الشرق الأوسط وعلى علاقة سليمة شرعية بالجميع ؟!! .

* * *

وهذا الرجل صهيونى إسرائيلى مخلص . ولذلك فهو يرى أن السلام ضرورة حياة . فقد عاش الشعب اليهودى خائفا . ودفعه الخوف إلى العدوان . ودفعه العدوان إلى الخوف وطلب الأمان من الذين أخافهم واستولى على أرضهم ، وحرمهم حق الحياة الذى فاز به هو أيضا . . وحرمهم من الحق فى أن يكون لهم وطن مثل وطنه .

وبيجين ومؤيدوه من جماعة (جوش أمونيم) المتطرفة التى ترى التمسك بالأرض تنفيذا لإرادة الله ، ويؤمنون بأن «أرض المعاد» هى من عند الله .

ولكن لا يوجد أى دليل فى التوراة على صحة ذلك ، فأكثر الناس تطرفا يقولون : إن الله قد وعد إبراهيم بأرض من النيل إلى الفرات . فليكن ذلك الوعد . ولكن مجرد الإيمان بذلك الآن يتجاوز حدود الدين إلى الخرافة ، ويتجاوز الخرافة إلى الجنون ! .

ثم أين يوجد ذلك النص الدينى الذى يقول : إن الأرض هى التى احتلت بعد حرب ١٩٦٧؟ من قال ذلك؟ ومن يصدقه ؟ .

إن التاريخ يقول لنا : إن إسرائيل القديمة ربما امتدت إلى دمشق . ولكن ساحل البحر الأبيض كان ملكا للفلسطينيين والفينيقيين . .

والتاريخ يؤكد لنا مرة أخرى أنه فى خلال ٣٥ قرنا لم يعش على هذه الأرض شعب واحد . وحتى عندما كان اليهود يرون أن لهم أرضا اسمها «أرض المعاد» فقد أمضوا ٢٥ قرناً لا يفكرون فى ذلك . . ولا يرون أن هذه الأرض هى فلسطين بالذات .

بل إن حاييم فايتسمان ــ عم وزير الدفاع الحالى ــ أول رئيس لجمهورية إسرائيل كان يقول : إن هناك دولتين لفلسطين : إحداهما يهودية والأخرى عربية ! . .

ويوم أصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم رقص اليهود فى الشوارع .

ولكن العرب ارتكبوا أولى حماقاتهم عندما رفضوا التقسيم واختاروا أن يحاربوا قيام الدولة اليهودية . فلم تفدهم الحروب شيئا وقويت إسرائيل مستغلة قدراتها الذاتية . ومتشبثة بدينها ، وبالعون الخارجى ، حتى زادتها القوة جشعا وطغيانا .

ولكن بن جوريون ، وهو مهندس الدولة اليهودية أعلن مرة : لو خيرونى بين الأرض والسلام فإننى أختار السلام . . إلا القدس! . .

ثم عاد يقول : وأختار السلام فى القدس أيضا ! .

غير أن إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ وانتصارها الهائل . قد أيقنت أن هذه الحرب قد حلت لها كل مشاكلها ، فهى الآن خارج حدودها ، وهى الآن تدافع عن تل أبيب من قناة السويس ، وتدافع عن القدس من الجولان ، وتدافع عن ديمونة من الخليل . . فحرب ١٩٦٧ قد جعلت الحدود الآمنة هى حدودها السياسية ! .

ولم يكن غريبا فى سبتمبر ١٩٧٣ أن يعلن موشى ديان فى أوروبا : لو خيرونى بين أرض بغير سلام . وسلام بغير أرض . لاخترت الأرض ! .

وبيجين يقول الآن : لو خيرونى بين الأرض والسلام لاخترت الأرض والسلام! .

ونحن نقول تعليقا على ذلك : الأرض لنا نحن والسلام لنا جميعا ! .

وقد اعتقدت إسرائيل أنها يجب أن تظل فى حالة الاستعداد القصوى . مثل أمريكا أقوى وأغنى دولة فى العالم ، أما حجة إسرائيل فى ذلك فهى أنها محاطة بالأعداء وأن أحدا لا يقبلها ولذلك فعليها أن تفرض وجودها وشرعيتها بالسلاح .

ولكن الحرب لم تضف لإسرائيل إلا مزيدا من المتاعب والشقاء ، فاليهود الذين كانوا يهاجرون إليها توقفوا . فلا أحد يريد أن يموت . ثم إن أرض المعاد . ليست هى أرض الأحلام . وإنما هى أرض الدمار . . ثم إن اليهود يتهمون العرب بأنهم قالوا : سوف ندفنكم فى البحر . .

ولكن اليهود هم الذين جاءوا بأقدامهم إلى أرض ضيقة . . فجعلوها جزيرة رموها فى بحر من العرب . . مائة مليون عربى ، وليس من المعقول أن تظل إسرائيل تحارب إلى الأبد . وتتهم العالم كله بأنه يتفرج عليها ، كما تفرج على اليهود عندما أدخلوا معسكرات الاعتقال وأفران الغاز النازية فى بلزن ودخاو وأوشفتس . .

ولكن هنا مغالطة ، فلم يكن اليهود يملكون أية قوة فى مواجهة هتلر والنازية . ولكنهم يملكون الآن القوة والسطوة . . أما الذين لا حول لهم ولا قوة فهم الفلسطينيون .

ثم ألا يتعظ اليهود بما حدث لبريطانيا فى الحرب العظمى الثانية؟ لقد انتصرت فى هذه الحرب ، ولكن بعد الحرب تحولت الإمبراطورية البريطانية إلى دولة مستقلة . . وانسحبت بريطانيا ، بمنتهى الواقعية ، من دولة عظمى إلى دولة كبرى . . وعرفت حدودها ، وأيقنت أنها ليست بالقوة تستطيع أن تبقى . . ونفس المنطق يجب أن تدركه إسرائيل فهى لا تستطيع أن تفرض وجودها بالقوة على جيرانها . .

وإذا تصورت إسرائيل أنها تستطيع أن تضم الأرض بالقوة ، وحجتها فى ذلك ما فعله الاتحاد السوفيتى الذى ضم أوروبا الشرقية كلها بالقوة ، فإن الاتحاد السوفيتى دولة عظمى ولا أحد يبرئ السوفيت من تهمة السيطرة والغزو والقهر ، ولكن إسرائيل دولة صغيرة ضيقة الأرض . . وهى تدفع ثمن هذا الضيق بأن تظل تحت السلاح دائما . . وهو ثمن فادح تبذله يوميا من راحتها ومن قوتها ومن تمزقها ومن ضيق العالم بذلك . .

وإلا كانت إسرائيل وهى تقلد السوفيت . تماما كما يقلد القط الصغير نمرا كاسرا!

وإذا كان اليهود الشرقيون الذين أتوا ببيجين إلى الحكم انتقاما من اليهود الغربيين . . قد وجهوا كراهيتهم للعرب . فإن هناك «يقينا» جديدا قد ظهر : أنه من المؤكد أن تنشب حرب بين إسرائيل وجيرانها من جديد . .

ولكن بعد مبادرة السادات وإيمان العالم كله بأنه رجل جاد فسوف تتجه عداوة نصف الشعب اليهودى إلى اليهود الغربيين ومن بينهم وفى مقدمتهم بيجين وبقية الصقور التى تحكم إسرائيل فى جو جديد من الرغبة فى السلام . لم يشهده ولم يتوقعه أحد من قبل ! .

ولو عدنا إلى التوراة ، ويجب أن نعود إليها كثيرا ونحن نتحدث إلى الرأى العام اليهودى الشرقى فى إسرائيل فإنها تقول فى سفر إشعياء :

تكون إسرائيل ثلثا لمصر وآشور : بركة فى الأرض ! .

أى أن التوراة لا تقول : إن إسرائيل يجب أن تبتلع مصر وفلسطين والعراق وسوريا وإنما تكون جزءا من هذا كله وتكون بركة وليست لعنة على نفسها وعلى الجميع ! .

وفى إسرائيل جماعة متطرفون يرون التمسك بالأرض المحتلة . حتى لو أدى ذلك إلى استخدام القنبلة الذرية ضد الفلسطينيين . ولكن عند استخدام القنابل الذرية فى هذه المساحة الضيقة سوف يكون القاتل قتيلا . ويكون المعتدى ضحية . .

ويكفى أن نعود إلى ماروته التوراة فى سفر «القضاة» عن الذى فعله شمشون الجبار . ثم ما الذى أصابه بعد ذلك . . لقد كان شمشون أحد أبناء غزة قويا عنيفا . . وأحب فتاة فلسطينية وقرر الزواج منها . واختلف مع أهل العروس وقتلهم ثم تكاثروا عليه فأطلق هو عددا من القطط ربط ذيولها معا . ثم أشعل فيها النار وتركها فى حقول قمح الفلسطينيين فأهلكت النيران كل شيء . . وعاد شمشون فأحب فتاة فلسطينية اسمها دليلة واتفق الفلسطينيون مع دليلة على معرفة مصدر قوته؟ وعرفت أن شعره هو مصدر قوته واحتالت عليه حتى نام وحلقت له شعره فأحرقوا بالنار عينيه . . وسحبوه إلى السجن حتى طال شعره ثم أدخلوه المعبد ليهدمه عليه وعليهم . .

وأمام مناحم بيجين إما : أن يعيد مأساة شمشون بقوته الغاشمة أيضا ، وإما أن يكون رجلا للسلام والتعايش مع الفلسطينيين ولهم دولة مستقلة ذات سيادة . .

ولكن إذا نحن مضينا فى التهديد بالحرب فسوف يكون الرد عليه بالحرب أيضا . . وفى نفس الوقت سينقص عدد اليهود الغربيين ويتضاعف عدد اليهود العرب . . أى اليهود الشرقيين . . وسوف يزداد حرصهم على أن يكونوا دولة شرقية عربية وهذه هى المشكلة التى تزعج اليهود الغربيين فى إسرائيل .

وبينما يحرص اليهود الغربيون على أن يعيشوا فى إسرائيل وفى الشرق فإنهم يظلون غربيين منعزلين متعالين . . يحتفظون بأسمائهم الغربية . وأكثرهم يرفض أن يتكلم اللغة العبرية . . بينما المدارس الإسرائيلية لا تعلم تلامذتها اللغة العربية ، ولا تاريخ العرب . . وهذا هو التناقض الرهيب . . فإسرائيل فى الشرق ولا يريدونها شرقية . . وأغلبها يهود العرب يتضاعف عددهم وتزداد هجرتهم إلى إسرائيل بينما يهاجر الغربيون من إسرائيل كما أن متوسط عدد الأسرة اليهودية العربية ستة أشخاص ومتوسط الأسرة اليهودية الغربية ثلاثة أشخاص فقط . .

ويرى اليهود الغربيون أن إسرائيل مقبرة لهم ، مع أنهم هم الذين أقاموها ودافعوا عنها . . ولكنهم سوف يتركونها للأغلبية الشرقية . ويحس اليهود الغربيون أنهم لن يكونوا أغلبية فى إسرائيل . .

ولذلك فهذا الرجل «الياشر» يرى أن اليهود الشرقيين هم إسرائيل الثانية .

* * *

ومنذ أيام بن جوريون والتهديد بالحرب تتغير نبرته وحدته من سنة إلى سنة ، فعندما

أعلن الشيشكلى أنه سوف يضرب تل أبيب من دمشق . على مدى ٦٠٠ كيلو متر ، أعلن بن جوريون أن الشيشكى يجب أن يعرف أن لدى إسرائيل طائرات أسرع ! .

ومن الأفضل أن يتذكر بنو إسرائيل عبارة قالها الرئيس التشيكى بنيش عندما اقتطعت ألمانيا جانبا من أرضه : إن بلادى صغيرة ولكنى أمتلكها !

وأفضل ليهود إسرائيل أن يمتلكوا أرضا يعترف بها العالم كله ، على أن يطالبوا بامتلاك أرض أوسع بالقوة وضد القانون والعرف الدولى وضد الأمن الذى يتمنونه ، والشرعية التى يحلمون بها ! .

* * *

ولكن هناك تغيرات طرأت على فكر بيجين نفسه . فبعد أن كان يقول مثل جولدا مائير : لا توجد أرض اسمها فلسطين . ولا شعب فلسطينى . فهو الآن يتحدث عن الفلسطينيين .

ثم إنه تفضل «مشكوراً» فقال : إن هناك أرضا واحدة اسمها فلسطين : فيها فلسطينيون عرب .

وبعد أن كان يقول : إن إسرائيل الكبرى قضية لا تقبل المناقشة . أعلن أن كل شيء قابل للمناقشة والتفاوض . .

وبعد أن كان يقول : إن الضفة الغربية وقطاع غزة أرض مقدسة ، راح يتحدث عن احتلالها لاعتبارات تتعلق بالأمن وليس بالدين أو بوعد مقدس ! .

وبعد أن كان يرفض التفاوض فى مستقبل الضفة الغربية تقدم باقتراح أن يحكم الفلسطينيون أنفسهم حكما ذاتيا . . وبعد أن كان لا يتحدث مطلقا عن القرار ٢٤٢ الذى ينص على عدم جواز احتلال الأرض بالقوة فإنه يوافق الآن على هذا القرار مع تعديلات طفيفة . ونحن نوافق أيضاً .

وكان بيجين يتحدث عن المستعمرات وضرورتها الإنسانية للشعب اليهودى ويتحدث الآن عن أهميتها العسكرية . ثم عدل عن أهميتها من ناحية الأمن أى أنها «مادة للتفاوض» .

ولكن بيجين يراوغ ويعتذر عن كل الذى يقوله بلسانه أو بلسان غيره . .

وهذا يضاعف صعوبة الموقف عموماً بيننا وبينه بشأن الانسحاب كله والدولة الفلسطينية وطبيعة السلام ! .

وبيجين مثل إنسان يطلق النار فى كل الاتجاهات وهو يتراجع أمام الذين انتخبوه لكى يتقدم نحو حدود أكثر أمناً .

فهو يطلق النار على أمريكا . ويطلق النار على معاونى الرئيس السادات فى وزارة الخارجية . ويهاجم الصحف المصرية . ولكن الرأى العالمى كله بدأ يرى أن بيجين ليس رجل سلام ، ثم إنه وعد شخصيا بأشياء كثيرة للرئيسين كارتر والسادات ، ثم عدل عنها .

وأمام بيجين فرصة أخرى غير أن يكون شمشون الذى حاربه الفلسطينيون وحاربهم ، هو أن يكون مثل الجنرال ديجول .

فديجول نجح فى الانتخابات الفرنسية لأنه وعد الشعب الفرنسى بأن يتمسك بالجزائر فرنسية ، ولكن ديجول بعث برجاله يجلسون مع جبهة التحرير الجزائرية فى مدينة إفيان . وانتهت الاجتماعات مع هؤلاء الجزائريين الذين كانوا يسمونهم إرهابيين . باستقلال الجزائر ، وصفق الشعب الفرنسى لديجول الرجل الذى عاش ومات نموذجا للابن البار للدولة التى نادت بالحرية والإخاء والمساواة فغيرت وجه العالم كله .

ولا يستبعد الذين يعرفون الرأى العام الإسرائيلى والرأى العالمى اليهودى . والضغط الواقع على بيجين أن يكون داعية قويا للسلام . كما كان داعية عنيفا للتمسك بالأرض عن طريق الحرب ! .

وقد حاول بيجين فى لقائه بالسادات أن يعود إلى عبارته المشهورة : لماذا لا نتفق على أن نختلف ونبقى أصدقاء ؟ ! . .

هذا ممكن . . أن نتفق على خلافات صغيرة ولكن من الصعب أن يطول الخلاف ، ونظل أصدقاء . . فليست المشكلة هى أن يسافر السادات إلى القدس . وأن يجىء بيجين إلى الإسماعيلية أحمر العينين بعد أن أزعجته طول الليل جماعة «جوش أمونيم» يتهمونه بالتفريط . . ولكن المشكلة هى مصير الشعوب . وجدية الموقف . والمعجزة التى تحققت فى ٣٠ ساعة ! .

ونحن نعرف أنه ليس سهلا أن نحب إسرائيل ولا شعبها ولا قادتها ولا هم أيضا ، فلا نحن نسينا ما حدث فى ١٩٦٧ ولا هم نسوا ما حدث فى ١٩٧٣ . . بل إن بعض المتطرفين يطالبون بالانتقام من هزيمتهم أمام بسمارك فى ١٨٧٠ . .

ولكن الحروب مثل ماء البحر : مهما شربنا منها فلن نرتوى . وسوف تؤدى الهزيمة إلى طلب الثأر . وسوف يؤدى الثأر إلى ثأر آخر . . إلى غير نهاية . . أو حتى نهاية كل المحاربين ، والسبب : غلطة طويلة عريضة قديمة ! .

هذه الغلطة هى أننا نرى اليهود فى صورة كريهة . . فاليهودى هو الإنسان القبيح الوجه .

واليهود يرون أن العرب كذابون خونة وجهلة وأنهم لا يصلحون للقتال .

ويقول «الياشر» : لقد عرفت فيهم الصدق والأمانة وعاملتهم وأخذت منهم وأعطيتهم دون ورقة مكتوبة ! .

وإذا كانت حرب ١٩٦٧ قد أكدت لليهود أننا لا نعرف القتال . وأننا ولدنا لنهزم دائما ، فإن حرب ١٩٧٣ قد أثبتت قدرتنا على القتال وإصرارنا على النصر ، وأكدت أن العرب فى الأزمات يتضامون ، وأن دول البترول قد استخدمته سلاحا ضد إسرائيل وضد العالم كله ! .

إن غلطتنا جميعا أساسها : سوء الظن الذى يؤدى إلى سوء الفهم وسوء التقدير . . فنهون من قدرهم ، ونهول من قدرنا ! .

فإذا التقينا وجدنا أننا لا يعرف أحدنا الآخر ! .

يحكى لنا الفيلسوف الوجودى سارتر أنه عندما سافر إلى الصين . اكتشف الغلطة الفظيعة التى راح ضحيتها العالم كله . فكل ما كتبه الأدباء والمفكرون والساسة عن الصين ليس إلا غلطة واحدة . فقد حمل كل واحد منهم صورة للرجل الصينى . الصورة تقول : إنه غامض . إنه خبيث . إنه عدو لكل الناس . . وذهب الناس إلى الصين . وحاولوا أن يطبقوا الصورة على الأصل .

ولكن الأسلوب الصحيح هو أن نمزق هذه الصورة وأن نواجه الشعب الصينى وأن نعايشه لنعود وفى جيوبنا صور أخرى أصدق .

يقول الفيلسوف الوجودى سارتر : إن أهل الصين عندما يستخدمون الأحذية الحديد ويضعونها فى أقدام السيدات فلسبب تقليدى . هو أن الرجال يفضلون الأقدام الصغيرة للمرأة . ولذلك سجنوها فى الحديد .

إن الغرب كله قد وضع الصين (أكثر من ٧٠٠ مليون نسمة) فى أحذية من الحديد . . فارتكبوا جريمة كبرى ضد الشعب الصينى العظيم ، وضد العقل السليم وحسن الإدراك . .

وهذه غلطتنا مع إسرائيل وغلطة إسرائيل معنا . . ولا أعرف إن كان يعزينا نحن العرب أن إسرائيل هى الأخرى ضحية مثلنا . . فحكامها غربيون لا يعرفون الشرق ولا

تقاليد الشرق ولا عاداته . وإنما هم أناس جاءوا من أوروبا ومعهم بيئتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقوالبهم الحديدية . . التى أدخلوا فيها مع اليهود الشرقيين كل العرب . .

ويتراكم الظلم وسوء الفهم والظلم والكراهية وسوء الظن مع الظلم القائم على سوء الفهم وسوء التقدير ، وبذلك أصبحنا جميعاً على مدى ملليمترات من الكراهية التى هى ابنة شرعية للخوف من كل ما هو شرقى يهودى أو شرقى مسلم أو مسيحى ! .

ومع التغيرات الجوهرية التى طرأت على بيجين ، وسوف يزداد تغيره بعد ذلك كان لابد أن تختفى هذه الادعاءات الخرافية الجنوبية التى يطلقها ديان وزير الخارجية اليوم . ووزير الدفاع ١٩٦٧ . وكذلك ما يعلنه شارون قائد الثغرة ووزير الزراعة ، فكلاهما يتحدث عن المستعمرات اليهودية ، باعتبارها أرضا يملكها اليهود ، مع أن الذى يملكونه هو البيوت والأشجار التى أقاموها وزرعوها فى أرض مغتصبة ! .

وفى آخر سبتمبر من العام الماضى أعلن موشى ديان : أفضل لنا أن نعارض قيام دولة فلسطينية الآن حتى لو أدى ذلك إلى الحرب ونحن على استعداد لها . على أن تقوم دولة فلسطينية الآن . ثم نحاربها بعد عشر سنوات ونحن على غير استعداد لمحاربتها والانتصار عليها ! .

ولكن موشى ديان ـ استمرارا فى تغيير المواقف وفى المرونة الضرورية ـ أعلن أن المستعمرات ليست مشكلة ، ولكن الذين يتابعون ديان باهتمام يرون أنه كرجل عسكرى وجديد على السياسة يغير تصريحاته ويتنكر لها ويراوغ . فلعل هذه التصريحات هى من قبيل المظاهرات أمام الرأى العام اليهودى . . حتى يتوهم العالم أنهم ليسوا متشددين كما تقول عنهم مصر ! .

وفى نفس الوقت كان قد تعهد بيجين للرئيس كارتر ألا يبنى مستعمرات من جديد ، ولكنه أقام المستعمرات وترك المواطنين يزرعون الأشجار . .

ولكن الشىء الذى يلفت النظر ، وهذا يدل على أعماق المواطن اليهودى : أنهم عندما يقيمون المستعمرات ويزرعون فيها وحولها الأشجار ، فإنهم يحيطونها بالأسلاك الشائكة لماذا ؟ إنه الخوف ، إنه عدم الشعور بالأمن والأمان . . مع أنهم فى الصحراء ومع أنهم الدولة الأقوى والتى تحتل الأرض . . وأنهم المسلحون وأن العرب حولهم مجردون من السلاح .

وتلك مشكلة إسرائيلية وعلى قادة إسرائيل أن يحلوها ، وأن يخففوا قبضة ثلاثة ملايين مواطن على السلاح الذى يمسكه ! .

* * *

لقد كانت : لا . . التى جاءت فى مؤتمر الخرطوم نكتة للعالم كله ودليلا على العقلية العربية التى قالت : لا . . للتعايش مع اليهود فى فلسطين . والتى قالت لا . . لتقسيم فلسطين ، وبعد ذلك قال الفلسطينيون : لا . . لتكوين حكومة فلسطينية فى المنفى وقالوا : لا . . لمبادرة السادات . .

وقالوا : لا . . لمؤتمر القاهرة التمهيدى والجلوس مع اليهود وفوقهم العلم الفلسطينى . .

أما النكتة الجديدة فهى : أن إسرائيل تقول : لا . . للانسحاب الشامل . . وتقول لا : لطبيعة السلام . . وتقول لا . . لقيام الدولة الفلسطينية . . وتقول : لا . . للرأى العالمى كله الذى يريد السلام لإسرائيل وللعرب وللعالم كله . .

وكما أن السادات قد ألغى «لألأة» العرب جميعا . . فعلى مناحم بيجين أن يفعل نفس الشىء وذلك كسب له ولحزبه ولإسرائيل التى تريد الأمن فى حدودها والشرعية فى أسرة الشرق الأوسط ! .

مع أننا الذين يجب أن نطلب السلام والحدود الآمنة . . فقد اعتدت إسرائيل على أرضنا فى كل الحروب .

ثم إنها دولة تملك القنبلة الذرية ! .

* * *

إن هذا الكتاب من إسرائيلى صهيونى عايش العرب ورأى مبادرة السادات كإكليل من الغار يوضع على رأس الذين اتخذوا مثلهم الأعلى : شجاعة السلام ! .

* * *

عندما قال بيجين : كل شئ قابل للتفاوض..
كان يقصد كل البديهيات أيضا .

عندما أعلن مناحم بيجين : أن كل شىء قابل للتفاوض سجل المؤرخون تغيرا عظيما فى فلسفة الرجل .

لأن معنى هذه العبارة أن القضايا البديهية التى كان يتمسك بها ولا يقبل أن يناقشه فيها أحد . سوف يجلس ليناقشها مع مصر ، وأن هذه المناقشة قد تؤدى به فى النهاية إلى الانسحاب من كل الأرض التى يحتلها .

وخصوصا أن بيجين ومؤيديه قد انسحبوا من الحكومة فى سنة ١٩٧٠ عندما أعلن موشى ديان أنه لابد من قبول القرار ٢٤٢ أى القرار الذى يطالب إسرائيل بالانسحاب من الأرض المحتلة ، وقد فهم بيجين فى ذلك الوقت أن هذا يعنى الانسحاب من الضفة الغربية وتركها للأردن فانسحب من الحكومة الائتلافية فى ذلك الوقت .

إذن فهذا الرجل يقبل مناقشة القرار ٢٤٢ ويقبل مناقشة الانسحاب الكامل أو الجزئى أو المرحلى من الضفة الغربية ! .

ولكن هذا الاجتهاد فى فهم عبارة بيجين هذه كان خاطئاً . لأن بيجين كان يقصد شيئا آخر هو : أن كل البديهيات المصرية ـ أيضاً ـ قابلة للمناقشة .

فإذا نحن طالبنا بالانسحاب الكامل من الأرض المحتلة ، فإن كل هذه الكلمات يجب أن نناقشها أولا بأول ، ولذلك قيل لنا : ما الذى تقصدونه بالانسحاب : هل هو الانسحاب دون تعديلات؟ هل هو الانسحاب من قطعة أرض مقابل قطعة أرض أخرى؟ هل الانسحاب« كامل» لأن القرار ٢٤٢ لا ينص على الانسحاب الكامل إنما على الانسحاب من بعض الأرض؟ وهل الأرض «المحتلة» تنطبق على الضفة الغربية أيضا ؟ .

لأن إسرائيل ـ وبيجين بصفة خاصة والأحزاب الدينية ـ ترى أن الضفة الغربية

أرض إسرائيلية وأنها تحررت وعادت إليها تحت اسمها العبرى : السامرة ويهودا ، وأن الأرض المقدسة على جانبى نهر الأردن حتى البحر ؟ ! .

وإذن نحن طلبنا أن نصل إلى «المبادئ» ـ أى إلى القاعدة العامة أو القانون ، فإننا بعد ذلك ندخل فى التفاصيل الصغيرة والكبيرة ، ولكن إسرائيل ترى أننا يجب أن نبدأ بالصغيرة ، وصولا إلى الكبيرة ، أى أننا إذا اتفقنا على الأشياء الصغيرة ، كان ذلك اتفاقا على الأشياء الكبيرة أيضا .

أو بعبارة أخرى : إن موقف مصر فلسفى ، وموقف إسرائيل عملى .

ولذلك اختلفنا وكان لابد أن تنقطع المفاوضات لأن إسرائيل مصرة على مناقشة كل شىءصغير ، حتى لا نصل معا إلى أى شىء كبير ، ومعنى ذلك أن هذه المفاوضات ليست إلا ستارا شرعيا لتغطية موقف غير شرعى وغير أخلاقى .

ولم تخف إسرائيل موقفها هذا ، وإنما أطلقت ألسنة وزرائها يتحدثون فى القضايا الجزئية مثل : المستعمرات .

وأصبحت نكتة لغوية عندما تنشر الصحف الإنجليزية كلها أن مصر تريد «التسوية» وإسرائيل تريد «التسوية» ـ والنكتة هنا أنه فى اللغة الإنجليزية توجد كلمة واحدة للدلالة على التسوية وللدلالة على المستعمرات هى كلمة sette ment .

وهناك خلاف آخر أعمق من ذلك . هو أن السلام الذى فهمته إسرائيل هو سلامها هى . . أى أمنها هى . فإذا قلنا لإسرائيل : إننا سوف نضمن لها الأمن والسلام .

كان السؤال : ومن الذى يضمن لنا السلام ولمدة كم من السنوات ؟ . .

ويكون ردنا :

إننا نستطيع أن نضمن لكم السلام إلى الأبد . ويكون السؤال : كيف يتكلم إنسان ، أى إنسان عن الأبدية وهو سوف يزول بعد عشرة . . أو عشرين عاما ! .

فنقول لها :

إذن . . فلتضمن السلام دولة عظمى . . أو لتضمنه الأمم المتحدة .

ويكون رد إسرائيل : لا نريد طرفا ثالثا . . يجب أن نتفق معا وعلى هذه الأرض وفى هذه المنطقة ! .

- موافقون على ذلك تماما . ومن أجل هذا كانت المبادرة تعالوا نتفق .

- على ماذا ؟ .

- على الانسحاب الكامل .

- وما الذى تقصدونه بالانسحاب الكامل ؟ .

- خروجكم من كل الأرض المحتلة .

- ومن قال «كل» الأرض المحتلة .

- القرار ٢٤٢ .

- ولكن القرار يقول : الانسحاب من أرض محتلة . وليس كل الأرض المحتلة .

- إذن فلم نتفق .

- بل اتفقنا . . لأننا نجلس معا . ولم يكن ذلك ممكنا قبل المبادرة .

- ولكنكم قد عدتم إلى ما كنتم عليه قبل المبادرة .

- لم نعد . . ولكن أنتم تتعجلون الأحداث وليس عندكم صبر .

- بل عندنا صبر ، ولكنكم لستم جادين إنكم تريدون إضاعة الوقت . . أو الاستفادة من الوقت لعل العرب يزدادون تمزقا . . ولعل الناس يملون المفاوضات ويعودون إلى الحرب . . ولكنكم قد انكشفتم أمام الرأى العام فى إسرائيل وفى أمريكا وفى العالم . . إنكم لا تريدون السلام . . وليس صحيحا أن العرب يتعالون عليكم ويحتقرونكم . . ويرفضونكم . . ولا يريدون أن يضعوا أيديهم فى أيديكم . . ومن الممكن أن يطول النقاش اللفظى إلى غير نهاية . ولذلك كان لابد أن نضع نهاية للمفاوضات العسكرية والسياسية فلا تختلف هذه اللجنة عن الأخرى . . لا فى مواقفنا . ولا فى مواقفهم . .

وقد أدت هذه المفاوضات المنقطعة إلى شعور باليأس وخيبة الأمل . . وتنبه الناس ، بعد أن نسوا ذلك بعض الوقت إلى أننا نفاوض اليهود . . أكبر سماسرة فى التاريخ وأننا يجب أن نفطن إلى هذه الحقيقة كلما جلسنا إليهم . وأنه من الصعب أن نغير طابعهم أو تكوينهم أو أن نزيل رواسب التاريخ الأسود المرير ، فى لقاء واحد ، إنه شىء صعب . فالمبادرة قد غيرت «مسار» الأشياء ، ولكنها لم تغير «طبائع» الأشياء . .

والمبادرة الخاطفة الباهرة قد اختصرت من سنوات الحوار والمفاوضات السرية والعلنية عشرين عاما . ولكننا لم نسأل أنفسنا : اختصرت عشرين عاما من كم من الأعوام ؟ .

اختصرت عشرين من ثلاثين؟ إذن فأمامنا عشر سنوات . . أو هل اختصرت عشرين عاما من ٢٥ عاما ، إذن فأمامنا خمس سنوات . . .

أى أن الباقى أمامنا سنوات طويلة وقد نسينا ذلك .

ونسينا أن فك الاشتباك الأول قد استغرق ٢٦ جلسة مع أن فض الاشتباك قد أسفر عن مساحات ضئيلة من الأرض ، وكذلك فك الاشتباك الثانى . وأن أمريكا نفسها قد أمضت سنوات تبحث عن شكل «ترابيزة» المفاوضات مع فيتنام . . وأن أمريكا نفسها وبجلال قدرها وجبروتها لم تنته بعد من مفاوضاتها مع بناما . منذ ١٣ عاما ــ أقوى دولة فى أمريكا وفى العالم مع أصغر دولة فى أمريكا كلها ! .

وتساءل اليهود : لماذا هم عصبيون هؤلاء المصريون؟ لماذا يفرضون مزاجهم علينا . . لماذا هم يتعجلون النتائج ولا يرون إلا مشاكلهم دون أن ينظروا إلى مشاكلنا وأحزابنا الدينية والسياسية و «تركيبتنا» الاجتماعية الشديدة التعقيد ؟ .

ولكن إسرائيل كاذبة فى هذا الموقف ، لأنها لم تكتف بوضع المشاكل أمام المفاوضين ، وإنما راحت تفتعل المعارك : كأن تهاجم الصحف المصرية وتهاجم المفاوض المصرى وخبراء وزارة الخارجية المصرية . ثم تتهم الإعلام المصرى كله بأنه عدو لليهود وعدو لإسرائيل . . كأن العداء لليهود غلطة يجب التكفير عنها . طبعا كمسلمين أعداء لليهودية ، ونحن كمصريين أعداء لإسرائيل لاشك فى ذلك ، وليس من المعقول أن نحب شعبا أو دولة تحتل أرضنا ، ولا أن نقدس دينا يرى أن احتلال أرضنا واجب علينا وحق له ! .

ومثل هذه العبارات كان اليهود يستخدمونها ضد الأوروبيين لتخويفهم . ولكن الذى بيننا وبين إسرائيل حرب طويلة واستعداد لقتال طويل . . ولكننا لا نريد حربا ، وإنما نريد سلاما . . فإذا كانوا لا يريدون الحرب وفى نفس الوقت يريدون السلام . . فيجب ألا نصدقهم لأنهم هم أيضا بشر ولأنهم قد تعبوا من كراهية العالم كله لهم . . فهو عبء على ميزانية المواطن الأمريكى المسيحى واليهودى أيضا . . وهم صداع فى رأس البشرية ، فالناس لديهم همومهم الأخرى الكثيرة والبشرية من أولها لآخرها يجب ألا تموت من أجل مناحم بيجين والآخرين من ذوى الأعناق الغليظة وأصحاب الهوس الدينى .

* * *

وعندما اتجهت مصر إلى أمريكا لكى تعاون فى حل هذه المشكلة التى تتوالد بيننا وبين إسرائيل كان سبب ذلك أن أمريكا لها علاقة خاصة بإسرائيل ، وهذه العلاقة معروفة ، وهى علاقة مبدئية . أى أنه من مبادئ السياسة الأمريكية معاونة إسرائيل والإبقاء عليها فى جميع الأحوال . ولا أحد يعترض على ذلك وحتى إذا اعترض ، فإنه لايقدر على تغيير السياسة الأمريكية .

ومادامت أمريكا تعطى لإسرائيل كل ماتحتاج إليه من مال وطعام وسلاح ، فهى تستطيع أن تضع رأسها على كتفيها وأن تفتح عينيها وأن تبصرها بخطورة الموقف المتشدد الذى تتخذه إسرائيل على المصالح الأمريكية فى المنطقة ، وعلى المصالح الإسرائيلية .

وإسرائيل تعلم أنها «طفل رضيع» على صدر أمريكا . وأن هذا الطفل لا يريد أن ينفطم مطلقا . وإنما يظل يرضع اللبن والعسل والذهب والفانتوم إلى الأبد . . وفى نفس الوقت يظل يبكى ويصرخ خوفا من المائة مليون عربى والسبعمائة مليون مسلم ، وألفى مليون مسيحى عندهم من المتاعب والمشاكل أضعاف ماعند الشعب الإسرائيلى ! .

ولا شىء يجعل إسرائيل ، حكومة فقط ، تفقد صوابها إلا الاتجاه إلى أمريكا ، فإسرائيل تؤكد أن أمريكا ليست وصيا عليها ، وأن أمريكا لاحق لها فى أن تتدخل فى سياستها أو سيادتها ، وأن إسرائيل دولة مستقلة ذات سيادة .

وأمريكا لأن لها مشاكل أخرى غير الضغط اليهودى الإعلامى والمالى والسياسى ، تؤكد هى الأخرى أن لها حدودا فى الحركة وأن لها حدودا فى الضغط . وأنها لا تستطيع إلا القليل ، وأن علينا أن نتفاهم معا . أى دون أن يكون هناك طرف ثالث .

وهى عقدة الدولة الصغيرة جداً ، القوية بسبب دولة كبيرة جداً .

ولذلك انزعجت الحكومة الإسرائيلية من أن الرئيس السادات قد اتجه بمشاعره إلى الشعب الأمريكى وإلى الجاليات اليهودية فى أمريكا ، وأحست الحكومة الإسرائيلية أن الرئيس السادات قد نقل القضية من محكمة صغيرة فى الإسماعيلية أو القاهرة أو القدس إلى محكمة دولية على كل شاشات التليفزيون وفى كل بيت . لأن السادات يدعو للسلام الذى يحلم به كل إنسان وكل مجتمع وكل دولة وكل الشعب اليهودى والشعب المصرى والعربى أيضا .

وتخفيفا لهذه «العقدة» فإن الحكومة الأمريكية حاولت أن تتفادى أن تكون طرفا فى هذه القضية ــ وهو افتراض من الصعب تصديقه . لأنها بالفعل طرف . ولأن السلاح الهائل الذى تعطيه لإسرائيل هو الذى جعلها فى حالة حرب مستمرة

وفى ذلك حالة تصعيد دائم ، وتشبث بالأرض طلباً للسلام ! .

ولذلك فإذا كانت أمريكا جادة فى دعوى السلام ، فلتمسك يدها عن إعطاء السلاح بلا مبرر لإسرائيل ـ إلا إذا كانت إسرائيل تريد أن تحارب العرب ، وإلا أن تبيع السلاح لأفريقيا لكى تجعل هناك نقطا ساخنة فى العالم تهدد بها أمريكا وتشغل العالم عن النزاع العربى الإسرائيلى .

ولذلك طالب الرئيس السادات بنفس الأسلحة لمصر . .

وطالب أيضا بإعطائه أسلحة لكى يساعد بها الصومال وتشاد ، لأن إسرائيل وليبيا والسوفييت يساعدون أثيوبيا .

وكان الرئيس السادات قد شرح للرئيس كارتر فى أسوان موقف الصومال . وعرض عليه حاجة الرئيس سياد برى إلى الأسلحة . وطلب الرئيس كارتر توضيحا لموقف الرئيس الصومالى . ولذلك أعلن الرئيس الصومالى فى بيان بعد ذلك موقفه بوضوح .

وبعد ذلك قدمت له ألمانيا الغربية معونة عسكرية .

وبجزء من هذه المعونة اشترى أسلحة من مصر .

وكذلك تلقى معونات من السعودية ومن إيران . .

وأعلن موشى ديان أن إسرائيل سوف تمضى فى مساعدة أثيوبيا .

وقال : لأن أثيوبيا صديق قديم ، ولأن المسلمين سوف يحتلون البحر الأحمر ، فلا يبقى أمام إسرائيل سوى أثيوبيا المسيحية .

كما أن الرئيس السادات قد ناقش الموقف فى «القرن الأفريقى» مع الرئيس كارتر ، وقد أضيفت الفقرة الخاصة بالقرن الأفريقى إلى البيان الذى أعلنه كارتر ، وجاءت هذه الإضافة بعد أن طبع البيان ، ولكن قبل توزيعه على أجهزة الإعلام العالمية . .

ولا تزال أمريكا بعيدة عن القارة الأفريقية وعن الأحداث الملتهبة الدامية التى تجرى ، وسوف تزداد التهابا فى الشهور القادمة . .

وعندما زار الرئيس السادات أمريكا فى مرة سابقة ، شرح للرئيس كارتر ماذا يجرى فى زائير . وكان يحمل معه تفويضاً بهذا الحديث من الرئيس الفرنسى السابق ديستان ومن الملك الحسن الثانى عاهل المغرب . وتدخلت فرنسا والمغرب ومصر فى زائير . وأنقذت الحكومة الحالية من التسلل والتمرد الشيوعى . .

وفى هذه المرة تلقى الرئيس السادات برقيتين عاجلتين من الصومال وتشاد . وكان من نتيجة ذلك أن بحث الرئيس السادات مع الرئيس كارتر قضية القرن الأفريقى ، وأعلن الرئيس السادات حاجته إلى السلاح ، تعادلا مع إسرائيل وتخفيفا للتصعيد ، ولأن له التزامات أفريقية . .

وحرصا من أمريكا على تخفيف درجة حرارة النزاع العربى الإسرائيلى . نقلت إلى الطرفين ضرورة التزام الهدوء الإعلامى ووقف «الحرب الإعلامية الصاعقة» . . ولذلك اختفت التصريحات على أعلى المستويات . وفى نفس الوقت اختار الرئيسان كارتر والسادات عزلة كاملة بعيدة عن العدسات والميكروفونات . وجلس الرجلان أكثر من خمسين ساعة معا وقد أحاطهما الجليد وقوات البحرية والصمت أيضا . وأرسلت إسرائيل موشى ديان ليكون فى أوروبا ثم ليصل إلى أمريكا قبيل نهاية زيارة الرئيس السادات . .

وأعلنت إسرائيل أنها مضطرة أن تواجه الحملة الإعلامية الضخمة التى يشنها الرئيس السادات على إسرائيل فى أمريكا وفى أوروبا أيضا . ثم إن إسرائيل شكت إلى أمريكا أن السادات قد أصبح نجما شعبيا بسبب الأحاديث الكثيرة التى يدلى بها .

ولم تعرف أمريكا ما الذى تستطيع أن تفعله ، فالصحف حرة وكذلك شركات التليفزيون . ثم إن السادات لأنه أصبح شعبيا . فلا يستطيع أى جهاز أن يتجاهله . بل إن محطات التليفزيون تعلن فى الصحف عن أنها سوف تذيع نصف حديث أو كل حديث السادات . لكى تتجه العيون إلى هذا البرنامج وما يسبقه وما يجىء بعده من إعلانات تجارية .

وقد أعلن الرئيس كارتر فى أسوان للرئيس السادات قائلا : إنك الآن تنافسنى فى أمريكا! بل إنهم فى أمريكا قد انتقدوا المذيع التليفزيونى الشهير دافيد برانكل لأنه أنهى حديثه مع السادات قائلا : وسوف نوجه نفس الأسئلة إلى مناحم بيجين عندما يعود إلى أمريكا بعد شهر أو شهرين .

وقالوا : ما كان ينبغى له أن يقول ذلك . . كأنه يعتذر للمشاهدين عن حديثه مع السادات . .

ولكن الحقيقة ، ومن الناحية الفنية ، أنه على حق . ، لأنه يريد أن يربط مشاهديه بهذا البرنامج ، لكى تكتمل أمامهم الصورة بكل أطرافها . . ولكن هذا الاعتراض من الأمريكان على البرنامج ، يؤكد أن عطفهم على قضية السادات والسلام أصدق . وأنهم يرون أن بيجين ليس جادا . وأنه يناور ويداور ويحاور .

وعندما نشر الرئيس السادات خطابا طلبته صحيفة «ميامى هيرالد» حاول اليهود فى إسرائيل وفى أمريكا أن يفسدوا هذه المبادرة من السادات ، فقالوا : إنه يتجه إلى الشعب الأمريكى بدلا من أن يتجه إلى الحكومة الأمريكية أو الكونجرس . . ويتجه إلى يهود أمريكا كأنهم «أولياء أمور» يهود إسرائيل . . إنه يحاول أن يوقع بين اليهود هنا واليهود هناك . . ثم مالبث الحاخام شندلر أن أرسل خطابا وكذلك فعل بيجين . .

ولم يتضايق السادات لذلك لأنه يريد أن يعرض القضية وأن يرى الناس كل جوانبها ، وأن يحكموا علينا أو يحكموا لنا : أينا يريد السلام حقا؟ وأينا يريد ألا تكون نار ودخان ودماء ودموع ؟ .

وحاولت أمريكا أن تتفادى المطبات التى يمتلئ بها الطريق بين القاهرة والقدس وبينهما وبين واشنطن . ولذلك دعت الطرفين إلى الصبر ، حتى تتمكن من أن تعيد التفاهم بين مصر وإسرائيل .

والتزمت أمريكا جانب الحذر . .

فعندما طلب الرئيس السادات إلى أمريكا أن تكون «حكما» بين الطرفين . . اختارت أمريكا أن تكون «وسيطا» . . أو «واسطة خير» حتى لا تعود إسرائيل إلى الصراخ بأن أمريكا ليست وصيا عليها . .

وأمريكا ليست أقل حيرة منا مع إسرائيل ، فإسرائيل تكوين عجيب وغريب من البشر . . فلا أحد يعرف لها رأيا واحدا سياسيا أو دينيا فى أية قضية . . وإسرائيل دولة عندها حساسية لدرجة الجنون .

وربما كان أبا إيبان هو أوضح من وصف هذه الحالة فى كتابه الأخير «قصة حياتى» ، فعندما تحدث أبا إيبان عن مقدمات حرب أكتوبر سجل آراء الزعماء الإسرائيليين وكيف أنها تضاربت وتناقضت بعد ذلك .

مثلا : موشى ديان أعلن فى مايو ١٩٧٣ فى التليفزيون البريطانى : أن إسرائيل يجب أن تبقى على الضفة الغربية إلى الأبد . أما الشعب الفلسطينى فعليه أن يختار له وطنا فى سوريا أو الأردن أو العراق .

وفى ٣٠ يوليو ١٩٧٣ أعلن ديان لمجلة تايم : لا شىء اسمه فلسطين ! .

وفى احتفالات إسرائيل بعيد قلعة «الماسادا» أعلن ديان : أن دولة إسرائيل قوية طويلة عريضة من نهر الأردن إلى قناة السويس ! .

قال أبا إيبان : وهذا موقف غريب . فسياسة الدولة الرسمية تختلف تماما عن سياسة وزرائها . فعندما كان ديان يعلن كلَ ذلك ، كانت الحكومة الإسرائيلية تعلن تمسكها بالقرار ٢٤٢ .

وكانت الحكومة الإسرائيلية ترى أيضا : أن العرب إذا لم يفلحوا فى استعادة أرضهم بالحرب أو بضغط الدول الكبرى . فسوف يجدون أنفسهم مضطرين إلى التفاوض معنا ! .

ومعنى ما يقوله أبا إيبان هو أن هناك رأيين وثلاثة وأربعة فى إسرائيل : رأى الدولة الرسمى المعلن ، ورأى الوزراء أو زعماء الأحزاب . .

فلا أحد يعرف أى هذه الآراء هو الذى تتمسك به الدولة .

وإنما الدولة ترى أن تكون هناك آراء كثيرة ليحار الخصم أو الصديق فى معرفة وجهة نظر إسرائيل . وبذلك تفاوض إسرائيل من مقاعد متعددة حول مائدة واحدة . وهذا بالضبط ما تفعله إسرائيل . وما فعلته بالنسبة للمستعمرات . فالدولة تقول : لا مستعمرات . والوزراء يقولون : بل مزيد من المستعمرات . وأمريكا تعلن أن إنشاء المستعمرات ليس عملا مشروعا ، وأمريكا تعلم مدى حساسية الموقف . . وتعلم انزعاج الطرفين من الضغط عليهما . . وربما كان ذلك يفسر الانسحاب المفاجئ للوفد المصرى من مباحثات القدس . فقد كان وزير خارجية أمريكا يحاول التوفيق بين الطرفين . ثم فوجئ بالانسحاب . وحاولت إسرائيل أن تبرز أن الانسحاب صفعة لفانس . ولكن فى نفس الوقت أحست أمريكا بأنها نفس المشكلة : أن كلا الطرفين يريد أن يؤكد بصفة مستمرة أنه لا يتصرف من عقل أمريكا . ولا بأوامرها . .

وإن كان الرئيس السادات قد أدرك قبل ذهاب الوفد المصرى إلى القدس ، أن

تصريحات قادة إسرائيل تؤكد لنا صعوبة الوصول إلى مبادئ عامة ، وقد حدث ما توقعه . ولكنه أراد أن يمشى فى الطريق حتى نهايته ، وإن كان يعرف مقدما ماسوف يحدث . ولكنه لم يستبعد أن يحدث شيء ليس فى حسابه ، كأن يلين اليهود أو يستسلموا قليلا للضغط العام فى إسرائيل وفى العالم . .

وجاء استئناف لقاء اللجنة العسكرية تأكيدا وتجديدا لضرورة استمرار الحوار ، ولكن فى درجة حرارة منخفضة وعلى فترات متباعدة حتى يعتاد الطرفان على هذا «الجو» الهادئ لحوار طويل . ومن الضرورى أن يكون هادئا ومن المنطقى أن يكون طويلا . .

* * *

وهناك اجتهادات عصبية لحل المشكلة المعقدة الأطراف الغامضة الجوانب .

من بين هذه الاجتهادات : أن تقوم سوريا بابتلاع جانب من لبنان يضم الفلسطينيين . ويعلن قيام دولة لبنان المارونية المستقلة . .

وقد وعدت إسرائيل بمساندة الدولة الجديدة ، وفى العام قبل الماضى عرض وزير خارجية أمريكا على الرئيس السادات تعهداً كتابياً من مناحم بيجين بأنه سوف يساند هذه الدولة وأن هذا التعهد أخلاقى . وأنه جاء بعد إلحاح من زعماء لبنان بقيام هذه الدولة ! .

وسوف تبتلع الأردن الضفة الغربية بالاتفاق مع إسرائيل وتعهد منها أيضا . وخصوصا أن العلاقات بين الأردن وإسرائيل لم تنقطع فى أى وقت . وعلى أعلى المستويات ! .

وهناك اجتهاد آخر هو أن تعلن منظمة التحرير الفلسطينية أنها لم توكل مصر فى الدفاع عنها . وعلى ذلك فليس لأحد الحق فى أن يتحدث باسم الشعب الفلسطينى . ولما كانت مصر ترى أن «المنظمة» هى الممثل الشرعى ، فسحب هذا التوكيل من الممثل الشرعى ، يعنى أن المنظمة سوف تترافع عن نفسها . . ويعنى أيضا أن مصر يجب أن تنشغل بانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء . .

وهذا من شأنه أن يجعل مصر تدخل فى مفاوضات مع إسرائيل من أجل حل منفرد . ورغم أن مصر تفادت الحل المنفرد فإن المنظمة ودول الرفض معها قد دفعت مصر إلى ذلك دفعا .

ويمضى أصحاب هذا الاجتهاد إلى القول بأن مصر ستدعو لمؤتمر قمة عربى وتعرض فيه تفاصيل ماحدث ، وأنها مضطرة إلى أن تحل وحدها . . وأن مصر لديها من المشاكل الداخلية ما تنوء به الجبال . وأن الشعب المصرى قد تحمل كثيرا جداً . وأن من حقه أن يستريح ، وأنه لا يطلب تعويضا ماليا من أحد وإنما تكفيه موارده لو أنها اتجهت جميعا إلى البناء والتعمير . .

وهناك اجتهاد بأنه من الممكن أن يسقط بيجين . وتجىء حكومة أكثر اعتدالا ، وأن هذه الحكومة المعتدلة سوف تمضى بخطوات أوضح وأوسع إلى السلام . ولكن الذى يتابع تاريخ الحكم فى إسرائيل يجد أن المتشددين يكسبون فى النهاية ، وأن الشعب الإسرائيلى العنيد سوف يتمسك ببيجين . والشعب قد أتى به إلى الحكم لأنه متشدد دينيا وسياسيا ، بل إن الأرقام تؤكد أن شعبيته قد زادت هذه الأيام . .

ثم إن اليهود يعزفون لحنا اسمه : الزمن . .

فهم بعد حرب ١٩٦٧ أعلنوا أن العرب سوف يعتادون على الأوضاع الحالية ، أو الحدود العسكرية . . وسوف تصبح الحدود العسكرية حدودا سياسية . . وإلى الأبد ! .

وموشى ديان هو الذى روى فى التليفزيون الإسرائيلى هذه النكتة : أن ملكا إسرائيليا كان عنده حصان . وكان يحب هذا الحصان جدا . ولكنه حزين لأن الحصان لايشاركه طعامه . فلا يأكل الأرز واللحم . فأتى بواحد من الحكماء وطلب إليه أن يعلم الحصان كيف يأكل اللحم . وفكر الرجل الحكيم وقال : ممكن يامولانا . وسأله الملك : كم تحتاج من الوقت؟ قال : أحتاج إلى عشرين عاما! وسأله الملك : ألا ترى أن هذا وقت طويل جداً .

وكان رد الرجل الحكيم : لو كان خروفا لعلمته ذلك فى خمس سنوات . . ولكن حصان يامولانا ! .

ووافق الملك . وذهب الناس إلى الرجل الحكيم يسألونه كيف وافق على تعليم الحصان أن يأكل لحما ، وكان رد الرجل : السبب بسيط جداً . . فبعد عشرين عاما . . إما أن يموت الحصان أو يموت الملك أو أموت أنا ! .

ولهذا السبب فإن مصر حريصة على ألا تقع فى مصيدة (الزمن) وأن تمضى نحو التسوية للقضية . فالذى تريده واضح ولكن الذى تريده إسرائيل ليس واضحا .

فهى على المستوى الرسمى تقول كلاما ، وعلى ألسنة الوزراء تقول كلاما آخر . .

وفى اللجنة السياسية تقول كلاما ثالثا ، وفى اللجنة العسكرية تقول كلاما رابعا . . أما الكلام الخامس فهو الذى يقال لنا خارج اللجنتين أو فى الطريق إليهما أو فى الحفلات الرسمية . .

إن إسرائيل يجب أن تكون أوضح وألا تضيع هذه الفرصة النادرة ، حتى لا يتورط العالم كله فى مواجهة نووية ، سوف تكون إسرائيل أولى ضحاياها . . وإذا لم تكن حرب فسوف تعود إسرائيل إلى إلقاء نفسها فى البحر : بحر الكراهية والحقد والمرارة حتى يهجرها أبناؤها . . أو حتى تتمزق أحزابها السياسية والدينية وتقضى إسرائيل على نفسها ، ويصدق عليها كل ماجاء فى التوراة من أنها شعب استباح دم أبنائه وأعدائه أيضا . . فأباحت كل الشعوب دمها ! .

* * *

إنها خناقة على "الحاف" في إسرائيل !

من الذى كسب حتى الآن ؟

إن هذا السؤال يبدو مكبرا جدا ، لأن اللعبة لم تنته . أو المباراة لم تكد تبدأ ، أو أننا ـ مع إسرائيل ـ لم نتفق بعد على معانى الكلمات المستخدمة بيننا . . فليس لنا قاموس واحد . .

فإذا قلنا : الأمن .

كان رد بيجين : موافق تماما ، مادام الأمن معناه الأرض .

وإذا قلنا له : إنه يحتل الأرض ، ولكن الخوف يحتله هو . .

يكون رد ديان ، فى لندن : إذا لم نتفق على شىء فسوف نعود إلى سيناء والجولان والضفة الغربية .

يريد أن يقول : إنه لم يخسر شيئا ، فلا تزال أرضنا معه .

فهل صحيح أنه لم يخسر شيئا ؟ .

إنه قد خسر الكثير ، فهل كسبنا نحن بمقدار ما خسر ؟ .

نعم كسبنا كثيرا .

فقد احتاجت إسرائيل إلى وقت طويل جداً لكى تنفى أن «بروتوكولات حكماء صهيون» من وضعها ، فهذه البروتوكولات هى مؤامرة مدروسة للسيطرة على العالم كله . وقد نشرها على حسابه بإيمانه وشجاعته فورد صاحب السيارات المعروفة ، وفى هذه البروتوكولات يظهر الوجه الشرير لليهودى الأمريكى والأوروبى . . أو اليهودى العالمى . . وقد نجح اليهود فى أن يشككوا فى هذه البروتوكولات .

وكذلك ما أحدثه اليهود من مذابح دموية فى دمشق ، تدخل فى فضها محمد

على باشا وإبراهيم باشا والباب العالى . . حتى أصبح مجرد ذكرى هذه الوقائع الدامية التى ذبح فيها اليهود راهبا مسيحيا ، نكتة أو شيئا لا يقبله العقل .

واستطاع اليهود أن يستدرجونا إلى أن نتخذ منهم موقفا عدائيا غير معقول ـ كأن يجعل شعارنا أننا سوف نلقى بهم فى البحر . . مع أن الذى فعله اليهود ، ولايزالون يفعلونه فى سجونهم ، أبشع من إلقاء يهودى فى البحر .

ومع ذلك فالذى فعله اليهود بأنفسهم أبشع وأعنف ، فقد أقاموا إسرائيل فى بحر من الكراهية والمرارة العربية . فهم إذن الذين ألقوا بأنفسهم فى البحر ، وظنوا أن إسرائيل هى سفينة نوح الذى سوف ينقذهم من طوفان العرب ، ولكن من المؤكد أن السفينة لاتزال مهددة بالغرق ، بسبب العرب ، وبسبب ما فيها من خلافات بين قبطان السفينة والطاقم المرافق له وبين الركاب جميعا من كل مذهب سياسى ودينى ، لدرجة أن فى إسرائيل مناقشات تقول : متى ينقرض الشعب اليهودى ؟ .

وهو ما سبق أن تنبأ به المؤرخ البريطانى العظيم أرنولد توينبى عندما انتصرت إسرائيل فى حرب سنة ١٩٦٧ ، فى ذلك الوقت أعلن توينبى : أن هذا النصر سوف يكون كارثة على إسرائيل لأنه سوف يضاعف من مرارة العرب وعزلة اليهود فى الشرق الأوسط وفى العالم كله ! .

وجاءت مبادرة الرئيس السادات فخلقت صورة : «الإسرائيلى القبيح الوجه» ، أى الإسرائيلى الذى لايريد السلام والذى يفضل أن يستولى على الأرض ، وأن يصحو وينام فى ظل السلام ، وأن يعيش ويموت من الخوف ، على أن يترك الأرض من أجل الأمن والسلام .

ولكن الشعب الإسرائيلى ليس كله قبيح الوجه ، فقد رأيناهم بمئات الألوف يرقصون من أجل اقتراب السلام ، ويهتزون أمام حائط المبكى من أجل إلقاء السلاح واستقرار الأرض وسلامة سفينة نوح وركابها من البشر والحيوانات . . إلا رجلا واحدا هو مناحم بيجين .

إنه هو الوحيد الذى لم تسكره مبادرة السلام . . إنه كما قلت عنه ـ وأغضبه ذلك ـ الوحيد فى بار السياسة الذى لم يسكر . . إنه كالبارمان . . لم يرفع عينيه عن الزبائن داخلة وخارجة . . تشرب وتدفع أو تهرب من الدفع . .

ولذلك ظل غريبا عن الواقع الجديد . . غارقا فى التاريخ القديم الذى جاء فى التوراة والذى يصف اليهود بأنهم كالزيت يطفو على كل السوائل . . والذى يصف اليهود بأنهم «شعب يسكن وحده بين الشعوب» (سفر العدد الإصحاح ٢٣ الآية٩)

وقد وصفتهم التوراة بأنهم شعب «صلب العنق» ، أى عنيد لا يلين . . وجاء أيضا : كما أن الديك بين الطيور ، والكلب بين الحيوانات ، فكذلك إسرائيل بين الشعوب : غليظة العنق .

وكما جاء فى سفر «أستير» أن الوزير هامان قال للملك : إن هؤلاء اليهود مشتتون فى الأرض ولا يؤمنون بشريعتك ، ولم تتغير آراؤهم وأوهامهم وغطرستهم . . رغم كل الظروف .

وهى نفس العبارة التى جاءت فى كتاب «كفاحى» لهتلر عندما وصف اليهود بقوله : أين يمكن أن نجد شعبا لم يتغير له رأى ولا عادة ولا تقاليد رغم شتاتهم فى الأرض من ألوف السنين؟ .

إن مناحم بيجين لايزال يؤمن بهذه الصورة الخرافية لشعبه ، ولذلك فهو لا يريد أن يلين ولا أن يعمل من أجل السلام ، أو من أجل الحفاظ على الشعب اليهودى من الخارج .

وإذا كان هناك أحد يريد القضاء على يهود إسرائيل فهو مناحم بيجين ، لأن القلق والسخط قد تضاعف عليه من الداخل ، ولأن صورته قد انفضحت فى الخارج . . وأصبح هو رجل الحرب الذى فوجئ بالسلام ! .

وعندما سئل الفنان صلاح جاهين فى التليفزيون الإسرائيلى : إننا نلاحظ أنك ترسم صورا كثيرة لبيجين ، فما الذى جعله جميلا هكذا فى عينيك؟ وكان رد صلاح جاهين : إنه ليس جميلا . . ولكن توافرت صوره لدينا ، ولذلك فإننى أرسمه الآن بدقة ! .

ومع ذلك فصورة بيجين كما يرسمها صلاح جاهين وكل رسامى الكاريكاتير فى العالم ، هى صورة إنسان آلى له وجه مصفح ، وله أنياب قاطعة ـ إنها صورة الإسرائيلى القبيح الوجه ! .

فنحن قد كسبنا تغيير صورة العربى القبيح الوجه الواهم الجاهل المغرور المهزوم بسبب الهزائم المتوالية ، العربى الذى ليس متحضرا ، إنما هو إنسان غبى ، وأن المائة مليون عربى لديهم الناس والمال ونفاق الدول العظمى والكبرى ، حتى كانت المبادرة : منتهى الشجاعة والواقعية والصدق والنفاذ وبعد النظر ! .

هنا فقط انكشفت الصورة الحقيقية للرجل القديم الوهمى : مناحم بيجين . . وحاول بيجين أن يتراجع ، وتراجع ، ولكن العالم كله يقف ضده ـ وفى المقدمة يقف يهود العالم . . ويهود إسرائيل ! .

وقام بيجين ووزراؤه بمحاولات كثيرة لتحسين هذه الصورة القبيحة ، ولكن أحدا لم يستطع وحاول بيجين أن يستدرج أمريكا وغيرها إلى المعسكر الذى يطالب بإسقاط بيجين ، ولكن كارتر أعلن : أن هذا ليس شأنه . . وكذلك أعلن الرئيس السادات ! .

وإذا كنا قد ذهبنا مرة أخرى إلى لقاء رسمى بين وزراء خارجية مصر وإسرائيل وأمريكا فلأسباب مختلفة عند جميع الأطراف ، أما إسرائيل فأعلنت : أن أمريكا طلبت منا ذلك فذهبنا . .

أى أن إسرائيل لم يكن فى نيتها أن تذهب لولا الضغط الأمريكى ، ولكن إسرائيل أعلنت أيضا أنها لن تذهب إذا ضغطت عليها أمريكا ، وحتى يكون ذهابها بلا معنى ولا هدف ، أعلنت أنها ترفض المقترحات المصرية . . وهى بذلك تنهى الاجتماع قبل أن يبدأ .

أمامصر فقد أعلنت أيضا أنها ترفض النقط الست والعشرين التى أعلنها بيجين وكل التفسيرات الأخرى لها ، ومع ذلك فسوف تذهب لأن أمريكا طلبت منها ذلك . .

ولكن مصر لها موقف آخر : وهو أن الرئيس السادات استطاع أن يجعل أمريكا طرفا ثالثا وأن هذا اللقاء حتى إذا لم يسفر عن شىء . . فإن أولى نتائجه الواضحة هى أن أمريكا هناك ترى مزيدا من التهرب الإسرائيلى من كل مواجهة من أجل السلام . .

وقبل الذهاب إلى لندن حاول بيجين أن يعرف ما الذى دار بين الرئيس السادات وشيمون بيريز زعيم المعارضة ، فأرسل وزير الدفاع فايتسمان ، والذى يسمونه فى إسرائيل دلوعة السادات . . ولكن لم يحصل فايتسمان على ماكان يريد . . فقد اتفق السادات وبيريز على عدم الإفصاح عن كثير مما دار بينهما ، إلا بالنسبة للجنة المركزية لحزب العمل الإسرائيلى .

ولذلك فقد هاجم بيجين هذا اللقاء ، بعد أن سمع به . . هاجمه لأن الرسالة التى تلقاها من بيريز لم تكن كافية .

مع أن بيجين كان قد طلب إلى أبا إيبان أن يذهب إلى أمريكا لتجميل صورة إسرائيل لدى الرأى العام الأمريكى ، ورأى أبا إيبان ، وهو من حزب العمل المعارض ، فى هذه المهمة واجبا قوميا .

ولم يغضب بيجين لأن أبا إيبان لم يخف عنه شيئا .

ولكن الصورة تغيرت ، لقد أخفى بيريز الكثير من بيجين ، وفى نفس الوقت قد فضح بيجين ، فقد عرف من لقائه بالرئيس السادات كل حقائق الموقف ، وكل ما أخفاه بيجين عن الرأى العام الإسرائيلى واليهودى العالمى .

ولذلك نجد أن موشى ديان اندهش تماما ، لأن مايقوله الرئيس السادات ووزير خارجيته محمد كامل . . علنا ، هو نفس الذى يقال سرا . . وليست كذلك إسرائيل! .

وجولدا مائير أيام كانت رئيسة للوزراء ، عندما علمت بأن جولدمان يحاول لقاء الرئيس جمال عبد الناصر عارضت ذلك ، واستنكرته ، مع أن جولدمان ليس له أى دور حزبى . . إنما هو رئيس المجلس الصهيونى العالمى . . وكان جولدمان قد حاول عن طريق همرشولد سكرتير الأمم المتحدة . . ثم حاول مرة أخرى عن طريق نهرو . . ولو كان جولدمان قد استأذن من جولدا مائير ، لأذنت له . . ولكنه ، وهو الأكبر سنا والأطول تاريخا . . وجد فى ذلك حرجا . . فلم يفعل . .

أما بيجين فقد وافق على لقاء بيريز بالرئيس السادات بشرط أن يطلعه على كل شىء ! ولكن بيريز أعلن أنه وعد الرئيس السادات بألا يطلع بيجين على كل الحقائق ثم إن بيريز زعيم المعارضة التى نحاها بيجين عن الحكم .

وهذه فرصة المعارضة الآن لكى تزداد قوة بعد أن زاد عدد المنشقين عليه فى الوزارة وفى الكنيست وفى الشعب ، وليس أمام بيجين أى خيار الآن : إما أن يلين ، وإما أن يسقط . .

وهم فى إسرائيل يقولون : بيجين بيجين . . يسقط بيجين .

والذين لا يرددون هذا الهتاف يخفونه فى صمت حتى لا يجعل بيجين من هذا الهتاف تدخلا فى شئون إسرائيل ، وتلك عقدة الشعب اليهودى أن يحس بأن أحدا يفرض عليه رأيا من الخارج . سواء كان هذا الأحد : مصر أو الولايات المتحدة ! وبعد أن ارتفعت أصوات المعارضة والأحزاب المؤتلفة معه حاول استرضاء الأحزاب الدينية فأدخل تعديلا على قانون المجندات ، إذ يكفى أن تعلن فتاة أنها متدينة ليتم إعفاؤها . . بل إن زوجة بيجين نفسها أعلنت معارضتها لهذا القانون . . وقالت السيدة أليزا بيجين : إن تعديل هذا القانون هو منتهى الظلم .

فالسيدة أليزا لها ابنتان مجندتان : هاسيا (٣٢ سنة) وليا (٣٠ سنة) .

إن مناحم بيجين يحاول أن يرضى كل الناس . فلم يرض أحدا وتلك خسارة فادحة له وللشعب الإسرائيلى الذى يريد السلام . . ليس على طريقة بيجين .

وقد أعلن حاييم بارليف صاحب الخط الشهير ، وعضو المعارضة العنيفة ضد بيجين ، أنه لا أمل فى أن يتحقق السلام إلا إذا أدخل بيجين عدة تعديلات جوهرية على تفكيره . أولا : يجب أن يكف تماما عن الإعلان بأنه لن يترك شبرا من الأرض المحتلة لأنها أرض الأجداد فليس ذلك صحيحا بل من الواجب أن ينسحب من الأرض المحتلة ، وثانيا : يجعل ذلك سببا لإعلان المبادئ .

ثم إن بارليف قال : إنه يجب أن يستبعد أيضا بعض العبارات من الحوار مع مصر مثل الحدود الآمنة والحدود التى يمكن الدفاع عنها ، فلا توجد حدود آمنة ــ وقد رأينا ماحدث لخط بارليف ، ثم إنه لاتوجد حدود لايمكن الدفاع عنها ، أى أن كل الحدود يمكن ضربها ويمكن الدفاع عنها . . ولذلك يجب استخدام تعبير جديد هو الحدود المعقولة ، فالأردن قد ضرب إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ . فقد كانت للأردن قوات خارج القدس وعلى مدى ١٢ ميلا من تل أبيب .

***

ومن مكاسب مصر أيضا أن مبادرة السلام أو مفاوضات السلام لم تعد تجعلنا ننتظر ما يفعله الآخرون . . وإنما نحن مصدر الفعل ومصدر الحركة . . فالمبادرة فى أيدينا .

ومن الطبيعى أن يتعجل الناس النتائج ولكن هناك فرقا كبيرا بين الذى يريده الناس وبين الذى يريده الواقع . . أوتسمح به الأحداث المتشابكة الأطراف .

ثم إن التاريخ يدلنا على أن اتفاقيات السلام ، أو مفاوضات السلام لا تتم فى يوم أو فى ليلة أو فى سنة .

ورغم ذلك فإن الشجاعة الباهرة التى جعلتنا نقدم على طريق آخر غير الحرب ، سعيا للسلام . سوف تجعلنا نعلن عجزنا عن تحقيق السلام بكل الطرق المشروعة ـ إذا ما تأكد لنا ذلك . .

إننا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم نحرر كل الأرض . فلا تزال أرضنا محتلة ولكن الذى تحررنا منه نفسيا وقوميا . . أوسع وأعمق وأعظم من الأرض . . ولولا ذلك ما اتجهنا إلى أسلوب آخر ، بعد أن جربنا مرارة وفداحة القتال ــ لقد ذاقتها إسرائيل أبشع وأفظع ما نتصور : إنهم هم الذين يقولون ذلك ونحن نصدقهم لأن هذا هو الواقع النفسى والقومى لهم .

وهذه الخلافات فى الحكومة الإسرائيلية ليست تمثيلا . وهذه المناورات الحزبية

ليست تهريجا . . إنما هو موقف بيجين الذى أدى إلى ارتفاع مد معاد لليهود فى العالم كله . ليس بين العالم واليهود ، ولكن بين اليهود أنفسهم ، وإذا كان العرب متهمين بالعداء للسامية ـ أى العداء لليهود ـ فإن التهمة تسقط عنهم اليوم . فليس أعدى لليهود من اليهود أنفسهم ـ مناحم بيجين مثلا .

* * *

إن إحدى قصص الشعب اليهودى تقول ، إن جماعة من الناس قد التفوا حول رجل أنيق . . ثم راحوا يخطفون ملابسه قطعة بعد قطعة . . حتى أصبح عاريا . . فلما رأوه عاريا انهالوا عليه بالطوب . إذ كيف يسمح لنفسه أن يخدش الحياء العام!

إن هذه القصة «مسروقة» أيضا من الأدب الشعبى العربى . إذ يقال : إن جحا فى إحدى المرات ذهب يفض خلافا بين رجلين . . ثم عاد بغير ملابسه وبغير اللحاف الذى كان يغطى رأسه وظهره .

ولما سألوه على أى شىء كانا يتشاجران ؟ .

فقال جحا الرد التاريخى المضحك : لا أعرف ولكن يظهر أنهما كانا يتشاجران على اللحاف ! .

وهذا بالضبط ماحدث فى إسرائيل . . فعندما ذهب بيريز للقاء السادات عرف حقيقة بيجين . . وانكشف أمامه بيجين عاريا ، وإذا ببيجين هو الذى يتهم بيريز بقلة الأدب ، لأنه قد عراه أمام العدو .

وإذ ببيجين يقول لمؤيديه : إن السادات وبيريز كانا يتفقان على اللحاف . . أى على الغطاء وعلى تعريته . . وفى نفس الوقت على أن يتهمه الرئيس السادات بالمرارة والتخالف عن روح العصر ! .

مع أن بيجين هو السبب . . وإسرائيل مولاته وسيدته وتاج رأسه هى الضحية اليوم أو غداً .

* * *

العالم كله يتآمر على بيجين : أكذوبة!
بيجين وحده يتآمر على السلام !

إن رئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين قد أثار غرائز اليهود فى إسرائيل وفى العالم . فهو يؤكد لهم أن هناك «مؤامرة» على إسرائيل وعلى قرار الشعب الإسرائيلى بأن يكون بيجين رئيسا للوزراء . . وأنه لذلك يستحق مساندة الجميع ، وإلا عاد الطرد والتعذيب للشعب اليهودى فى كل مكان ولاتزال أعمق غرائز اليهود هى الخوف .

والخوف يؤدى إلى سوء الظن . وسوء الظن يفضى إلى الكراهية ، والكراهية تدفع إلى الحرب . .

ثم إن الخوف يؤدى إلى العزلة والانطواء . فإذا انعزل الإنسان أو انطوى فقد جعل العالم كله يقف ضده .

وقد جرب اليهود ذلك فى كل العصور . وهم يحفظون ذلك ولا ينسونه ، وعلى الرغم من أن اليهود قد أصبحت لهم دولة فإن المذاهب الدينية تصر على أن تعيد على مسامعهم وعلى عيونهم أشكال العذاب والهوان والطرد والحرق والعويل عند «حائط المبكى» حتى لا ينسوا . . وحتى لا ينسوا أيضا أن هذا من الممكن أن يحدث مرة ومرة ، لأنه حدث قبل ذلك عشرات المرات . . وأنه لاسبيل إلى وقف التآمر على اليهود إلا بأن يتماسك اليهود . وإلا بأن يتشبثوا بأنفسهم وبمالهم ومال الغير ، وأرضهم وأرض الغير . .

وعلى هذا الوتر الدموى الحزين يلعب بيجين ، وفى نفس الوقت يغمض عينيه عن مبادرة السلام التى أتيحت لليهود لأول مرة فى التاريخ .

وعندما يثير فيهم غريزة الخوف فإنه يعيد إلى خيالهم مأسى «اليهودى التائه» من أرض إلى أرض . . ومن دين إلى دين . . ويعيد إليهم أيضا كيف انهدم عليهم المعبد . . وكيف طردوا من فلسطين . وكيف وقعوا فى سجون بابل . .

ثم إن هذا التآمر العالمى على اليهود هو مايسمى «بالعداء للسامية» . . وقد اتخذ هذا العداء أشكالا دينية وسياسية واقتصادية عنيفة .

فعندما ذهب الصليبيون يحررون القدس من المسلمين . ذبحوا ربع مليون يهودى وهم عائدون من القدس إلى العواصم الأوروبية . .

وعندما حدث مد دينى كاثوليكى فى أسبانيا ظهرت «محاكم التفتيش» وطرد اليهود وأحرقوا فى سنة ١٤٩٢ وهى نفس السنة الى اكتشف فيها كولمبوس قارة أمريكا ، وفى القرن السابع عشر عندما ذهب شلمنتسكى فى مقدمة ألوف الخيول التى عبرت القوقاز لتحرير أوكرانيا من الاحتلال البولندى ، ذبحوا ربع مليون يهودى . .

وفى روسيا فى أوائل القرن التاسع حددوا لليهود مساحة لايخرجون عنها ، إلا موتى ثم مافعله هتلر بعد ذلك ـ أخيرا وليس آخراً ! .

فلا شىء يفزع اليهود إلا أن يكون هناك مد دينى فى العالم . ووحدة للأعداء العرب ، وتخل من الأصدقاء الأمريكان والأوروبيين ، ومحاولة تصوير جهود أنور السادات على أنها تفاريق بين وزراء بيجين وبين الحكومة والمعارضة وبين إسرائيل ويهود العالم . .

ولذلك فمناحم بيجين يتجه إلى أغلبية اليهود الشرقيين الذين جاءوا من البلاد العربية والشرقية ، ويذكرهم بما يمكن أن يقع عليهم مرة أخرى . ثم يتجه إلى سكان المستعمرات الإسرائيلية التى أقيمت على أرض مسروقة ، وينقل إليهم أن مصر تريد أن تطردهم حتى من هذه المستعمرات على الأرض المحتلة . . وأنهم سوف يتحولون إلى لاجئين مطرودين من بلادهم وفى بلادهم .

ولكى يخفى مناحم بيجين عيوبه الشخصية فإنه يجعلها عيوبا عامة . .

وإن كان فى نفس الوقت قد حرص منذ البداية على أن يجعل مبادرة السادات ذات طابع شخصى . . أى مرتبطة بالرئيس السادات شخصيا ومحسوبة له فى التاريخ ، ويستحق عليها جائزة نوبل للسلام : ويكفى الرئيس السادات أنه كان حسن النية صادق العزم ! .

ولم يفلح بيجين فى أن يجعل مبادرة السادات قرارا شخصيا ، أو ضربة زعامة . فقد اكتسبت المبادرة تأييدا عالميا . . فلا يوجد على الأرض شعب لايحلم بالسلام . بما فى ذلك شعوبنا العربية وإسرائيل أيضا . . ولكن من العيوب الشخصية : أن بيجين قد أعد نفسه للحرب . والشعب الإسرائيلى قد اختاره لذلك بعد هزيمة أكتوبر ٧٣ . . وبعد أن مات عدد من اليهود يعادل فى نسبته عدد الأوروبين الذين ماتوا فى الحرب

العالمية الثانية . . ولذلك اختاره الشعب الإسرائيلى ليعيد إلى إسرائيل قوتها وسطوتها . . وليعيدها إلى صورتها التى عرفها العالم : أقلية أوروبية منتقاة فى وسط بحر من العرب الأغنياء الجهلة المتعطشين للدماء . . وأنه لابد أن يقف الجيش الإسرائيلى حيث هو إلى الأبد . . لأن الانسحاب مترا يعنى كيلو مترا . والانسحاب كيلو مترا يعنى الخروج من الشرق الأوسط ! .

وبعد الحرب جربنا «عبر» أمريكا التفاهم والاتفاق ثلاث مرات فيما بين ٧٣ و ١٩٧٦ وثبت للعالم أنه يمكن الاتفاق التدريجى على شىء ما . وأن هذا من شأنه أن يجعل الحرب احتمالا بعيدا .

وكان هناك اتفاق بين السادات ونيكسون وفورد وكارتر على أن السلام خطوة خطوة والانسحاب قطعة قطعة . سوف يستغرق وقتا طويلا . . وسوف نظل هكذا لا نحن فى حالة حرب ولا نحن فى حالة سلم إنما نحن فى سلام أقرب إلى الحرب وفى حرب أقرب إلى الاسترخاء . وهذه الحالة تعطل العقل وتخمد الخيال وتبتز مشاريع التنمية . وتهلك الأعصاب . . وتجعل اليأس والمرارة طعاما وشرابا للجميع . . وكان لابد من عمل شىء آخر أكبر وأشمل .

وبدأ الانتقال من قطعة أرض مقابل قطعة سلام أو ساعة سلام مقابل متر أرض . إلى «الحل الشامل» و «السلام التام» .

وبدأ التفكير فى أن يذهب جميع الأطراف إلى جنيف . . هناك يلتقى الجميع ويعرضون وجهات نظر محددة يتفقون عليها أو يختلفون . . المهم أن نعرف وأن يعرفوا . . والعالم كله شهيد على ذلك .

واختلف العرب : هل نذهب وفدا عربيا موحدا ! هل نكون وفودا عربية مختلفة ؟ ومن الذى يمثل الفلسطينيين ؟ .

وظهرت سوريا مرة تطالب بالوفد الموحد . ومرة بالوفود المختلفة . .

وإن كان الرئيس حافظ الأسد قد أعلن بعد ذلك أن سوريا وروسيا لم تقررا فى أى وقت الذهاب إلى جنيف .

واهتدى ياسر عرفات إلى فكرة ذكية وهى أن يمثل الفلسطينيين أستاذ أمريكى فلسطينى الأصل .

واتصل الرئيس السادات بالرئيس كارتر يخبره بهذا الحل السعيد . . وفرح كارتر بذلك وأنكر ياسر عرفات أنه صاحب هذه الفكرة . .

وكان من الممكن أن يمضى العرب ـ بما لديهم من موهبة التلاعب بالألفاظ التى تؤدى إلى التلاعب بأقدار الشعوب ـ ثلاثين عاما أخرى أو تزيد (والعرب يتباهون بأحد الأمثلة التاريخية وهو أن أحد فقهاء اللغة قد أمضى من عمره عشرين سنة فى دراسة الحرف «حتى» ولما مات قال : أموت وفى نفسى شىء من «حتى»)!!

لهذه الأسباب ولعناصر أخرى كثيرة كان لابد من عمل شجاع جرىء فريد . فكانت مبادرة السلام ، خاطفة بارقة وكانت اختصارا لعشرات السنين من النقاش والحوار اللغوى فى معنى الوفود وشكل المنضدة والعلم الذى يوضع فوقها وجدول الأعمال . . إلخ .

وإيمانا من الرئيس السادات بأنه لامجلس الأمن ولا الأمم المتحدة استطاعت أن تحل أية مشكلة ، فلا تزال ألمانيا دولتين ، ولاتزال برلين مدينتين ، وغيرهما من المشاكل الكبرى ، فليس من سبيل إلا الاتصال المباشر وعلى أعلى المستويات وعلى مرأى من ألف مليون نسمة أمام شاشات التليفزيون فى العالم كله . وكان نزول السادات إلى القدس مثل نزول الإنسان على القمر !! .

وكان منتهى أمل اليهود فى إسرائيل وخارجها أن يجلسوا مع العرب . أن يتكلموا . . أن يتفاهموا سرا أو علنا . فقط مجرد الجلوس معا . والحديث معا ، وبعدها يأخذ كل شىء وزنه وحجمه ، فقط أن نجلس معا . .

ويضربون لذلك مثالا : أن كنيسة القديس بوليس بالفاتيكان بها القبة السداسية التى رسمها مايكل أنجلو يصور فيها نشأة الكون . . وفيها أن الله عندما أراد خلق الكون مد يده ومد إصبعا واحدة من يده لمس بها المادة الأولية للماء والهواء والتراب والنار . . مجرد لمسة من إصبعه أدت إلى خلق العناصر وبقية الكائنات . .

والمعنى : أن أكبر الأعمال تبدأ بلمسة من إصبع ، ولم يكن ذلك الذى حدث فى القدس لمسة يد ، وإنما كان مصافحة وجلوسا وخطابا ونقاشا وتوضيحا لكل شىء . .

ومنذ تلك اللحظة أحس مناحم بيجين بأنه قد فوجئ بما ليس فى حسابه . إن مبرر وجوده على رأس الحكومة قد ألغاه السادات . فقد جاء بيجين ليحارب المصريين . فجاء المصريون يعلنون أنه لاداعى للحرب . فقد أتى الشعب الإسرائيلى ببيجين ليبقى حيث هو ، وإذ بالمصريين يطالبونه بالعودة إلى حيث كان فى سنة ١٩٦٧ . .

وهنا انكشف تماما أمام العالم كله . . وانفضح أمره . . واهتزت صورته . . والتف العالم كله حول السادات فى أمريكا وأوروبا . . ودول العالم الثالث ثم الدولية

الاشتراكية . . ويرى بيجين أن فى تكوين علاقة ودية خاصة بين وزير الدفاع فايتسمان وبين الرئيس السادات . . محاولة من مصر لتمزيق الوزارة وإحداث صدع فى كتلة الليكود الحاكمة . . مع أن فايتسمان فى كل مرة يلتقى فيها بالرئيس السادات يؤكد : أنه ليس إلا وزيرا ضمن وزراء . وأن له رأيا خاصا . ولكن القرار فى النهاية لبيجين . .

وعندما وافق بيجين على أن يلتقى شيمون بيريز زعيم المعارضة بالرئيس السادات فى فيينا . عاد بعد ذلك فاعترض على أن هذه المقابلة قد تمت . وأنه لن يسمح له بعد ذلك بأن يلتقى بأحد ، وأن التفاوض يجب أن يكون حكوميا . . بل إن فى الجلسة الأخيرة للكنيست قال له : إننى على استعداد لأن آتى لك بجهاز كشف الكذب . . لنعرف أينا يكذب على الآخر ! .

والذى ضايقه فى موقف زعيم المعارضة أنه قد عرف حقيقة مادار بين بيجين وبين الرئيس السادات ، وقد أخفاه بيجين عن الشعب . . ثم إن هناك أشياء كثيرة لم يعرفها بيجين من زعيم المعارضة . . ثم إن المعارضة قد هاجمته بعنف وطرحت الثقة به . .

ولكن لايزال موضع ثقة معظم الخائفين فى الكنيست : الخائفين من أن يكون انسحابهم من شبر واحد من الأرض هو انسحابهم من كل الكرة الأرضية ! .

ثم إن هذه المبادرة قد أدت إلى انقسامات بين الشعب الإسرائيلى . . ومظاهرات ضد بيجين فى إسرائيل وفى غيرها . .

وفى مواجهة هذه «المؤامرة العالمية» ضد إسرائيل أو ضد بيجين شخصيا . حاول بيجين أن يسترضى كل العناصر فى داخل الكنيست . . فلم يحدث أن صدرت تشريعات ترضى رجال الدين المتطرفين كما حدث فى عهد بيجين فقد صدر قانون تحريم الإجهاض وصدر قانون منع التبشير المسيحى فى إسرائيل وفى الأرض المحتلة وصدر قانون إعفاء المجندات المتدينات من الخدمة العسكرية . .

وفى نفس الوقت نجد أن جماعة «جوش أمونيم» تواصل بناء المستعمرات على الأرض المحتلة حتى أقامت ١٩ مستعمرة منذ مبادرة السلام حتى اليوم . . وتستعد هذه الجماعة لبناء مستعمرة كبرى بالقرب من نابلس عاصمة الضفة الغربية .

وينصح بيجين باللجوء إلى الكتاب المقدس لمواجهة العدو الواحد : السادات والعالم كله . .

ففى التوراة أنه إذا تشاجر كلبان . ثم فجأة ظهر لهما الذئب واعتدى على واحد منهما فيجب أن ينضم الكلب إلى الكلب الآخر . . وإلا انفرد الذئب بأحدهما اليوم وقضى على الثانى غدا! (سفر «العدد» الإصحاح ٢٠ الآية ٤) .

وفى «الساتهدرين» أيضا : أن لعنة الصديق أرحم من بركات العدو . .

إن الخلاف بين خصوم بيجين أرحم من الاتفاق مع السادات . .

ويقول كتاب الساتهدرين : إن لعنة الصديق تشبه أعواد العشب . إذا وضعت فى أرض خصبة فإنها تنمو وتترعرع وتهزها الريح ولاتقصفها . . ولكن بركات العدو مثل أشجار الأرز صلبة عالية ، إذا هبت عليها رياح الصحراء الساخنة اقتلعتها . .

أى أن الصديق يجب أن يظل صديقا ، وأن يبقى العدو عدوا ! .

* * *

وأضاف مناحم بيجين إلى تخويف الشعب اليهودى ، سلسلة من التشويش والتشويه لما يقوله الرئيس السادات . . بقصد أن يعيد صورة العرب إلى ما كانت عليه . وليواجه هذا المد العالمى للموقف المصرى . والكسب الهائل للسادات ومبادرة السلام .

فقد ظل بيجين أكثر من أسبوعين بعد المبادرة مباشرة ، يصرخ فى كل مكان : وأين وعود السادات . . وأين ما اتفقنا عليه فى القدس . . إنه قد وعد ولم يف ــ وكذلك يفعل العرب ! .

أما الذى زعم بيجين أن الرئيس السادات قد وعد به . . فله قصة .

فقد التقى الرئيس السادات فى فندق الملك داود ، بعد إلقاء خطابه فى الكنيست بمناحم بيجين ويادين وديان وبطرس غالى ، ولم يتمكن فايتسمان من الحضور ، فقد كان مصابا فى ساقيه ، ولم يسفر هذا اللقاء المحدود عن شىء جديد . . فقد كان الجميع يريدون استكشاف وجهات النظر ، ولكن بعد ذلك انفرد الرئيس السادات ببيجين وتحدثا فى كل شىء ولم ترد عن «سيناء» إلا عبارة واحدة قالها بيجين : لا خلاف بيننا على سيناء . .

وقبل ذلك قال له الرئيس السادات : أكرر لك ما أعلنته فى الكنيست من أنه لا سلام بغير حل المشكلة الفلسطينية ، وإننى لم آت من أجل فك اشتباك ثالث أو حل منفرد .

وكان بيجين سعيدا إلى أقصى درجة . وأعلن له الرئيس السادات أيضا ، لكى يطمئنه تماما على ضمانات السلام : أنه لن تتعدى القوات المصرية الضاربة خط

المضايق . . ولما جاء فايتسمان إلى الإسماعيلية يمهد لزيارة بيجين . . التقى بالرئيس السادات ثم التقى بالفريق الجمسى . .

وسأله الرئيس السادات : ماذا فعلت مع الفريق الجمسى ؟ .

أجاب فايتسمان : لاتزال هناك خلافات بشأن القوات المصرية الضاربة .

قال السادات : وما هذه الخلافات ؟ .

أجاب فايتسمان : لقد فهمت من حديثى مع الفريق الجمسى أن قوات مصرية ضاربة سوف تكون شرقى المضايق ، وهذا يخالف ما اتفقت عليه مع بيجين فى القدس . . كما أن بيجين قد أخطر مجلس الوزراء بذلك .

وقال الرئيس السادات : فعلا لن تكون هناك قوة ضاربة شرق المضايق تأميناً وتهدئة لخوفكم الرهيب ، كما سبق أن وعدت ولكن مادخلكم فى قواتنا العادية وتوزيعها؟ ماذا جرى لكم؟ كيف تفكرون؟ إن توزيع قواتنا وانتشارها وتمركزها أمر يخص الفريق الجمسى ، ولا أزال عند الوعد الذى قطعته لبيجين من ألا تتعدى القوة الضاربة شرق المضايق .

وهنا سأل عيزرا فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلى أخطر سؤال : ياسيادة الرئيس هل دار بينك وبين بيجين شىء عن المستعمرات الإسرائيلية فى شمال سيناء؟ . وهل تحادثتما عن المطارين فى النقب وبالقرب من رفح ؟ .

قال السادات : لم نتحدث فى شىء من ذلك ؟ ولماذا ؟ ومع ذلك إذا كانت هناك مشكلة بالنسبة لهذين المطارين ، فاحرثوهما قبل أن تخرجوا منهما . . وقد فعلتم ذلك بعد عدوان ١٩٥٦ حرثتم كل شىء ، ثم إن هذين المطارين ، كما تعرف ليست لهما أية قيمة عسكرية . . لأنهما قريبان جدا من حدودكم ، وفى دقيقة واحدة يمكن ضربهما . . ولذلك سوف أضمهما إلى المطارات المدنية . ولن أضع فيهما طائرات حربية فهذا ضد كل نظريات الحرب .

وعاد فايتسمان يقول : إنه موضوع فى غاية الخطورة ! .

ولما لاحظ فايتسمان استنكار الرئيس السادات لمجرد ذكر المستوطنات على الأرض المصرية عاد يقول : تصورت أنه لابد أن يكون قد دار بينكما حديث فى هذا الشأن .

وعاد الرئيس السادات يقول : لقد سمعتنى أقول للعالم كله : إننى مستعد أن أذهب لآخر الدنيا إذا كان هذا سيؤدى إلى وقف الحرب ونزيف الدم بيننا . .

يافايتسمان قل لبيجين سأحاربكم إلى الأبد إذا فكرتم فى استبقاء شبر من أرضنا أو الاحتفاظ بمستعمرة على سيناء .

وامتقع وجه فايتسمان وهو يقول : ياسيادة الرئيس لقد حاربت أربع مرات ، ومستعد أن أحارب مرة خامسة ! .

وعاد السادات يقول : إننى لا أقول لك ذلك عن انفعال مثل انفعالك . إنما هذا أمر لا أقبل فيه المناقشة ! .

قال فايتسمان : إذن اختلفنا ! .

قال السادات : نصيحتى : إذا كنتم تتصورون أن الاتصال المباشر سوف يكون وسيلة لتنازلات مصرية تمهيدا لتنازلات أخرى على الأرض المحتلة ، فهذا مرفوض تماما . . فلا أقبل مستوطنات فى سيناء ولا فى الضفة الغربية والجولان وأرى فى مجرد التفكير فى إبقاء المستعمرات على أرضنا ، إهانة لمصر . .

وكان تعليق فايتسمان على ذلك : جئت وفى قلبى فرحة ، أعود وفى نفسى حسرة ! .

وكان هذا الموقف موضع رسائل تبادلتها مصر وإسرائيل عبر السفير الأمريكى .

وأعلن بيجين فى رسالته أن ماحدث : شىء يبعث على الأسف .

* * *

وقد عاد بيجين يلوى الوقائع ويفسرها على هواه ليؤكد ليهود إسرائيل والعالم أنه رجل شهيد ، وأنه يقف وحده ضد العالم كله من أجل سلام الشعب الإسرائيلى . فقد أعلن بيجين أمام ضباط الطيران أن الرئيس السادات يهاجمنى شخصيا لأننى قد وصفته بنيرون الذى أحرق روما وهو سعيد بذلك ! .

وأعلن منذ أيام أنه يرفض التعليق على ما تنشره مجلة «أكتوبر» ورئيس تحريرها أى أن موقف مصر من بيجين شخصى من أوله لآخره . وهذه الأكذوبة الجديدة لها قصة أيضا .

ففى حديث للرئيس السادات مع مجلة «أكتوبر» أعاد ماسبق أن قاله فى جلسة خاصة لبيجين ثم مادار بينه وبين فايتسمان .

قال الرئيس السادات : إن هذين المطارين فى شمال سيناء يجب ألا يبقيا . . ورأى أن إسرائيل يحسن بها أن تحرث أرض هذين المطارين قبل انسحابها إذا كانت تخشى استخدامهما ضدها . .

ونشرت الصحف اليومية المصرية هذا الحديث فى نفس اليوم مع مجلة «أكتوبر» غير واحدة من هذه الصحف قد وقعت فى خطأ مطبعى . فبدلا من أن تقول : هذه المطارات احرثوها . . كتبت : هذه المطارات احرقوها ! .

فماذا فعل بيجين ؟ .

بسرعة أعلن أنه لا يقبل تهديد الرئيس السادات الذى يعيد إلى ذاكرتنا نيرون الأمير الرومانى الذى أحرق روما ـ هذه أول مغالطة . .

والمغالطة الثانية أن بيجين بدلا من أن يقول : السادات طالب «بحرق» المطارات قال : إنه يطالب بحرق «المستعمرات» . . أى إحراقها بمن فيها وعلى من فيها ؟! .

وكان فى استطاعة بيجين ـ طبعا ـ أن يتحقق من نص الحديث . . ولكن بسرعة قام بالتشويه والتشويش .

وأذكر أنه فى إحدى المرات كان التليفزيون الأمريكى يسجل برنامجاً للرئيس السادات فى بيته بالجيزة . وأثناء الحديث سمعنا مندوب التليفزيون يتحدث فى جهاز لاسلكى من فندق مريديان ويوجه زميله فى بيت الرئيس ويطلب أن يقرأ على الرئيس السادات برقية جاءت من واشنطون لعله يعلق عليها فى البرنامج . فاعتذر الرئيس السادات قائلا : لا أعلق على برقيات تنقل كلاما لزعيم من الزعماء . . إننى أنتظر النص الرسمى لما قال ، وهذا هو العرف السياسى الصحيح ! .

فلم يعلق الرئيس السادات على تصريح للرئيس كارتر قبل أن يتثبت من ذلك ! .

ومما قاله الرئيس السادات لفايتسمان عندما التقى به فى القناطر الخيرية . وعلى مسمع من حسنى مبارك والجمسى وبراق ا لنائب العام الإسرائيلى الذى استقال أخيرا : لو خطر لى لحظة واحدة أن بيجين وهو يتكلم عن المستعمرات كان جادا ، لأنهيت اللقاء وقطعت كل شىء . . ولكنى تصورته يداعبنا فقط . . أو أنه يتخذ موقفاً تفاوضياً .

وهذه الواقعة أيضا كانت موضع رسائل متبادلة بين السادات وبيجين عبر السفير الأمريكى . وكان رأى بيجين فى رسالته : أنه شىء يبعث على الأسف ! .

ثم إن هاتين الواقعتين وهذه الرسائل المتبادلة قد أعلنها الرئيس السادات على رؤساء تحرير الصحف الأمريكية الذين التقى بهم فى أبريل قبل الماضى فى بلير هاوس (قصر الضيافة) بواشنطون . وطلب إليهم عدم التعليق على ذلك ، حتى لا يعطوا بيجين فرصة للتباكى على أنه أصبح مضطهدا معزولا من العالم كله . .

ولايزال بيجين يحاول تغطية هذا الموقف الصعب الذى اختاره لنفسه والذى تراكم عليه وحوله ، ولذلك لم يبالغ الرئيس السادات عندما وصف بيجين بأن فى داخله مرارة . وبيجين نفسه قد أكد هذا المعنى فى أحاديثه السياسية وحملاته الانتخابية ومواقفه من المعارضة فى داخل الكنيست .

وفى كتابيه : كتاب «الثورة» الذى أهداه للرئيس السادات فى بيت رئيس الدولة السابق كاتسير . وكتابه الثانى الذى لم يهده للرئيس وهو «الليالى البيضاء» . كأنما توقع أن يكون للرئيس السادات رأى خاص فى هذا الكتاب .

فهذا الكتاب سجل كامل من اعترافات بيجين وعذابه وهوانه ومرارته فى داخل السجون السوفيتية . . وفيه مقارنات بين السجون فى روسيا والسجون فى ألمانيا . . ويقول بيجين فى هذا الكتاب : إن المؤلفين السوفيت يرون أن سجونهم أفضل . . لأن السجين يعمل . وفى العمل تهذيب وإصلاح وتقويم لخلقه . .

وأهم من ذلك أن السجون السوفيتية فيها نوع من «الحكم الذاتى» . .

أما تفسير الحكم الذاتى عند بيجين فهو : أن السجين يتولى بنفسه الطعام والشراب والنوم ! . والسوفيت يتولون الإشراف على تثقيفه وعلاجه . .

ويقول بيجين : ولكن المؤلفين السوفيت لا يشرحون للناس ، ما هى هذه الأشياء التى يتولى السجين عملها . . مانوع الطعام وما نوع الشراب وما نوع الفراش .

إنها جميعا حقيرة لا تستحق الذكر .

وهذا هو «الحكم الذاتى» الذى ينادى به بيجين لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة : سجن يمارس فيه السجين حريته فى الأكل والشرب وتبقى السلاسل اليهودية فى يديه ورجليه .

وبيجين يختتم كتابه هذا بقوله : إن كل شىء فى الدنيا يهون أمام ضحكة طفل! .

فهل هان كل شىء أمام اللحظات السعيدة لمئات الألوف من الإسرائيليين يوم استقبلوا وودعوا الرئيس السادات . داعية السلام الحقيقى للجميع ؟ ! .

إن بيجين يعنى ما يقول عن المرارة ولايعنى ما يقول عن السعادة والسلام ! إن بيجين له وضع غريب وعجيب ، فهو بولندى المولد . روسى السجن ، شرقى الدولة

وتنطبق عليه الآية التى وصف بها موسى عليه السلام نفسه حين ذهب إلى سيناء : إنه غريب فى أرض غريبة! (سفر «الخروج» الإصحاح الثانى الآية ٢٢) . .

وهو غريب عن الأرض وعن الشعب . . ومع ذلك يحاول أن يكون شرقى الجغرافيا ، غربى التاريخ ، ولكنه فى نفس الوقت يعتمد على الشرقيين فى مواجهة الغربيين المثقفين من حزب العمل والأحزاب الأخرى .

وربما كان هذا هو الخلاف بينه وبين فايتسمان . ففايتسمان من الصابرا ـ أى من الذين ولدوا فى فلسطين . وهو قد شرب الروح الشرقية وعرف معنى وجود العرب فى إسرائيل وخارجها . ولذلك كان حديث فايتسمان مع الرئيس السادات سهلا . وكان التفاهم يسيرا وقد أغضب ذلك بيجين أيضا .

وخلال ساعات طويلة جلس فيها الرئيس السادات مع فايتسمان فى جزيرة السلام تحت الأشجار فى مدينة الأشجار فى مدينة الإسماعيلية التى يجد عندها الرئيس السادات كل إنجازاته تتحرك أمامه . . فالجزيرة نفسها كانت فى لون الحديد الصدئ بسبب قذائف الحرب . . فأصبحت خضراء ، والقناة كانت مسدودة فانفتحت . وأمامه على الجانب الآخر كانت «النقطة» التى أصابت عبد المنعم رياض والتى هدمت مدينة الإسماعيلية . .

وفى إحدى المرات أشار الرئيس السادات إلى فايتسمان وهو يقول : إن خط بارليف قد اختفى . . وهذه الكراكات اليابانية تفتح فرعا جديدا لقناة السويس مكانه . . وسأله الرئيس فى إحدى المرات : فى كم من الوقت جئت من إسرائيل إلى هنا ؟! .

قال : ساعة .

هز السادات رأسه ليقول له : عندما نفرغ من الأنفاق تحت القناة فسوف نذهب إلى عمق سيناء فى عشرين دقيقة وعند إبرام السلام يمكن أن تختصر الساعة إلى ثلث ساعة .

إلى مثل هذه المجالات العالية عن السياسة والمجردة من خصومات الحرب وتراكمات المرارة ، كان الحديث يأخذهما إلى الكلام عن المستقبل . .

وفى نفس الوقت كانت تتضاعف مرارة بيجين ، وحقد ديان على هذه المودة بين الرئيس السادات وفايتسمان .

وقد حاول فايتسمان نفسه أن يستأذن فى مجىء ديان معه . واعتذر الرئيس السادات ، وحاول ديان عن طريق الرئيس شاوشيسكو . واعتذر الرئيس السادات . ثم حاول عن طريق الرئيس كارتر فاعتذر الرئيس السادات . وحجة الرئيس السادات هى : أن ديان لا يعنى مايقول . وأنه أمام الميكروفون سوف ينسى كل ما وعد به .

وكان قد وعد فى بوخارست باستعداده لأن يعلن عن مبادئ الحل الشامل إذا وافق الرئيس السادات على لقائه فى القاهرة ! .

ثم أعلن الرئيس السادات أنه لن يلتقى بمناحم بيجين إلا إذا كانت عناصر جديدة فى الحوار تبرر مثل هذا اللقاء ! .

* * *

وفجأة ، مرة أخرى أعلن بيجين أنه يرفض المشروع المصرى المقدم من الرئيس السادات إلى إسرائيل عن طريق فايتسمان ، وهو أن تنسحب إسرائيل من العريش ، إثباتا لحسن نيتها ، واستجابة رمزية لمبادرة السلام .

والحقيقة أن مصر لم تقدم مشروعا إلى إسرائيل ، فقد كان هناك مشروع معروض فى قلعة ليدز فى ضواحى لندن من وزير الخارجية المصرى على وزيرى خارجية أمريكا وإسرائيل .

أما زيارة فايتسمان للرئيس السادات فى سالزبورج فقد كانت «زيارة شخصية» .

وحقيقة ماحدث هو أن الرئيس السادات قد أعلن لمونديل نائب رئيس الجمهورية الأمريكية فى ذلك الوقت عندما عرض مبادرة الرئيس الأمريكى بالاجتماع فى لندن ، عندما التقى به فى الإسكندرية . أنه يقترح أن يلتقى الطرفان مرة فى العريش ومرة أخرى فى بير سبع . . أى مرة على الأرض المصرية ، ومرة على أرض إسرائيل . والموقعان قريبان من الجانبين . . وسبقت مجلة «أكتوبر» بهذا النبأ كل صحف العالم .

وفى سالزبورج دار الحديث الودى طويلا بين وزير الدفاع الإسرائيلى وبين الرئيس السادات .

قال الرئيس السادات : مادمت سوف تنسحبون فى غزة اليوم أو غدا ، فلماذا لا تكون هذه بادرة منكم تدل على حسن النية . ويكون الانسحاب من العريش وماحولها بطول رأس محمد استجابة رمزية لمبادرة السلام . . فتنسحب القوات الإسرائيلية من العريش ويجىء بدلا منها مدنيون مصريون .

وأعلن فايتسمان أنه سوف يطلع مناحم بيجين على ذلك .

ولما عاد فايتسمان أطلع بيجين على هذه الفكرة ، ولكن بيجين أجل النظر فى ذلك إلى ما بعد لقاء ليدز . . الذى انتهى بأن أعلن ديان : أن الأرض هى السلام وأنه لن يتخلى عن الأرض . .

وفى نفس الوقت أعلن بيجين : أنه لن يعطى العريش بلا مقابل ، وأنه لا شىء بغير ثمن ! والعريش هذه قد احتلها اليهود فى سنة ١٩٥٦ . ثم أدارتها الأمم المتحدة بعد خمسة وسبعين يوما . واعترض بيجين على دخول الأمم المتحدة ، وكان وقتها زعيما للمعارضة ، ثم استولى عليها اليهود فى حرب ١٩٦٧ . .

ثم عاد بيجين فاعترض مرة أخرى على خروج اليهود منها بلا ثمن ! .

ثم مضى الرئيس السادات متبسطا مع فايتسمان يقول له : إننى أعلنت قبل ذلك أنى سوف أبنى على جبل موسى مسجدا للمسلمين وكنيسة للمسيحيين ومعبدا لليهود تكون جدرانها متلاصقة . وفيها يصلى معا كل المؤمنين بالأديان السماوية الثلاثة ، وهذه المنطقة هى التى قال عنها القرآن الكريم «بالوادى المقدس طوى» . وهنا كلم اللّه موسى . . كما تعرفون . .

قال الرئيس السادات : إننى صليت عيد الأضحى فى المسجد الأقصى . وهو العيد الذى كان يضحى فيه أبونا وأبوكم إبراهيم عليه السلام بولده . امتحانا من اللّه لطاعة إبراهيم وصبره ، والقرآن الكريم يقول : ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ . . لماذا لا نصلى العيد كل عام فى هذه المنطقة من أرض سيناء المقدسة . . ويكون ذلك عادة سنوية وقد أطلعت البابا بولس السادس على ذلك . . ودعوته . وفى ذلك اليوم سوف أجمع شيخ الأزهر وبابا الإسكندرية والحاخامين الشرقى والغربى فى تل أبيب . كلهم فى صلاة واحدة فى مكان واحد . .

وهنا أحس فايتسمان أن الرئيس السادات قد اجتاز به الحاضر وعاد به إلى الماضى ثم أخذه إلى مستقبل بلا أحقاد ولا ضغائن ولا حروب . . إنما سلام فى سلام .

وقبل أن يفيق فايتسمان من هذا الحلم قال له الرئيس السادات : افرض أننى ركبت سيارتى وورائى مؤمنون بالأديان الثلاثة واتجهت إلى حيث كان يقف موسى . . فهل تطلقون علينا الرصاص؟ . . سأضعكم أمام الأمر الواقع . . ولن أتوقف . .

وقال فايتسمان : طبعا لن يطلق أحد الرصاص . ولكن سوف أنقل هذه الصورة الدينية الإنسانية السلامية الباهرة إلى بيجين .

* * *

ولكن الرئيس السادات رأى فى القرار الذى أعلنه بيجين فى القدس وديان فى لندن فى وقت واحد : نقطة تحول خطيرة فى مسار أحاديث السلام بين مصر وإسرائيل ! .

وعاد فايتسمان إلى بيجين . وعاد بيجين إلى موقفه المتصلب العنيد يطالب بأن يكون هناك مقابل لانسحابه من أرض الغير على طريقة «الحلوان» التى حكى عنها الرئيس فى جامعة الإسكندرية .

ونحن نوافقه على المقابل . والمقابل هو السلام والاعتراف وحسن الجوار وتطبيع العلاقات .

أما إذا تصور بيجين أننا يجب أن نعطيه أرضنا من أجل سلامه وسلامته فذلك كله مرفوض ، وعليه ابتداء من اليوم أن يحمل تبعة ماقال وما يقول .

ويجب أن يعدل بيجين تماماً عن الهلوسة الصهيونية التى تطالب بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، وعن أن مدينة «عمان» لاتزال فى أرض الأعداء . . وأن «الكعبة» قد بناها من أجلهم أبوهم إبراهيم . . وأن لهم فى «المدينة المنورة» أحياء كاملة . .

وبيجين هو الذى أعلن بعد العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ : أن الوطن اليهودى يجب أن يشمل ضفتى نهر الأردن لأنه وحدة تاريخية وجغرافية . وأن تقسيم هذا الوطن عمل غير مشروع . وواجب هذا الجيل أن يعيد الأرض التى فى حوزة الغير ، إلى إسرائيل الأم . . إسرائيل الكبرى !! .

وأعلن بيجين فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ : إننى أؤيد غزو مصر من كل قلبى . . وأن بن جوريون يستحق عظيم الاحترام لأنه اتخذ القرار . وبعد ذلك لابد من السلام مع مصر . . السلام . . السلام . . السلام ، دون أن نجلس مع جمال عبد الناصر .

أى أنه يريد أن يتقدم بالتسوية بعد غزو مصر ، وبعد إسقاط جمال عبد الناصر أيضا ! .

أى بشروط إسرائيل وسطوتها ! .

وعاد مناحم بيجين فى المؤتمر الرابع الذى انعقد فى تل أبيب فى ذلك الوقت وأعلن لحزبه «حيروت» أنه قد آن الأوان لكى يتولى السلطة هو وزملاؤه من تلامذة الزعيم الثورى جابوتنسكى . .

وكان الحاخام نسيم ، زعيم اليهود الشرقيين حاضرا . فوقف والتفت إلى الجميع وإلى بيجين وقال : إننى أرى فيك وأسمع منك وأشم رائحة الأنبياء ! .

وعلى اليهود الشرقيين والغربيين الذين شاركوا فى العدوان علينا سنة ١٩٥٦ واحتلوا أرضنا سنة ١٩٦٧ ، وانسحبوا وانكسروا أمامنا سنة ١٩٧٣ ورحبوا وبكوا

فرحا عند زيارة السادات للقدس ، أن ينظروا إلى رجلهم مناحم بيجين ، وأن يدلونا ويدلوا أنفسهم أيضا : من هذا الذى نراه الآن . . أهو الإرهابى القديم الخارج من سجون روسيا المطالب بإسرائيل الكبرى . . هل هو رجلهم المريض الذى يطالب بالسلام ويراوغ فى كل ما يقول وما يفعل ؟ .

عليهم أن يلفتوا نظره وسمعه وعقله وقلبه إلى الذين كانوا رفاق سلاحه . . لقد تغيرت آراؤهم وانتقلوا إلى خصومته وعداوته وأصبحوا أكثر مرونة وواقعية وأصدق فى دعواهم للسلام . .

وعلى الشعب اليهودى فى إسرائيل وخارجها . أن يستحضر ما كان يقوله بيجين بالأمس وما عاد إليه اليوم مستهيناً بالتاريخ وضربات القدر . . وعليهم أن يتساءلوا : هل من حقه أن يريق دماءهم لا لشىء إلا لأنه قد عاش إلى ما بعد عصره . . أو أنه عاش أكثر مما ينبغى . . أو أنه توقف بالزمن عند عدوان سنة ١٩٥٦ . .

وبعد ذلك على بيجين أن يواجه أعضاء الكنيست وزملاءه من الوزراء الذين يرون فى كلامه وحركاته بداية سقوطه النهائى ، فقد اشتد عليه مرض السكر ومرض القلب ، ولم يدفع هذان المرضان إلى التآمر عليه أحداً من إسرائيل ، أو من يهود أمريكا أو من العالم الثالث أو الدولية الاشتراكية . .

ومرض رئيس الوزراء ليس مشكلة عائلية أو شخصية . . وإنما هو مشكلة قومية . لأن قدراته وتصوراته التى تسبق قراراته هى أعمال مصيرية . . فضربات قلبه هى ضربات القدر ، والسكر الذى فى دمه مرارة على شفتيه .

والمهم أن يكون قادرا على القرار . والقرار هو السلام ، وليس من حقه أن ينفرد بذلك . . ولن يسكت عنه : المعارضون وخصومه ووزراؤه وشعبه ومرضه . . ومصر أيضاً ! .

* * *

الشعب الأمريكى
ما الذى يدفعه لإسرائيل ولماذا؟

قبل مبادرة الرئيس السادات بخمسين عاما تماما ، أعلن حاييم فايتسمان فى رومانيا . وهو أول رئيس لإسرائيل وعم وزير الدفاع الحالى : أن وعد بلفور كان مفاجأة تامة . وأن اليهود لم يستعدوا لمثل هذا القرار ، فهو وعد فى الهواء ، ولكن يجب أن نعمل له بسرعة ، وألا نضيع الوقت وأن ننزل بالوعد من الهواء إلى الأرض ، فإذا نزلنا إلى الأرض ، وكانت لنا الأرض . . تحقق لنا السلام ! .

وكان وعد بلفور وعدا بالأرض . .

أما المفاجأة الثانية فى تاريخ إسرائيل فهى مبادرة السادات : فقد كانت وعدا بالسلام . لأن الأرض التى استولى عليها اليهود لم تحقق لهم السلام ! .

* * *

وفى سنة ١٩٢٨ أعلن العالم الكبير . ألبرت أينشتين الذى رفض أن يكون رئيسا لإسرائيل : «أن مرض العصر هو القومية المتطرفة . التى تولدت من الكراهية العمياء إننى أفضل اتفاقا معقولا بين العرب واليهود وتعايشا سلميا ، على أن تقوم دولة يهودية . لأن جوهر «الديانة اليهودية» يتنافى مع قيام الدولة التى تكون لها حدود ويكون لها جيش مثل هذه الدولة . إذا قامت فسوف تكون هدفا معروفا محددا لأعدائها من العرب . ثم إن الدنيا تغيرت ، فليس يهود العالم اليوم هم يهود ألف سنة مضت . . إن قيام الدولة فى ذاته تحطيم الجوهر الديانة وما نادى به الأنبياء » .

وقبل ذلك بعشرين عاما ذهب يهود أمريكا يطلبون من الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون ألا تكون لليهود دولة فى فلسطين . . فاليهود يجب أن يكونوا فى العالم كله . وأن يوطنوا أنفسهم على الحياة بين الشعوب . وبذلك لايكونوا غرباء ، وهذه هى «عالمية الديانة اليهودية» وهذا هو دورهم المقدس فى التاريخ . أما أن تكون لهم دولة ويكون لهم وطن فهذا يحطمهم ويجمع عليهم الأعداء . . ولذلك فأرض المعاد التى جاءت فى التوراة . يجب أن تكون «أرض المعاد» لكل الديانات ! .

ولكن الرئيس فايتسمان كان يطلب الأرض أولا . وبعدها الدولة . ثم على الأجيال التالية أن تحمى نفسها ضد الأعداء . .

غير أن يهوداً آخرين كثيرين كانوا يرون ألا مبرر للدمار والحروب . وأنه أفضل لليهود أن يكونوا فى كل بلاد العالم مواطنين من الدرجة الأولى . وليسوا غرباء . وألا يكونوا «مزدوجى» الولاء : لإسرائيل أولا ولأية دولة أخرى ثانيا . . إنهم يفضلون ألا يكون لهم وطن . .

أما بن جوريون ففى كتابه «ميلاد جديد لإسرائيل ومصيرها» وقبل قيام الدولة بعشر سنوات فيقول : «هناك مليون عربى فى فلسطين ، يرون أنهم أبناء شرعيون لهذه الأرض . أردنا ذلك أو لم نرد . ولكن أرادوا هم أيضا أو لم يريدوا ، فهذه الأرض هى إسرائيل القديمة . وسوف تكون بيننا وبين العرب حروب طويلة . وهؤلاء العرب ليسوا فى حاجة إلى أن يشتروا أرضا . . فالأرض موجودة وليسوا فى حاجة إلى أن يستوردوا شعبا . . فشعبهم موجود ، وكل ما يريده العرب هو أن تكون لهم حكومة ، إن الحكومة هى ما يريدون ، وسوف يحاربون من أجل ذلك . أما نحن فسوف نحارب مرات كثيرة من أجل أن يكون وجودنا مشروعا ونهائيا على هذه الأرض» .

ومناحم بيجين هو كل هذه الآراء معا مضافا إليها : الكثير من المغالطات والاستعداد للحرب والدم ، والتظاهر بكل ماليس كذلك .

فهو يرى أن الأرض المحتلة هى أرض إسرائيل . كان الانتداب البريطانى وصيا عليها ثم جاءت حرب ١٩٤٨ فاستولت الأردن على جزء ومصر على جزء . ولما قامت حرب ١٩٦٧ استردت إسرائيل أرضها المقدسة ! .

وفى نفس الوقت فإن مناحم بيجين يريد ألا تكون هناك خريطة أو حدود مفتوحة من النيل إلى الفرات . .

وإنه سوف يحارب حتى لا تكون لفلسطين دولة . . أو لا تكون لها حكومة فإذا كانت حكومة فلسطين فسوف تعلن الحرب على يهود إسرائيل ويهود المستعمرات فى الأرض الفلسطينية ، وهذا ما يستخدمه بيجين ليخيف اليهود فى إسرائيل . ولذلك أعطوه ٧٠ صوتا ضد ٣٥ صوتا . فقد أقنعهم بيجين أن الطوفان سوف يجىء من بعده ، وأنه هو «نوح» الجديد الذى يجب أن تركب كل إسرائيل سفينته ، وإلا أغرقهم طوفان المبادرة التى اكتسحت الرأى العام العالمى والرأى العام اليهودى أيضا ! .

إذن فلقد كانت فى تاريخ إسرائيل مفاجأتان :

الأولى : وعد بلفور . . كما اعترف الرئيس فايتسمان بذلك .

والثانية : مبادرة الرئيس السادات .

ولكن الرئيس فيتسمان استقبل المفاجأة وانتقل من مجرد الحلم إلى الواقع ، وأقام لوعد بلفور شعبا وأرضا وجيشا . .

أما مبادرة السلام ، فإن بيجين لم يكن مستعدا لها ، ولايزال مكابرا مغالطا يتظاهر بالسلام وهو لايريده . يتظاهر بالمرونة وهو فى غاية التصلب . . ومن أكثر الأدلة على تصلبه ما قرره مجلس الوزراء الإسرائيلى من أن العريش لن تكون هدية! . .

أى لن تكون العريش ، ولاذرة رمل من سيناء ، بلا مقابل ! .

كان ذلك قرار مجلس الوزراء . ثم أعلنه بيجين ، وعاد فبعث به فى رسالة للرئيس السادات ، ورفض الرئيس السادات تسلم هذه الرسالة ، وأعيدت مغلقة إلى أمريكا لتردها إلى إسرائيل . .

ثم بعث بيجين باعتذار للرئيس السادات عن طريق ألفريد أثرتون ، وقال فى اعتذاره : إننى لم أقصد أية إساءة إلى شخص الرئيس السادات ! . .

بل إنه لم يقصد الاعتذار ، وإنما قصد الإساءة .

وكانت المفاجأة الأخرى : أن الرئيس السادات قد أعلن رفض الاقتراح باجتماع ثلاثى فى إحدى محطات الإنذار المبكر فى سيناء ، وكان يجين قد أعلن قبل ذلك أنه تم الاتفاق على لقاء ثلاثى بين وزراء خارجية أمريكا ومصر وإسرائيل ، وحدد بيجين موعدا لذلك . .

مع أن شيئا من ذلك لم يكن قد اتفق عليه . وبالتالى لم يتحدد له مكان أو موعد وأعلن الرئيس السادات أن أى لقاء مرفوض الآن . ثم إنه لا لقاء على أرض سيناء ! .

والمشتغلون بالتفسير الطبى لسلوك بيجين قد سجلوا انحدارا عنيفا فى سلوكه النفسى والعقلى ، وامتقاعا فى لونه . . لدرجة أنه فى إحدى الجلسات للكنيست قد نبهه بعض الأعضاء إلى ضرورة أن يضع يده فى جيبه لتناول الحبوب الضرورية ، وقد حدث نفس الشىء قبل أن يلقى الرئيس السادات خطابه فى الكنيست . إذ كانت زوجته أليزا بيجين تجلس فى شرفة كبار الزوار . فأشارت إلى

أريل شارون ، فلما استوضحها شارون طلبت منه أن ينبه بيجين ، فلما انتبه بيجين ونظر إليها . . وضعت يدها على فمها بما يدل على أنه يجب أن يتعاطى بعض الحبوب ، وقد فعل . وهناك الآن فى الكنيست من يتولى تنبيه بيجين إلى ذلك رغم ما تؤكده المعارضة من أن حالته الصحية قد ازدادت سوءا . وذلك بسبب اشتداد السكر عليه وإصابته بالذبحة ثلاث مرات واحتمال أن يصاب بمرض بيرجر الذى يؤدى إلى عجزه عن الحركة تماماً ، بل إن بعضهم يشبه بيجين بما أصاب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى أواخر سنة ١٩٧٠ .

وما فعله بيجين فى الكنيست بيديه مع تفوهه بكلمة نابية جداً . لم يشأ أن ينطقها بالعربية ولكن نطقها بالروسية ، دليل على جنونه المتصلب ، أو تصلبه الجنونى .

ويوم رفع خروشوف حذاءه فى الأمم المتحدة قال العالم : جليطة على أعلى المستويات . . فما الذى سوف يقوله العالم عن بيجين؟ .

ثم لم يكن معقولا أن نجلس مع إسرائيل . فى ظل هذا القرار ، وإلا كان ذلك تسليما بمعناه ، وفى نفس الوقت سوف تستدرجنا إسرائيل ومعنا الأمريكان أيضا إلى موقف يجعل الانسحاب من هذا اللقاء ضروريا . وهناك ينفخ بيجين فى أبواق الدعاية قائلا : إننا نلتقى بالمصريين ولكنهم متشددون ! .

مع أن موقف بيجين لم يتغير ، فهو يريد الأرض والسلام معا .

ويرى بيجن أن المعارضة الإسرائيلية التى تختلف معه فى الكنيست وخارجه ، قد حاولت مع الرئيس السادات إسقاطه ــ وهذه المحاولة مقبولة من المعارضة ولكن أن يحاول الرئيس السادات ذلك . فهو تدخل فى صميم شئون إسرائيل إلى آخر مايثيره فى كل أجهزة الإعلام ! .

* * *

وجاء قرار الرئيس السادات برفض أى لقاء ثلاثى على سيناء ، نتيجة لمعاناة طويلة فى اللقاءات والمفاوضات والمراوغات الإسرائيلية وكان هذا القرار منطقيا بعد الذى أعلنه موشى ديان فى ليدز . وما أعلنه بيجين فى القدس : من أنه لا نزول عن الأرض لأى سبب . .

بل إن ديان قد انكشف تماما عندما صور الموقف العربى قائلا : إن الرئيس

السادات يريد السلام فى الضفة الغربية وغزة لأن المشكلة الفلسطينية هى الجوهر . ولكن فى المفاوضات يجب أن يجلس معه الملك حسين ، والملك حسين لا يستطيع أن يذهب للمفاوضات دون الرئيس الأسد ، والرئيس الأسد لن يجيء بغير منظمة التحرير وبغير السوفيت . فما الذى يمكن عمله مع مصر ؟ . . إننا صوت واحد فى إسرائيل ، ولكنهم كثيرون ومختلفون ! .

ومعنى ذلك أن إسرائيل حريصة على أن تقع الخلافات بين العرب . وفى نفس الوقت لا تريد أن تفاوض مصر ، وإن كانت تتظاهر بعكس ذلك . وعندما تتفاوض فهى تعلن فى كل مرة : أنه لا فائدة من المفاوضات ولا نتائج ، ولكن لامانع من أن نلتقى فى أى مكان فى سيناء ، أو فى إسرائيل أو فى أوروبا ؟! .

وقد أسيء فهم قرار الرئيس السادات ، حتى من جانب الأمريكان ومن جانب أشقائنا العرب ، فقد ربطوا بين هذا القرار الذى أعلنه الرئيس السادات ، وبين زيارة الأمير فهد ولى عهد المملكة السعودية ، مع أنه لا صلة مطلقا بين هذه الزيارة وهذا القرار ! .

أما سبب ذلك فهو أن بعض المشتغلين بالتحليل السياسى يتوهمون أن مصر لا تستطيع أن تتخذ قراراً دون ضغط خارجى . ودون «ولاية» أو «وصاية أحد» . . مع أن هناك قرارات كثيرة وخطيرة قد اتخذها السادات وكانت مفاجأة لأقرب الأشقاء والأصدقاء . . ولكنها فكرة «التبعية» و «عقدة النقص» وروح «الانهزامية» هى التى تملأ رءوسهم وتلوى أقلامهم . . كانت ولاتزال ! .

وقد حدث نفس سوء الفهم قبل ذلك عندما أصدر الرئيس السادات قراره التاريخى بطرد الخبراء السوفيت ـ وهو أخطر قرار فى تاريخ مصر وفى حياة الرئيس السادات ! .

فقد جاء الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع السعودى إلى مصر . وكانت زيارته لمصر بناء على طلب الرئيس السادات ، فقد ذهب الأمير سلطان إلى أمريكا يطلب مزيدا من الأسلحة ، والتقى بالرئيس الأمريكى ووزير الخارجية ووزير الدفاع ، وطلب الرئيس السادات أن يتوقف الأمير سلطان فى طريق عودته إلى الرياض ليعرف منه آخر الأخبار والتطورات السياسية فى أمريكا ، وعرف الرئيس السادات من الأمير سلطان . . أن الجو العام سيئ جدا ، وأنه ليس هناك أسوأ من ذلك ! .

وقال هواة التحليل وأدعياء العلم بالأمور وبواطنها وصناعة السياسة والقرار فى مصر : إن الرئيس الأمريكى قد بعث برسالة خاصة للرئيس السادات ، وبعد أن قرأ الرئيس السادات هذه الرسالة طرد الخبراء السوفيت ؟! .

بل حدث أن التقى الرئيس بعد صدور القرار بدكتور كيسنجر وزير خارجية أمريكا الأسبق . فقال له كيسنجر : لو أنت أطلعتنى على هذا القرار لكنا رتبنا أمورا كثيرة .

وقال الرئيس السادات : كيف؟ إن علاقتنا بكم كانت مقطوعة ، ثم إن السوفيت لايزالون رغم ذلك أصدقاء ، وأهم من ذلك أن قرارى مصرى ، وأنا لا أشرك أجنبيا فى قراراتنا المصرية الصميمة ! .

بل إن الرئيس السادات قد أعلن فى المؤتمر القومى «٢٦ فبراير سنة ١٩٧٢» :

أن الاتحاد السوفيتى هو الطرف المناصر لنا فى الشرق الأوسط ، وأن هزيمة أمريكا فى فيتنام سوف تجعلها مستعدة لأن تندفع بشكل أكثر حماقة فى منطقة أخرى . وبعد هزيمتها فى المحيط الهندى . فقد حصلت على قاعدة فى ميناء بيريه باليونان ، وهى تحاول إسقاط الأسقف مكاريوس لتكون لها قاعدة فى قبرص ، إن أمريكا تفعل هذا كله ضدنا وضد الاتحاد السوفيتى .

وقال أيضا : إن الصداقة السوفيتية العربية قاعدة من أصلب القواعد ، يتحتم أن نخوض نضالنا من فوقها . .

إلى هذه الدرجة كانت العلاقات سيئة جدا مع أمريكا . . ولم تكن علاقتنا بالسوفيت أحسن حالا . رغم حرصنا على الاحتفاظ بواجهة باسمة لهذه العلاقات ، فقد أضاعوا علينا سنة الحسم دون مساعدة مادية . وفى نفس الوقت أعلن روجرز أن أمريكا سوف تساعد إسرائيل لتجعلها أقوى من كل الدول العربية مجتمعة .

ولم تعلم السعودية ولا أية دولة شقيقة ، لابقرار طرد الخبراء السوفيت ولا بقرار آخر هو حرب أكتوبر . . إلا الرئيس حافظ الأسد . فقد كان يعلم ساعة الصفر ، وقد اتفق الرئيسان السادات والأسد على أن يطلعا السوفيت قبل الحرب بيومين فقط .

وقد مر الرئيس بأزمة نفسية عنيفة ، عندما عرف الموقف الأمريكى من الأمير سلطان . وعندما تأكد من أن الروس سوف يخذلونه مرة أخرى ، ولذلك قرر أن يفعل شيئا هاما وخطيرا ، قبل أن يلتقى بالسفير السوفيتى الذى ألح فى طلب مقابلته لينقل إليه رسالة من القادة السوفيت ، ولم يتخفف الرئيس السادات من وطأة هذه المحنة النفسية إلا عندما ذهب إلى بيت د . محمود فوزى ، وكان أول من أطلعه على قراره . ووافقه د . فوزى . ثم أنه طلب إليه ألا يقطع «الخيط» مع السوفيت ، وقال له : يحسن أن تدعوهم بمقتضى المعاهدة إلى بيتنا إلى لقاء وإلى وقفة مع الصديق ! .

* * *

وتكررت اجتهادات المعلقين والمحللين ، بعد أن اتخذ الرئيس السادات قرار، برفض أى لقاء ثلاثى على أرض سيناء أو فى أى مكان آخر ، لأن إسرائيل قد ارتفعت بحدة الموقف إلى درجة رهيبة ليس بعدها إلا الحرب . أو هى الحرب . فبعد كل هذا العناء وتأكيد كل ضمانات السلام وحسن الجوار «وتطبيع» العلاقات ، نفاجأ بأن إسرائيل لاتزال على موقفها . .

وعاد المحللون يقولون : إن الأمير فهد له دخل فى هذا الموقف الذى اتخذه الرئيس السادات . . والحقيقة شىء آخر . .

فقد بعث الرئيس السادات إلى جلالة الملك خالد برسالة يقول فيها : «جلالة الأخ . . لقد قابل سمو الأمير فهد ولى العهد كلا من الرئيس ديستان والمستشار شميت وجلالة الملك الحسن ، وهم جميعا أصدقاء . وتربطنا بهم علاقات أمينة ومتينة ، ولذلك يسرنى أن يتوقف الأمير فهد بالإسكندرية يوما أو يومين . . وهو فى طريق عودته إلى الرياض ، لنتحدث معاً فى أمور كثيرة ، ولأعرف منه آخر تطورات الموقف العالمى» .

وجاءت برقية من الملك خالد تقول : إن الأمير فهد سوف يتوقف يوم السبت ويخرج من مصر إلى سوريا . .

ثم جاءت برقية ثانية من الملك خالد بتأجيل موعد وصول ولى العهد إلى يوم الأحد .

ووصل إلى الإسكندرية الأمير فهد ولى العهد ومعه الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية والأمير سلمان أمير الرياض . .

والتقى الرئيس السادات بالأمير فهد مرتين ولعدة ساعات . .

وكان جلالة الملك خالد قد أرسل إلى الرئيس السادات ورقة تضمنت عرضا دقيقا لما دار بين وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل وألفريد أثرتون فى الرياض ، وقد أعجب الرئيس السادات بهذه الورقة ورأى فيها براعة الجيل الجديد من الساسة السعوديين ، وأدهشه أنه . دون اتفاق بين مصر والسعودية . قد تطابقت وجهات النظر المصرية والسعودية ! .

بل إن الرئيس السادات قد قرأ هذه الورقة وهو فى فراشه قبل أن يصل الوفد السعودى بساعات . .

ثم إن الرئيس قد أمر بتوزيع هذه الورقة على أعضاء مجلس الأمن القومى .

وهذا الاتفاق فى وجهات النظر ، هو الذى جعل الرئيس السادات يعلن فى مؤتمره الصحفى أن هناك تطابقا تاما فى وجهات النظر ، قبل وبعد زيارة الأمير فهد . .

ولكن فى نفس الوقت هناك قرارات وطنية لا أحد يستشير فيها أحدا ، فالسعودية عندما تقرر رفع سعر البترول أو خفضه أو تثبيته ، فإنها لا تستشير مصر ، وليس من الضرورى أن تفعل ذلك . .

ولا يعنى هذا أنه لا توجد مشاورات واتصالات حول أمور كثيرة . بل إن الاتصالات والمشاورات وتبادل المعلومات ووجهات النظر ، لم تتوقف ولن تتوقف .

ثم إن حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية عندما زار السعودية ، قد أطلع الملك خالد والأمير فهد ولى العهد على تفاصيل المشروع المصرى الذى قدمته مصر لأمريكا .

ووزير خارجيتنا محمد إبراهيم كامل فى ذلك الوقت ، عندما قام بأول مهمة له خارج مصر ، زار المملكة السعودية وبقى فيها يومين . .

ولكن لقاء الرئيس السادات والأمير فهد كان ضروريا لأسباب أخرى عديدة : فهناك قضايا كثيرة يجب الاقتراب منها وفهمها والاتفاق عليها ، مثل قضية اليمن الجنوبية ــ على حدود السعودية . وهناك قضية الصومال والسودان فى مواجهة السعودية وجنوب مصر ، وهناك التحركات السوفيتية فى أفريقيا ، وهناك الموقف العربى بكل أبعاده .

ومع ذلك عندما تقدم التليفزيون المصرى يطلب تعليقا من الأمير فهد . نظر الرئيس السادات إلى الأمير فهد ، وفى لحظة واحدة قال الاثنان : لا داعى ، فكل شىء معروف ومتفق عليه . . وعليكم أن تخمنوا الباقى ! .

* * *

أما بعد ذلك وقبل ذلك فينبغى على مجلس الأمن القومى أن يدرس الموقف ، عندما ينتهى وجود قوات الطوارئ الدولية ، فوجودها قد استنفد المدة القانونية المقررة . . وهى ثلاث سنوات ، كما يقضى اتفاقنا مع أمريكا . .

وعلينابعد ذلك أن ننظر فى اتفاقية فض الاشتباك ، التى تنص على أنها تتجدد من تلقاء نفسها ، مالم نعقد اتفاقية أخرى جديدة ــ وهو كلام يمكن الاجتهاد فى تفسيره لحسابنا ولحساب الطرف الآخر . .

وأهم من هذا كله . . على أمريكا أن تدخل طرفا ، لا مجرد حكم فى مباراة الملاكمة التى يريد أن يفوز فيها بيجين بالنقط ، بعد أن أصيب بالضربة القاضية فى مبادرة السلام . .

بل إن أمريكا يجب أن يكون موقفها أكثر وضوحا ، هل هى تحمى إسرائيل أو تحمى التوسع الإسرائيلى ؟ .

هل هى تحمى إسرائيل فى حدود ١٩٦٧ أو تحمى ادعاءات مناحم بيجين بأرض المعاد إضافة مزيد من الأرض إلى الأرض المسروقة باسم الأمن الإسرائيلى ؟ ! .

مع أن الرجل الذى أقام خط بارليف وهو أحد أقطاب المعارضة ، قد أعلن أنه لاتوجد حدود آمنة من العدوان . . إنما توجد حدود معقولة ــ أى أن بيجين ليس معقولا ولا منطقيا عندما يطالب بالأمن بلا حدود . . أى أن أمن إسرائيل هو ألا تكون لها حدود ! .

ثم إن أمريكا يجب أن تواجه إسرائيل ، يجب على فانس أن يسأل بيجين علنا :

بالضبط ماذا يريد؟ . . هل تريد السلام حقا؟ . . قل ذلك . وقل لنا وللسادات وللعالم كيف ؟ .

وعلى الشعب الأمريكى ، دافع الضرائب ، أن يعرف حجم المعونات الأمريكية لإسرائيل . . المعونات العلنية والسرية . . فإذا عرف ذلك فمن واجبه أن يتساءل أيضا : كل هذه الفلوس وكل هذه الأسلحة من أجل السلام أو ادعاء السلام أو الاستعداد للحرب أو لحرب الاستنزاف ضد مبادرة السلام ؟ ! .

إن أمريكا لم تقدم بالدور المطلوب منها بعد . . إن أحداً لايطلب من أمريكا ذلك ، إنما هى الأخلاق الدولية وتأكيدها للسلام وحرصها على مصالحها فى الشرق الأوسط . . وحتى لايكون البحر الأحمر والأبيض والأسود : أحمر اللون والعقيدة ، فعلا لا قولا ! .

لقاء القمة ليس بين دافيد .. و .. جليات

معنى التصريحات التى تخرج من عواصم دول القمة الثلاثية : أن أحدا لن يغيرموقفه ، وأنه لا يقبل ضغطا من أى طرف ، وأنه يفضل أن يعود من حيث جاء على أن يوقع ورقة واحدة تحت أى تهديد ، وفى نفس الوقت فإن كل طرف يؤكد أن صالح الطرف الآخر أو الطرفين الآخرين هو أن يتحقق سلام فى الشرق الأوسط ، وفى ذلك ضمان للمصالح المشتركة . وأمان من الخطر الشيوعى الذى يهدد الجميع .

والتصريحات الإسرائيلية تؤكد التشدد وتستفز أمريكا ومصر وتستدرجها للتعليق على ذلك ، ويكون التعليق لغما عائما ينسف المؤتمر أو يقطع الطريق إليه . ورغم الواجهة المتحدة لإسرائيل فإن الخلافات شديدة فى داخل الوزارة وفى المجتمع الإسرائيلى والرأى العام اليهودى ، واللوم كله يقع على مناحم بيجين ، إن هو أضاع هذه الفرصة الأخيرة ، بعد أن أضاع الفرصة الأولى الباهرة فى القدس وفى الإسماعيلية وفى قلعة ليدز بعد ذلك . .

وقد عاد بيجين إلى نفس الحيلة القديمة . . وهى أن يثير قضية المستعمرات الإسرائيلية مرة أخرى ، تماما كما أثارها بعد المبادرة . لعلها تشغل الناس عن القضية الأساسية وهى السلام الشامل ، والغرض من إثارة هذه القضية هو كسب عطف الرأى العام اليهودى ، مع أن قضية المستعمرات هى قضية جزئية ، فالأصل هو الانسحاب من الأرض المحتلة ، سواء كان الذى يحتله جنديا حافى القدمين أوكان يطل من ڤيللا يملكها فوق أرض لا يملكها ! .

وكما حدث قبل ذلك أيام الرئيس فورد ووزيره كيسنجر أن اضطرت أمريكا إلى التهديد «بإعادة النظر» فى العلاقات التقليدية بين أمريكا وإسرائيل . . فسوف يجد كارتر نفسه أمام هذا الموقف الصعب ، ولكنه ضرورى أيضا ، وإن كان كارتر قد أعلن رأياً صريحاً فى كل القضايا العربية . . بما يختلف عن إسرائيل كثيرا كما أنه اتخذ

قرار صفقة الأسلحة لمصر والسعودية وإسرائيل ، واتخذ قرار سحب القوات الإسرائيلية من لبنان ، واتخذ قرار «الشريك الكامل» فى قضية السلام فى الشرق الأوسط .

ولكنه لم يستطع أن يتخذ قرار أيزنهاور فى سحب القوات الإسرائيلية بعد العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ . . ولم يتخذ قرار فورد «بضرورة إعادة تقويم الموقف بين أمريكا وإسرائيل» . . وكانت إعادة التقويم هذه مراجعة للمعونات الاقتصادية والعسكرية وتجميد للعلاقات بين الدولتين بعض الوقت ، وكان سبب ذلك فشل كيسنجر فى إقناع إسرائيل بعقد اتفاق ثان مع مصر .

وقد علق كيسنجر على التشدد الإسرائيلى بأنه : صورة لقصر النظر ونكران الجميل! .

وتغيرت الظروف الدولية ، وشكل وحجم العلاقات الأمريكية الإسرائيلية . وتغير أشخاص المسرحية فى البلدين . .

ولكن موقف كارتر . . رغم اختلافات الظروف الدولية ، أشجع وأجرأ وأكثر مخاطرة .

وفى لقاء «المؤمنين الثلاثة» السادات وكارتر وبيجين ، سوف تكون المفردات واحدة . . والألحان مختلفة ، وإن كان هدف الجميع هو : السلام . . ولقد كشفت وزارة الخارجية الأمريكية عن جانب من الحوار الذى دار بين كيسنجر ورابين رئيس وزراء إسرائيل وآلون وزير خارجيتها وبيريز وزير دفاعها يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٧٥ ، وهذا الحوار السرى صورة مكتملة للتفكير الإسرائيلى والدبلوماسية البارعة لكيسنجر . ورغم كل محاولات كيسنجر للترهيب والترغيب وإثارة الأسى والشفقة وإظهار المودة ، فقد فشلت هذه المرحلة من الحوار بين إسرائيل وبين أذكى وأبرع دبلوماسى أمريكى فى كل العصور . . وأنا أنقل الحديث بالحرف الواحد لأهميته ودلالته ، واحتمال أن يتكرر مرة أخرى :

قال آلون : نريد أن نتفاوض من أجل اتفاق مؤقت ، ولكن ليس تحت أى ضغط من أى نوع ، ولا تحت أى إنذار من الطرف الآخر .

قال كيسنجر : لا ضغط من أحد ولا إنذار ، ومادامت إسرائيل لم تتقدم بأفكار جديدة ، فإننا لم نتلق أية أفكار جديدة من مصر . . والموقف الآن صعب ، فالعرب الذين كانوا يعتمدون علينا ، أصبحوا يتشككون فينا ، ولذلك فالأمر بدأ يفلت من أيدينا ، وسوف يؤدى بهم ذلك إلى أن يتحدوا ضدكم وضدنا ، وسوف يتشددون

أكثر ، وسوف تعود العلاقة أقوى بين سيناء والجولان ، كما أن هذا سيجعل السوفيت يقفزون إلى المنطقة ويدعمون علاقاتهم بالعرب .

ولو كانت الاتفاقية المؤقتة قد نجحت فى سنة ١٩٧١ . ما كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وسوف يتكرر نفس الموقف . . وليست لدينا خطة واضحة لما يجب أن نفعله فى المستقبل . وإن كانت خطتنا قبل ذلك قد رسمت بعناية فائقة ، أما الذى سوف يحدث ، وأما الذى يجب أن نعمله ، فأنا لا أدرى ما الذى نستطيع أن نقوم به ، ثم إن هناك ضغوطاً شديدة لاتفريق بيننا وبينكم ، والموقف هو الذى يحتم هذه الضغوط ويفرضها ، ويجب ألا نغالط أنفسنا ، بصراحة نحن فشلنا .

آلون : ولماذا لا نحاول مرة أخرى فى الأسابيع القليلة القادمة ؟ .

كيسنجر : فى الأسابيع القليلة القادمة ، سوف تتغير الظروف وتتلاحق الأحداث ولن يثق العرب فينا ، ولا تنس أننا أصبحنا ضعافاً أمام العالم كله فى فيتنام وتركيا والبرتغال . وفى أمور أخرى كثيرة . وأرجو ألا تسىء فهم ما أقول . فأنا أحلل الموقف فقط أمام جمعة من الأصدقاء ، ولا شىء يؤرقنى أنا وزملائى إلا أننا نرى صديقا لنا يدمر نفسه فى السنوات الخمس القادمة ــ تماما مثل بعض قوات الصاعقة المصريين فى سيناء سنة ١٩٧١ . .

ثم إننى لا أرى أية بارقة أمل لمبادرة أمريكية أخرى فى المستقبل القريب ، ربما ذهبنا إلى مؤتمر جنيف المتعدد الأطراف إلى جانب السوفيت ــ وقد رأيت منذ خمس سنوات أن هذا المؤتمر لن يسفر عن أى نجاح من أى نوع . .

آلون : ولكن المصريين لم يعطونا شيئا يذكر ! .

كيسنجر : عقد اتفاق مع مصر هو الذى يجعل أمريكا قادرة على المضى فى مساعيها الدبلوماسية ، وإذا قارنا هذه النتائج بالكيلومترات المطلوب التراجع عنها هنا أو هنا ، فإن هذه المسافة من الأرض تبدو لاقيمة لها . . ولكن النتيجة هى أن تحصل إسرائيل على اتفاق «بعدم اللجوء إلى القوة» .

بيريز : إن المضايق ليست هى المشكلة ، ولكن المنشآت الاستطلاعية ، التى ليست لها قوة هجومية ، هى التى تهمنا الآن . . وهى ضرورية ، إن الحكومة السابقة لم تتغلب على الصدمة النفسية للهجوم المفاجئ فى أكتوبر ١٩٧٣ . نحن فى حاجة إلى محطات إنذار مبكر . . أى محطات تنذرنا قبل الهجوم باثنتى عشرة ساعة ، ولكن الاتفاقية المعروضة تنذرنا قبل الهجوم بست ساعات فقط ، فإذا كانت هناك تنازلات من مصر خاصة بمحطات الإنذار المبكر ، فإن اقتراحك يبدو معقولا .

كيسنجر : إنها مأساة حقيقية! لقد حاولنا أن نوفق بين تأييدنا لكم وبين مصالحنا الأخرى فى الشرق الأوسط ، إن سياستنا هى إنقاذكم من كل الضغوط الواقعة علينا فى وقت واحد ، ولو كنا أردنا إرجاعكم إلى حدود ١٩٦٧ ، لكان لنا ذلك ، فالرأى العام العالمى ، والرأى العام الأمريكى كله يؤيدنا ضدكم ، إن استراتيجيتنا هى حمايتكم من هذا كله ، ثم إننا تفادينا تماماً وضع خطة شاملة لحل شامل . . وأرى الآن بوضوح ضغوطاً كثيرة تتجمع كلها ضدكم لتعيدكم إلى حدود ١٩٦٧ ، فإذا قارنا ذلك بانسحابكم عشرة كيلو مترات إلى الوراء ، فإن هذا الانسحاب يبدو تافهاً ، وأنا لست غاضباً ، كما أننى لا أطلب إليكم تغيير مواقفكم ، ولكن يحزننى حقا أن أرى شعبا يحطم نفسه ويتردى إلى هوة سحيقة . .

رابين : فى هذا اليوم لقد زرت أنت قلعة الماسادا ! .

(نقلا عن كتاب «إسرائيل الحليف المقاتل» تأليف ناداف صفران)

ويشير رابين إلى أن هنرى كيسنجر قد زار قلعة الماسادا ، التى لجأ إليها اليهود وراحوا يقاومون حتى الموت . وهذه القلعة هى عقدة إسرائيل ـ عقدة «الماسادايزم» ـ أى أن يحاصرهم أعداؤهم ويخنقوهم حتى الموت . ولذلك فإسرائيل منذ قامت تحارب خارج أرضها . . وعلى الرغم من أن اليهود قد عاشوا فى «حوارى اليهود» وماتوا فى قلعة «الماسادا» . . فإنهم قد أقاموا إسرائيل وهى أكبر حارة لليهود وأكبر قلعة للانتحار الذاتى ! ! .

وواضح فى هذا الحوار استخدام كيسنجر للعصا السحرية . . يشير إليها ولكنه لا يمسكها بيديه . . وهو كيهودى ، أكثر الناس دراية باليهود . .

وسوف يتجدد الموقف مرة أخرى ، وسوف يتساءل كارتر والشعب الأمريكى : هل إسرائيل تساوى ضياع المصالح الأمريكية فى المنطقة؟ هل إسرائيل تساوى ضياع «الحكمة والاعتدال من أجل السلام» الذى اتخذه الرئيس السادات أسلوبا فى حل المشكلة؟ ، هل بيجين ، بالذات ، جاد فى بت ما يقول؟ هل هو يريد السلام أو أنه يريد الأرض . . ومزيدا من الأرض وأن يظل بقواته خارج إسرائيل ، وأن يظل الخوف والضيق واليأس داخل إسرائيل؟ هل صحيح أن بيجين يستطيع أن يهدد كارتر وأن يهدد الشعب الأمريكى الذى يضع إسرائيل على ساقيه ويرضعها ذهبا وحديدا ونارا منذ قيامها ؟ .

فهرس الكتاب

كتب للمؤلف

(ا) ترجمة ذاتية:

١ - فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ - عاشوا فى حياتى
٣ - الا قليلا
٤ - طلع البدر علينا
٥ - البقية فى حياتى
٦ - نحن أولاد الغجر
٧ - من نفسى
٨ - حتى أنت يا أنا
٩ - أضواء وضوضاء
١٠ - كل شىء نسبى
١١ - شارع التنهدات
١٢ - أمى .. ابنها !
١٣ - أول مرة

(ب) دراسات سياسية:

١ - الحائط والدموع
٢ - وجع فى قلب اسرائيل
٣ - الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ - عبد الناصر - المفترى عليه والمفترى علينا
٥ - فى السياسة (ثلاثة اجزاء)
٦ - الدين والديناميت
٧ - لا حرب ولا سلام فى أكتوبر
٨ - السيدة الأولى
٩ - التاريخ انياب واظافر
١٠ - الخالدون مائة - اعظمهم محمد رسول الله (ﷺ)
١١ - لعنة الفراعنة
١٢ - على رقاب العباد
١٣ - ديانات اخرى
١٤ - وكانت الصحة هى الثمن
١٥ - الغرباء
١٦ - الخبز والقبلات
١٧ - مواقف (٣ أجزاء)
١٨ - انتهى زمن الفرص الضائعة
١٩ - قال لى الرئيس
٢٠ - نار على الحدود

(جـ) قصص..

١ - عزيزى فلان
٢ - هى وغيرها
٣ - بقايا كل شىء
٤ - يامن كنت حبيبى
٥ - قلوب صغيرة
٦ - فوق الركبة
٧ - هذه الصغيرة (وقصص اخرى)
٨ - عريس فاطمة
٩ - يوم بيوم
١٠ - أنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبى:

١ - يسقط الحائط الرابع
٢ - وداعا ايها الملل
٣ - كرسى على الشمال
٤ - ساعات بلا عقارب
٥ - مع الاخرين
٦ - شىء من الفكر
٧ - لو كنت ايوب
٨ - يعيش .. يعيش ..
٩ - الوجودية
١٠ - عذاب كل يوم
١١ - طريق العذاب
١٢ - وحدى .. ومع الاخرين
١٣ - مالا تعلمون
١٤ - لحظات مسروقه
١٥ - كتاب عن كتب
١٦ - انتم الناس ايها الشعراء
١٧ - أوراق على شجر
١٨ - فى تلك السنة
١٩ - دراسات فى الادب الامريكى
٢٠ - دراسات فى الأدب الالمانى
٢١ - دراسات فى الادب الايطالى
٢٢ - فلاسفة وجوديون
٢٣ - فلاسفة العدم
٢٤ - أظافرها الطويلة
٢٥ - كيمياء الفضيحة

(هـ) رحلات:

١ - حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٢ - بلاد الله خلق الله
٣ - غريب فى بلاد غريبة
٤ - اليمن ذلك المجهول
٥ - أنت فى اليابان وبلاد اخرى
٦ - اطيب تحياتى من موسكو

٧ - اعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية :

١ - مدرسة الحب
٢ - حلمك ياشيخ علام
٣ - مين قتل مين
٤ - جمعية كل واشكر
٥ - الاحياء المجاورة
٦ - سلطان زمانه
٧ - حقنة بنج
٨ - العبقرى
٩ - الكلام لك ياجارة ..
١٠ - شين ٣

(ز) مسرحيات مترجمة :

*** للاديب السويسرى ديرنات :**

١ - رومولوس العظيم
٢ - زيارة السيدة العجوز
٣ - زواج السيد مسيسبى
٤ - الشهاب
٥ - هى وعشاقها
٦ - هبط الملاك فى بابل

*** للاديب السويسرى فريش :**

١ - أمير الاراضى البور
٢ - مشعلو النيران

*** للاديب الفرنسى جان جيرودو :**

١ - من اجل سواد عينيها

*** للاديب الامريكى ارثر ميللر :**

١ - بعد السقوط

*** للاديب الامريكى تنسى وليامز :**

١ - فوق الكهف

*** للاديب الامريكى يوجين اونيل :**

١ - الامبراطور جونس

*** للاديب الفرنسى يوجين ليونسكو :**

١ - تعب كلها الحياة

*** للاديب الفرنسى أداموف :**

١ - الباب والشباك

*** للاديب الاسبانى ارابال :**

١ - ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :


١ - الحنان اقوى
٢ - من اول نظره
٣ - طريق العذاب
٤ - الوان من الحب
٥ - شباب .. شباب
٦ - مذكرات شاب غاضب
٧ - مذكرات شابة غاضبة
٨ - جسمك لايكذب
٩ - اثنين .. اثنين
١٠ - الذين هاجروا
١١ - غرباء فى كل عصر
١٢ - اظافرها الطويلة
١٣ - هموم هذا الزمان
١٤ - الحب الذى بيننا
١٥ - عذاب كل يوم
١٦ - القلب ابدا يدق
١٧ - الا فاطمة (من الذى لا يحب فاطمة)

(ط) دراسات علمية :

١ - الذين هبطوا من السماء
٢ - الذين عادوا الى السماء
٣ - القوى الخفية
٤ - ارواح واشباح
٥ - لعنة الفراعنة

مقالات :

١ - شباب حائر
٢ - دعوة للابتسام
٣ - عندى كلام
٤ - لعلك تضحك
٥ - الحيوانات الطف كثيرا
٦ - احب واكره
٧ - تولد النجوم وتموت
٨ - ثم ضاع الطريق
٩ - هناك امل
١٠ - مصباح لكل انسان
١١ - اتمنى لك
١٢ - لعل الموت ينسانا
١٣ - اقرأ اى شىء
١٤ - ولكننى اتأمل
١٥ - نحن كذلك
١٦ - اللهم انى سائح
١٧ - الحب والفلوس والموت .. وأنا
١٨ - حتى تعرف نفسك
١٩ - آه لو رأيت
٢٠ - تعال نفكر معا
٢١ - كائنات فوق
٢٢ - ايها الموت لحظة من فضلك
٢٣ - هناك فرق



ونحن طلبة صغار فى المنصورة الثانوية زارنا
د. محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف.
أما السؤال الذى كان علينا أن نجيب عنه فهو: ما الذى تحب أن تكون عندما تكبر؟
وكان جوابى: لا أحب أن أكون مدرسًا!.
وكان ردًا غير سياسى.. فمعناه أننى لا أحب أن أكون مثل هذا المدرس أو مثل ناظر المدرسة أو ربما مثل وزير المعارف. أى لا أحب أن أعمل عملاً له علاقة بالتدريس والتعليم وتصحيح الكراريس.. وعندما قابلت الرئيس أنور السادات لأول مرة سنة ١٩٦٩ وكان وقتها نائبًا لرئيس الجمهورية سألنى:
ولماذا لا تكتب فى السياسة؟.
قلت: سوف أفعل.
فعاد وسألنى: متى؟
فأجبت: غدًا
وكان ردًا سياسيًا وكتبت مقالا سياسيًا وعندما عدت إلى هذا المقال بعد ذلك، لم أجده سياسيًا وإنما وجدته نموذجًا للشكل والمضمون الذى أستريح إليه، وأنا أستريح إليه، لأن هذا هو الذى أقدر عليه.
لأننى أمارس حريتى فى التعبير. ولكنى أراه ليس سياسيًا تمامًا إنما هو خليط من كل ذلك.
وهذا هو كتاب «نار على الحدود» الذى بين يدك بذل فيه المؤلف جهداً كبيراً كما يكون كتابًا سياسيًا يخاطب به كل الاتجاهات والتيارات بحيث يكون محايداً.

الناشر

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨